إطلالة على التراث

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

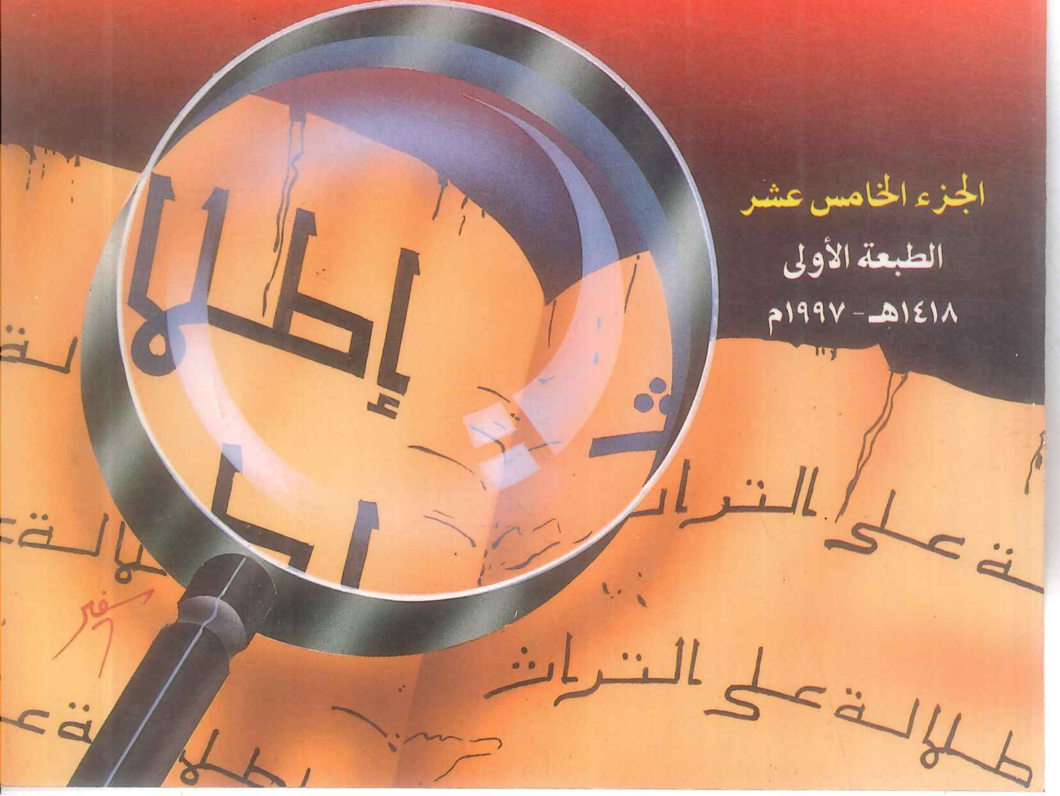

الجزء الخامس عشر

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

إطلالة على التراث

الجزء الخامس عشر

تأليف

عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر

الرياض - الطبعة الأولى

١٤١٨هـ - ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ

٨١٠,٨ الخـويطـر، عبدالعزيز بن عبدالله.
٦٣٦خ إطلالة على التراث / عبد العزيز بن عبدالله بن علي الخويطر.
– ط١. – الرياض: ع. ع. الخويطر، ١٤١٥هـ / ١٩٩٦م.
مج ١٥ : ٤١٦ ص؛ ١٤,٥ × ٢١ سم.
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٥)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)
١ ـ الأدب العربي – مجموعات. ٢ – الحكايات العربية.
٣ – السعودية – المقالات العربية.
أ ـ العنـــــــــوان.

رقم الإيداع: ٠٥٧٥ / ١٥
ردمك: ٨ – ١١٨ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (مـج ١٥)
٥ – ١١٤ – ٢٧ – ٩٦٦٠ (المجموعة)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هذا هو الجزء الخامس عشر، يأخذ مكانه في سلسلة «إطلالة على التراث»؛ يأتي حاوياً بعض المواضيع التي تدخل في طبيعة هذه السلسلة، في منهجه، وخطته، وأسلوبه؛ وهي مواضيع تجلو بعض جوانب التراث، وترصد بعض النصوص التي تمثل حياة الناس في الماضي، وتكشف أفكارهم، وما يدور في أذهانهم؛ وتبين نظرتهم إلى الحياة، ومساهمتهم في الحضارة التي عاشوها؛ وجوانب الحياة التي عاصروها، وما أضافوه لها، وما طوروه.

في هذا الجزء تركز الحديث على بعض الجوانب التي وجد أنها تعطي فكرة، وتفتح نافذة، على عالم الأمس، وما كان يهم أهل ذلك الزمن، وما ركزوا عليه، مما قد يخفى على كثير ممن لا يطلعون على كتب التراث، وما فيها من جواهر ولآلئ، ومن أهم المواضيع اعتناء القوم باللغة العربية، وغيرتهم عليها، ولا غرو في ذلك؛ فاللغة العربية هي وعاء ديننا، ومحط

فخرنا، ومصد اعتزازنا، ولها حق أن يُعَرَّفَ بها، وببعض زواياها، وأن تبقى في الصورة أمام العين، وأن يوسع لها مكان في القلب؛ ولا يتم ذلك إلا بإبراز جوانب القوة فيها، ومظاهر الجمال في كلمتها وجملتها، وبحمايتها من أن يتسرب إليها الضعف بالإهمال، أو بالسماح للغة أخرى أن تزاحمها، أو تتسرب كلمات منها إليها؛ وفي مقالة «في اللغة العربية» توضيح جانب من جوانب اللغة العربية، وفيها ما يكشف فوائدها، وصورها، وجمالها، لأبناء هذا الجيل، حتى تزيد ثقتهم بلغتهم، ويعطوها حقها من الفخر والاعتزاز والحماية.

والجانب الذي لمسناه، وإن كان محدوداً، إلا أن أحد المؤلفين على الأقل استطاع أن يجمع من أمثلة ما عناه كتاباً نظمه على نمط المعجم، فجاء وافياً بغرضه، مفيداً في بابه، لا يحتاج المرء معه إلى المزيد؛ وقد تتبع المؤلف ما جاء متناثراً في الكتب جملاً، أو أبواباً، أو كتباً؛ واستطاع بعمله هذا أن يدرس هذه

النماذج، عن قرب، وأن يقارن بعضها مع بعض، وأن يظهر التوافق بينها، أو الاختلاف، على أساس بعض المظاهر اللفظية أو المعنوية التي تعطيها مدلولها؛ وأتاح لمن أراد أن يزيد في البحث أن يضيف ما قد يكشف عنه المزيد من الدراسة.

ومقال «في اللغة العربية»، وهو يكشف عن ظاهرة من ظواهر اللغة يفي بالوعد الذي أخذته سلسلة «إطلالة على التراث» على نفسها، في أن تكشف جوانب التراث العربي والإسلامي في السياحة في رياض كتب التراث، واختيار ما يفيد الناشئ، مما قد لا يسمح وقته بالاطلاع عليه، أو ما قد لا يجد طريقه إليه؛ وبجانب المتعة النفسية التي يخرج بها قارؤه، والفائدة مما يحصله منه من درر النصوص، أو من المراجع التي ذكرها، أو المراجع التي اقتبس منها، يضع في يده سلاحاً قاطعاً، يستفيد منه عند جدله مع أصحاب الآداب الأخرى، والقارئ لاشك واقف أمامهم في يوم من الأيام موقف جدل، يحتدم

فيه النقاش، وتتصادم الآراء، وتحتك الأفكار، دون اختيار منه.

وأي مجهود يبذل في خدمة اللغة العربية، وكشف ما خفي من بعض أسرارها، وإظهار ما قد يكون منزوياً من ميزاتها، فيه خدمة للدين، وفي خدمة الدين الأجر والثواب.

وجوانب الأدب العربي متعددة، ولم يترك الأدباء، والكتاب في الماضي جانباً إلا لمسوه، ودونوه بعد أن اقتنصوه، أو أهدي لهم، أو نقبوا عنه في مظانه، فدرسوا جوانبه، فلم يتركوا شاردة ولا واردة إلا غمسوا فيها أقلامهم، تسجيلاً وتمحيصاً وبحثاً واستنتاجاً، فدونوا الخطب بأنواعها، والأحاديث بأقسامها، والنثر بفنونه، مسجوعاً ومطلقاً، وجمعوا الشعر، وقالوه، وأحصوا الأمثال، واهتموا بالحكم، فجاء عملهم في مجموعه متكاملاً، ولولا ما فعله التتار وغيرهم، وما عمله الزمن، من تلف وتدمير، لكان لنا اليوم حصيلة لا نحتاج معها إلى مزيد.

وقد لَمَستْ مقالة «الحكمة» في هذا الجزء؛ بعض جوانب الحكمة، وأرت الاهتمام بجانب الفكر المضيء؛ وكيف أن هذا الجانب يدل على مدى عمق الحضارة، وكل جملة من جمل الحكمة لا تكشف فقط عن عقل قائلها، وإنما عن الأمة التي هو منها، والحضارة التي يمثلها.

وفي هذه المقالة يتبين ثراء الفكر العربي في هذا الجانب، ومدى تسامحه في اقتباس ما يستحق الاقتباس من الآداب الأخرى، والحضارات التي اتصل بها، واستفادته من كل ذلك، وصهره في بوتقة واحدة، والخروج بما يجعله يتسم بسمة العرب والمسلمين.

واستقراء الحكم أثبت أن لكل حكمة مرماها الفكري، والحضاري المضيء، وأن الحِكم من الكثرة والشمول بحيث غطت جوانب لا تحصى مما يلمس حياة الناس؛ وكانت الحكم، على قصرها، ذات مرام واسعة وبعيدة، وتصلح لكل زمان، وهي خير معبر عن المعاني الرفيعة، بكلمات قصيرة.

وهناك موضوع آخر تطرق له هذا الجزء، وهو عن المعمرين؛ والكتاب والأدباء والمؤرخون في العصور الإسلامية الأولى، في عصور الازدهار خاصة، أقبلوا على تدوين ما استطاعوا أن يحصلوا عليه من إضاءات فكرية، سطعت في أفق مجتمعهم؛ ثم بعد أن دونوا الأسس، وما تفرع عنها، شرعوا يبحثون، وسط المنافسة الحامية من الكتاب الآخرين، عن جوانب لم يتنبه لها أحد، أو أهملها الناس ظناً أنها لا تستحق أن يكتب فيها كتاب، فجاؤا بما يدهش، وألفوا في دقيق أمرها، وفرعوا من الأصول فروعاً مبدعة، وما تَعَدُّدُ صور المعاجم، والتفنن في أنواعها، إلا جانب من هذه الجوانب.

وقد لفت نظر بعض العلماء الأجلاء ورود أخبار عن معمرين، وأشعار قالوها، هي زبدة تجارب مرت بهم في حياتهم الطويلة، ورأى أحدهم أنها من الكثرة والطرافة، واحتواء الفائدة، بحيث تستحق الالتفات والتدوين، فجمعها في كتاب، وجاء غيره

وعمل مثلما عمل، فسهل الاطلاع على هذا الجانب الطريف، ممن يهمه الأمر؛ فجاء جمعها هذا مفيداً، ومن أول فوائده أنه سهل المقارنة بين النصوص المختلفة المتماثلة، أو المتباينة، وبين طرق روايتها، والتداخل بينها، أو التنافر.

وهذه النصوص تكشف جوانب مهمة في حياة المعمرين، وتظهر بوضوح بعض خبايا النفوس الإنسانية، لأن السن المتقدم يسمح للكبير أن يدلي بما قد لا يدلي به الشاب أو اليافع؛ وأيضاً تكشف مدى ملل الإنسان من الحياة، إذا تعدى سنُّه الحد المتعارف عليه، ومدى زهده في بعض الجوانب التي كان يضعها في مقدمة ما يهتم به، وما قد يقاتل من أجله، مثل المال والحياة.

وهي تكشف كذلك تعلق من لم يَشِخْ بعدُ بمعرفة حياة المعمرين، وما مر بهم من تجارب، وما تعرضوا له من طرائف، أملاً في الاستفادة منها؛ وبعضهم يهتم بمعرفة سبب امتداد العمر عند المعمر، بإذن الله،

ليستفيذ إن كان هناك استفادة، ومعرفة السر إن كان هناك سر.

ويبين تدوين حياة هؤلاء المعمرين جاذبية هذا الحقل للنحل، وتأليف القصص، والمغالاة في ذكر الأعمار، وزيادتها عن المعقول، مما ينسي المؤلف أحياناً نفسه، فيأتي بما هو مرفوض، وقد يدخله هذا، دون أن يدري، حدود الخرافة، وعالم الأساطير.

وليس بعيداً عن أمر المعمرين أمر الشيب، وهو أحد المواضيع التي تطرق لها هذا الجزء، لما في نصوصه من بريق، ففيه من جانب الفكر ما يدل على أن المعاني مستقاة من منبع ثَرٍّ بالصور، وبالأفكار المبتدعة، والمعاني البكر.

والإنسان، إذا مد الله له في الأجل، فطال عمره، لابد أن يتسرب إليه الضعف، ويغزو شعره الشيب، وتعتريه الشيخوخة، فتهين قواه، ويلين عظمه، ويضمر جسمه؛ ولابد أن يثقل سمعه، ويضعف نظره، وتصعب حركته، ويقل نومه؛ وتبدأ تزداد حاجته

إلى من حوله، فيثقل عليهم؛ ويبدأ تدريجاً يوضع على الرف، فإذا ما عمر مل الحياة، لفقده ما كان عزيزاً، وانعزاله عمن حوله، والعربي يرى الشعر إحدى أصدق وسائل التعبير، وأشدها وقعاً، وأدقها تصويراً، وأكثرها خلوداً، فسجل به شعور كثيرين ممن نفثوا تخفيفاً مما في صدورهم شعراً، فوصفوا ما يفعله الشيب بالإنسان؛ فجاء الشعر بمعان مبتدعة، كشفوا فيها عما يدور في أنفسهم، وما يختلج في صدورهم من همّ، قد يخفى على من حولهم.

وقد جاءت في هذا الجزء نماذج عن هذا الأمر، يمثل الشعر فيها بدء الشيب، ثم سطوته، وعنفوانه، وغزوه، وتطويقه في نهاية الأمر؛ وما جاء منه في هذا الجزء قليل من كثير، وكتب الأدب تطفح بذلك، وقد أُلفت فيه كتب؛ وهذا موضوع حضاري لا يتوافر تدوينه والعناية به، وجمعه، إلا من أمة لها باع في الحضارة.

وبعض ما جاء في هذا الكتاب من الشعر فيه، عند

التدبر، استجابة لأمر الله في أن يتدبر المرء الكون، وأن يبدأ بنفسه، وهي أقرب ما تكون إليه؛ وهؤلاء الشيوخ قد نظروا في أنفسهم، وفيمن حولهم، وفيما حولهم، وأطالوا التدبر، وأمعنوا في التبصر، فخرجوا بوصف دقيق لما استنتجوه، وسجلوا ذلك في شعر رصين، وخيال لعب البيان والبديع فيه دوراً صَبَغَهُ بالجمال؛ فجاء حسنَ الوقع، مؤكدَ التأثير، وتخلل سجف الزمن حتى وصل إلينا، نتيجة تقدير الكتاب له، وإعجاب الأدباء به، وأصبح من آثار لغتنا وفكرنا؛ له ولاء نؤديه له، بإزاحة الغبار عنه، وعرضه مضيئاً نيراً؛ ليعرف أبناء هذا الجيل جانباً من الجوانب التي كانت محل اهتمام آبائنا وعنايتهم.

ولمس هذا الجزء أمراً مهماً في حياة العربي ابن الصحراء وابن مدن الصحراء وقراها في الجاهلية والإسلام، وهي القبيلة التي هي محور حياة هذه البيئة ومن عليها، فقد لعبت القبيلة في حياته دوراً بارزاً، تأثر به كل جانب من جوانب بيئته، وحكم

ظاهرها وباطنها، ولونها باللون الذي كانت عليه .

وإذا كان ابن الصحراء تميز بهذه الصفة أمام الحضري، فابن الصحراء لم يكتف بهذه القسمة الطبيعية، فقسم نفسه إلى قسمين عدناني وقحطاني، وكل من هذين القسمين انقسم إلى قبائل ثم عشائر وأفخاذ وعوائل؛ ولعب هذا التقسيم دوراً حيوياً في سلم العربي وحربه، وتنقله في صحرائه؛ وحكم زواجه ومصاهرته، وأقام عليه مفاخرته؛ واتخذه ركيزة يلمز بها غيره؛ وعلى أساس هذا التقسيم قام الجوار والصداقة والعداوة، والمنافرة والمفاخرة؛ وكان الفرد يتلاشى في القبيلة، عيبه عيبها، وإحسانه إحسانها؛ مكاسبه لها، وخسائره عليه؛ لا يخرج عن طوعها وإلا نبذ، ولا يخالف رأيها وإلا اطّرح؛ يسير ضمن سيرها، ويتجه مع اتجاهها؛ تحكمه عاداتها، وتستعبده تقاليدها؛ قوته منها، وضعفه إليها؛ إن انتصر فلها الفضل في ذلك، وإن انهزم لحقها خزي ذلك؛ والعائلة اليوم صغيرة، وغداً

فخذ وعشيرة، ثم قبيلة لها كيانها، ولها استقلالها.

صبر العربي على صحرائه: على جدبها وقحطها، وتمتع بربيعها وازدهارها وخصبها؛ وكون في بعض مراحل حياته قرى ومدناً، اصطبغت إلى حد متناه بصبغة البادية، ولم تبتعد عن القبيلة وقواعدها وحياتها؛ وبقي العربي كذلك قروناً وقروناً، حياته هي حياته، ومجتمعه هو مجتمعه، وحيواناته هي حيواناته، واستفادته منها هي استفادته منها، فلم يتطور عما وجد عليه آباءه وأجداده إلا بقدر ما تسمح له به معيشته وحياته في هذه البيئة المنعزلة، المحدودة الاتصال، المقيدة بسلاسل من المحيط ومن فيه، وما فيه.

وجاء الإسلام فكان فيه للقبيلة هزة قوية، زلزلت بعض أركان حياة العربي، فأدخلت عليها ما محا بعض المعالم، وهدم بعض الحصون الراسيةِ الأسس، وأدخل جديداً، وأقام أركاناً؛ وحاول مصلحوه أن يجتثوا بعض ما هو ثابت وركين، لعدم سيره مع خطة

الإسلام ومنهجه، فنجح الدين وحاملوه إلى حد كبير، ولكن بقيت بعض المظاهر ترفع رأسها عند المحنة، وتندلع نار شرها عند الاحتكاك.

جاء الإسلام ودعا إلى التساوي بين الناس على أساس الدين، والتقوى، وطاعة الله، لا على أساس القبيلة والعشيرة وأفخاذها وعوائلها؛ وجعل قيمة الفرد بما يفعله مما يُرجح كفته يوم القيامة، ويعلو به مقام صاحبه يوم الدين، ويكون له الجزاء الأوفى في الآخرة؛ وقلل من أمر الدنيا إلا فيما يحفظ العمران، ويساعد دنياً على حقوق الآخرة؛ وصرف الناس عن عبادة أنفسهم، ومظهرها المفاخرة بالإنجاز، ونشره على الملأ، بغية كسب دنيوي، وجعل النية هي الأساس، وما يبطن من الخير خير مما يظهر إلا ما أريد به القدوة، وتشجيع الآخرين؛ وَوَزَن الدين أمر الدنيا وأمر الآخرة، بما لا يُطغي أحدهما على الآخر، فيختل ميزان الحياة، فكانت تعاليمه ضياءاً بدد ديجور الظلمة، التي كانت تسود بعض جوانب

الحياة في البادية وقراها ومدنها؛ وحول وجهة الناس من أنفسهم، وبعضهم بعضاً، وأصنامهم، ومفاخرهم، إلى رب السماء، وطاعته، ورضاه.

ولم يكن تحويل الناس من وجهة وَلَّوْها وجوههم قروناً وقروناً إلى وجهة أخرى مختلفة تماماً، أمراً سهلاً، أو جاءت نتائجه سريعة، ولم يكن التقبل لهذا الأمر مواتياً، بل أخذ وقتاً وجهداً، وبعضه لا يزال إلى اليوم يطل برأسه إذا ما وجد الشيطان إلى صاحبه سبيلاً؛ إذ تبين أن العادات والتقاليد، وحب الدنيا، من القوة بحيث تحتاج إلى جهود متواصلة من الاقتلاع والاجتثاث.

وفي المقالة التي تتحدث عن القبيلة، في هذا الجزء، صور مما مرت به القبيلة في جاهليتها، وفي إسلامها، والأشواط التي قطعتها؛ وبعض صور الصراع بين ما يريده الإسلام من تلك البيئة، وما تقاوم القبيلة لإبقائه على ما كان عليه؛ وهي صور متباينة ومتعددة، وتأخذ أشكالها من الظروف التي تمر بها، وما قصة

الرجل الذي أرسل لينقذ غريقاً، فلما علم أنه من قبيلة معادية لقبيلته، تركه يغرق، ولو لم يغرق لَغَرَّقَه بوسيلة دامغة، كما ذكر، والإثنان في طريقهما إلى جهاد عدو مشترك، دينه مخالف لدينهما.

وفي هذه المقالة صورة للإتقان المتناهي الذي كان عليه مجتمع الصحراء في مجال حياته المختلفة، نتيجة للحضارة العريقة التي كونها متناسبة مع حياة البادية القاسية، وما تتعرض له من قحط يأتي من ورائه الشح والعوز، ومن خصب يأتي معه الوجد والغنى؛ أتقنوا جوانب حياتهم في جميع مظاهرها، فكونوا قواعد ثابتة راعوها حق المراعاة، وتمسكوا بها تمسكاً متناهياً؛ لم يتوانوا في حمايتها، والإصرار عليها؛ فكانت لهم تقاليد وقواعد ونظم تحكم الزواج، داخل القبيلة وخارجها؛ وكانت لهم مِثْلُها لغزوهم، ومجاورتهم، وغاراتهم، وثاراتهم؛ وبرزت أمور تدل على عمق في الحضارة مثل حماية القوافل، ووجود أشهر للحرم معترف بها، وأسواق تقام تساعد على

نماء الاقتصاد، وتساهم في الاستجمام والراحة؛ وكأنها صيغة أخرى لصيغ الأجازة في عصرنا الحديث.

وبالتجربة وبالتفكير وجدوا أنه لابد أن يبرز في لفائف العادات العنيفة بعض الجوانب الرقيقة، فكانت تأتي أوقات يتهادن فيها فريقان دُقَّ بينهما عِطر مِنْشَم؛ لأن الخصب الطارئ يجب أن لا يضاع؛ فكان يتم الاتفاق في جو يسوده العقل، وتسيطر عليه حضارة قوية، تستطيع أن تخزم دواعي الشر، وتلجم أسباب الفتنة؛ فكان هذا مظهراً منيراً في حياتهم، يشهد لهم بارتقاء العنصر، وجودة الأصل.

ولم يكن هذا وحده يشهد لهم بهذه الفضائل بل إن الشعر الراقي الذي خلفوه، والحكم والأمثال التي تركوها، تعرب بلسان بليغ عن عمق حضارتهم، ورقي فكرهم؛ وكيف بزوا غيرهم من أمم الصحاري في بقاع الأرض المختلفة الأخرى.

وفي هذا الجزء إطلالة من نافذة واسعة على ما يتعرض له الإنسان من زلات، وكيف حدثت بعض هذه

الزلات، وكيف عولجت، إن كانت عوجلت؛ وكيف جاءت، وأسباب مجيئها؛ وأُتي بأنواع منها اعتمدت على ظروف أوجبتها، أو عقول لفظتها، ونبذتها.

والزلة في الغالب تأتي من شخص لشخص، وفي المقالة ما يعرض موقف كل من الشخصين؛ وبعض هذه الزلات مؤلم، وبعضها مضحك؛ وبعض الزلات يغفر، وبعضها ينال صاحبه أشد العقاب؛ وهذا الأمر مُغْرٍ بالوضع، ولهذا جاء بعض ما دون منافياً للعقل، أو فيه مجال للشك؛ والمقالة تحاول أن تضع بعض الأفكار التي ترجح أحد الأمرين.

وقد ذكرت بعض الزلات لا لأنها تخص بلداً أو أمة، ولكن لقيمتها، وهذا يتناسب مع هدف «الإطلالة»، التي تحاول أن تعطي صورة لتراث أمتنا، ما كان منه عربياً أو مقتبساً، وهو يمثل ما كان يدور في محيط آبائنا؛ وما كانوا يأخذون ويقبلون، وما كانوا يرفضون وينبذون؛ خاصة وأن حركة التدوين التي قامت زمن العباسيين، وبالذات زمن المأمون، ومن

جاء بعده، أدخلت كثيراً من آداب الأمم المجاورة، سواء من أسلم منها أو من لم يسلم.

وفي ذكر هذه الزلات، ورقعها أحياناً، فوائد جُلَّى، ففيها تجارب يمكن للإنسان أن يستفيد منها، فلا يقع في زلة مثلها، وإذا وقع يستطيع بعلمه أن يخرج من الموقف الحرج الذي يقع فيه؛ ولعل تعداد الزلات هنا يفيد جيلنا الحاضر في التأني في التفكير قبل القول، والتروي قبل الفعل، حتى لا يقع في المحذور.

وقد جاءت الزلات من أناس مختلفين، بعضهم حكام، وبعضهم علماء، وبعضهم ساسة دهاة، وبعضهم من عامة الناس؛ ولاشك أن الزلة تُقَوَّمُ بمقام صاحبها، ومن بدرت منه؛ فتكبر من الكبير، وهي صغيرة، وتصغر من الصغير، وهي كبيرة؛ والأمر على هذا نفسي، يحكمه مقام صاحبه، والمحيطون به؛ وعلى هذا فهناك فرق بين زلة معاوية، أو عمرو ابن العاص، وزلة أبي العيناء! وفرق بين زلة كسرى،

وزلة شيخ هرم من عامة الناس.

وهناك متعة يجدها القارئ في الردود على الزلات، وما تأتي به من مخارج، وما يكون فيها من لطف ولين، أو قسوة وخشونة؛ وما ينتج عن الرد من ألم، أو مرح. وبعض الزلات، كما قلنا، مصدر للضحك والفكاهة، ومثلها الرد عليها؛ وبعضها نتائجه وخيمة؛ خاصة إذا جاء الزلل من الأدنى إلى الأعلى؛ ولمس أمراً من الأمور التي لا تمس؛ والأمر بين اثنين قد تكون له طبيعة تحكمه، فتضفي عليه ما يجعل تأثيره محدوداً، وبعضها خلاف ذلك، فيكون بين جماعة، كأن يكون الخطاب الذي جاء فيه الزلل من قائد يتحدث إلى جنده، فيزل، فيرد عليه أحدهم؛ وهنا تتلبد الأجواء بغيوم غير مرحب بها.

هذه لمحة سريعة عما احتواه هذا الجزء؛ وبعض ما جاء في صلب المقالات ينوب عن المقدمة في ذكره، إذ أنه من طبيعتها.

***

في اللغة العربية[1]

اللغة عند أي شعب مصدر فخر واعتزاز، لأنها جزء منه، تحمل مصادر ثروته المعنوية، ففيها مخزون تراثه، وفيها سجل بوارق ماضيه، وهواطل المجد عند آبائه، كل كلمة تستند إلى عضد لها من التاريخ، وما فيه من إنجازات، فهي الصورة الدقيقة الصادقة لما كانت عليه أمته، ولهذا حرصت الأمم على بقاء لغتها صافية نقية، تحميها من زحف الشوائب إليها من لغة أخرى، إلا ما ارتضته، ورأت فيه ثراءاً للغتها، وعضداً مفيداً لها، يقويها ويزيد مدلولاتها؛ أما ما لم يكن كذلك فهي تقف له بالمرصاد، إلا إذا كانت أمة ضعيفة غلبها غالب، وأصبحت تحته تئن تحت وطأة تسلط سياسي أو ثقافي أو اقتصادي أو غير ذلك مما لا تستطيع مقاومته، فإنها في هذه الحالة تتأثر لغتها بدخيل من لغة المتسلط يبدأ تدريجاً، ثم يزداد أحياناً إلى أن يغلب على لغة المغلوب، وقد يقضي عليها

---

(١) انظر مقال: «كاني ماني» في إطلالة على التراث: ٢/ ١٦٨.

كلية، فلا يبقى منها إلا كالوشم في ظاهر اليد: كلمات هنا وهناك، وتعبيرات هنا وهناك، يستدل منها الباحث فيما بعد على ما كان لهذه الأمة من لغة وحضارة؛ وفي العالم، ماضياً وحاضراً، أمثلة على ذلك.

والأمة القوية، لا تكتفي بحماية لغتها، أو تبقيها جامدة، بل تسعى لتحسين أدائها، وقيامها بحمل الأفكار، والتعبير عنها، قوة في البناء، وجمالاً في الأسلوب، ودقة في المدلول، وتأثيراً في القصد والهدف، وهذا مما يميزها عن غيرها، ويحميها من أن تُزاحَم، أو تضعف عن مسايرة حياة الشعب الذي يتكلمها.

واللغة العربية هذه صفتها، بقيت تتطور إلى ما قوى كيانها، فقاومت الزمن، وكانت مصدر رعاية الناطقين بها، واهتمامهم، لم يقتصروا على أن يجعلوا وعاءها لغة المخاطبة، والأحاديث العابرة، بل رفعوها إلى أن تكون وعاء الخطب، والشعر، والحكم،

والأمثال، فحملت أندر الأفكار، وأقوى المعاني، وأبهى الصور، وأجمل التركيبات، فاقتنصت الحقائق دقيقة متقنة، وقيدت أوابد الصور الخيالية، فجاءت بالسحر الحلال.

ودقة المعاني أوجبت كثرة الألفاظ، حتى صار لجزء صغير من الأمر مدلوله، وجاءت بالمترادفات لتضمن تحقق الفهم، ورسوخ الأفكار، واستقرار المعاني؛ ورفهوا أنفسهم ببذخ في التعابير، قد لا تجد لغة وصلت إليه، حتى أصبحت كتب التراث التي دونت اللغة وآدابها وتاريخها، تكاد لا تحصى عدداً، ولا يحاط بها تفنناً وإبداعاً.

ومن المظاهر التي لفتت نظري، ونظر كثيرين، حرص العرب على موسيقى الكلمة والجملة والتعبير، وأَوْلَوا هذا عناية فائقة، وحرصوا عليه، بل أنهم أحيانا أسرفوا في هذا، فإذا كان الشعر أحد هذه المظاهر بوزنه الدقيق، وقافيته المعتبرة، فالسجع كان مظهراً فريداً، من فخرهم به، تفننوا فيه حتى

المغالاة أحياناً. ولم يكفهم هذا بل عمدوا إلى وزن الجمل غير المسجوعة، فجاءت متناغمة في صورتها، وصوتها ومعناها، فأصابت بهذا هدف التأثير، فحركت وأطربت وأبهجت.

وجاء القرآن الكريم ليضع التاج النبيل على هذه اللغة الكريمة، فكان القدوة والمحتذى، والمقياس الأسمى للفصاحة والإعجاز، بسوره وآياته، وكلماته، وما تحمله من معانٍ، وصور، ومدلولات، وعبر.

ومن بين ما يلاحظ المتتبع لحرص العرب على اعتدال الجملة، وحسن وقعها على السمع، وما لا تستغني عنه من موسيقى، جرسها يطرب الأذن، ويبهج الروح، ما ابتدعوه من أسلوب التتابع، وهو فن في اللغة العربية فريد، فيه ما يؤكد معنى من المعاني، ومنه ما يأتي سنداً يَتِدُ الجملة، ويقيم أودها، ترتكز عليه كما ترتكز النبتة على خشبة توضع بجانبها تسندها، وتحميها من أن تميل، وتبقيها مستقيمة، تخلب الرائي، وتساعدها على النمو

والطول، واشتداد العود.

وقد يمر القارئ للتراث بمثل للتتابع تحتار رجله عنده، ويقف ليتدبر الحكمة منه، والسبب في وجوده، ووجوه التطور التي دخل على اللغة منها، ويظن أن الأمثلة قليلة ـ كما ظننتُ يوماً[1] ـ فيجد أن الأمر أوسع مما ظن، وأن هذا أسلوب متبع، له غرض، وله نهج، وله هدف وغاية، وبالاستقراء لبعض الأمثلة يجد المتتبع أن الحقل واسع، والأمثلة كثيرة لا تكاد تحصى، وقد حاول أحد المؤلفين[2] أن يجمع ثروة من هذه الكلمات التي تكوِّن هذا الأسلوب، ونجح في تأليف كتاب ثمين مفيد، صنف فيه ما جمعه، ورتبه حسب حروف الهجاء، فأخذ صفة كتاب لغة، وصفة معجم، وقراءته رحلة ممتعة في روض أغن، فيه من عبق الزهر ما يبهج النفس، ويدعو للفخر والاعتزاز.

---

(١) انظر: إظلالة على التراث: ٢/ ١٦٨.

(٢) هو أحمد بن فارس بن زكريا. وكتابه هو: «الإتباع والمزاوجة».

ولعل المؤلف وهو يختار طريقة المعاجم قد لاحظ ثراء اللغة العربية في هذا، مما جعلها إحدى اللغات القليلة التي ركزت على هذا الجانب اللغوي، فأصبحت معاجمها متنوعة، فيها من الفن والإبداع ما لم يسبقها إليه أحد من قبل، بل اتُّخِذَت أسوة لمن جاء في العصر الحديث يسعى في تسهيل مراجعة الكلمات والمعاني في اللغات الأخرى.

ولعل من الفائدة أن نقوم برحلة مختصرة داخل هذا الكتاب لنرى جانباً من جوانب الجمال في اللغة العربية، وجانباً من جوانب العناية بها، وجانباً مما يبدو كأنه جانب من جوانب الترف الفكري المحبب.

والإتباع والمزاوجة أقرب أن يسميا المساندة، فهما بهذا أولى، لأن الكلمة التالية تسند الأولى، سواء بتأكيد المعنى، أو بتعضيد اللفظ، فإذا سندت المعنى فهي ذات معنى، ولو انفردت به لأجزت عن الأولى، وإن سندت اللفظ فهي مفيدة في الشكل مظهراً وموسيقى.

والسَّنْد أو الإتباع والمزاوجة كثيراً ما يأتي بتغيير حرف في أول الكلمة، وبعض الحروف يبدو أنه هو المفضل، وسوف نرى من الأمثلة بعض هذه الحروف، وتفضيلهم لها، حتى إن المتكلمين بالعامية تبعوهم في ذلك، مثل تفضيلهم لحرف الباء، ولعل قوة نطق الباء له دخل في هذا الاختيار.

وقد بدأ ابن زكريا معجمه في الإتباع والمزاوجة بحرف الباء في آخر الكلمة فساق أمثلة مما يعتبر تأكيداً لحمل المعنى نفسه للكلمة السابقة مثل:

«إنه لساغب لاغب».[1]

فالساغب: الجائع، واللاغب المُعيّ الكالّ، أو: الجائع التعب.

والمساندة جاءت من تغيير السين في الكلمة الأولى باللام بالكلمة الثانية، وهذا أدى إلى إضافة معنى جديد يختلف عن المعنى الأول، ولكنه يضيف إلى الإطار العام لمعنى الجملة، فيصف حالة الكرب

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٤٥.

التي عليها الموصوف، فهو معنى مقصود، ورفد الكلمة الأولى بالثانية معنى صاحَبَه سَنْدُها صوتاً وموسيقى بالثانية، فكملت فصاحة الجملة بأن جاء المعنى المقصود وافياً، تحمله جملة مختصرة، ذات مظهر جذاب، وموسيقى مشنفة للأذن.

ومن أمثلة الإتباع ما رواه الأصمعي إذ قال:

«رجل خيّابٌ تيّاب»[1].

فالخياب من لازمته الخيبة، فهي كلمة مشتقة من معنى معروف متداول، أما تياب فلا معنى قريب لها، وهي إذن زينة للنظر عند القراءة، وموسيقى جميلة في السمع، وهي التي ينطبق عليها ما قيل من سَنْد الجملة، ووقوفها وتداً، يثبت الكلمة الأولى حتى لا تبدو بتراء.

وكما رأينا اختيرت التاء للمغايرة طلباً لنجاح الموسيقى في اللفظ، وقبول ذلك في السمع، لأنه لم يكن بالإمكان الإتيان بالباء بعد الباء، فيكون هناك

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٤٦.

من الثقل ما يحبط العمل، ويقصر دون الهدف، أو يدغم الباء في الباء نطقاً.

ومن الكلمات المنتهية بالتاء القول الآتي:

«مُعْفِتٌ مُلْفِتٌ» .[1]

والثاني مؤكد للأول، فكلاهما بمعنى اللَّيِّ الشديد، أو الدق، وكونه مؤكداً فإن بالإمكان أن يحل الثاني محل الأول دون إخلال بالمعنى، ولو أسقط أحدهما لأغنى الثاني عنه إلا أن ذلك يخل بانسجام الجملة، ولا يطرب السمع مثل المجيء بهما معاً، فالجملة بهما تقر عينها، والأذن يشنف بهما سمعها، والمعنى يقوى بالعنصرين أكثر من التعبير بعنصر واحد؛ فالمتابعة في المثل شكلاً، وبالتأكيد معنى.

ومما جاء في باب حرف التاء من المتابعة القول الآتي:

«إِنَّهُ لعِفْرِيت نِفْرِيت»[2] .

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٤٩، الأمالي: ٢/ ٢١٨.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٤٩، والأمالي: ٢/ ٢١٧.

وربما قالوا:

«عِفْرِيَةٌ نِفْرِيةٌ، للدَّاهِيَةِ»[1] .

والعفريت معروف، والعفريت من الرجال النافذ في الأمر، المبالغ فيه مع خبث ودهاء، كما شرح محقق الكتاب، أما النفريت فهو إتباع، لا يبدو أن له معنى؛ وفي هذا المثل كما رأينا، أبدلت اللام نونا، والنون أحد الأحْرف التي تحظى بالقبول عند الإِتباع.

وفي حرف الثاء يأتي مثل هو أقوى في اعتباره متابعة، وقد اختيرت الباء فيه لتكون الوسيلة لجر المتابعة بتؤدة وقبول، فقيل:

«تَرَكَتْ خَيْلُنَا أَرْضَ بَنِي فُلاَنٍ حَوْثاً بَوْثاً، إذا أثارتها» .[2]

فالحوث كما يبدو هو الحامل للمعنى الأصل، وهو الإِثارة، أما البوث فلا يبدو أن له معنى إلا ما اتخذه بالمجاورة للحوث؛ فهو كسب معناه منه، وتساندا

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٤٩.

(٢) الإِتباع والمزاوجة: ٥١.

ليقوى التعبير، وتسلك الموسيقى المسلك المرضي للمتكلم والسامع.

وفي الجيم تأتي وسيلة المتابعة أو المزاوجة في القول الآتي:

قال اللحياني: «هو سَمِيْجٌ لَمِيْجٌ، وسَمِجٌ لَمِجٌ» .[1]

والسمج أو السميج: القبيح، أو الذي لا ملاحة له، واللميج: الكثير الأكل. ولاشك أن اختيار اللام لتحل محل السين في هذه المتابعة، أو هذا التأكيد، اختيار صائب فهي أقرب الحروف في هذا التركيب لوزن الصوت عند النطق بالجملة، وحسن استقبال الأذن له.

وقد لا تسمح الكلمة بتغيير الحرف الأول عند التأكيد أو المتابعة، أو قد تسمح، ولكن ذلك ليس هو الأفضل، وإنما هناك ما هو خير منه، وأفضل وقعاً، وهو أن يكون الإبدال في حرف آخر، يأتي

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٣.

موقعه في وسط الكلمة أو قريباً من وسطها مثل القول الآتي:

قال اللحياني: «مَا عِنْدَهُ عَلَى أَصْحَابِهِ تَعْرِيْجٌ ولا تَعِوْيْجٌ، أَيْ إقامة».[1]

ويفرح العربي عندما يأتي معنيان متماثلان، ولفظاهما متقاربان، ويعتبر أن هذا صيد ثمين، لما في المتابعة من تحقيق أهدافه في التأثير وحسن القبول، فحينما يرى أن معنى «عاج» قريب أو مماثل تماماً لكلمة «عرج» لا يتعداهما دون أن يزاوج بينهما في كلامه.

وإذاً «الحاجة» يمكن أن يصاغ منها حوجاء، لتكون في معناها مثل «لوجاء»، فيمكن أن تأتي مرادفة لها، أو مؤكدة، أو لمن لم يعلم بذلك، متابعة لها؛ ولأن العربي مغرم بالملاحة فإنه يمكنه أن يملح هذا النطق، فيأتي به مصغراً في شطريه فيقول:

«مَالِيْ فِيْهِ حَوْجَاءُ وَلاَ لَوْجَاءُ، وما لي فيه حُوَيْجَاءُ،

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٣.

وَلاَ لُوَيْجَاء» .[1] .

ونأتي إلى قول في هذا المجال مما يعتبره العربي الحريص على جمال لغته، وحسن تعبيره بها، فنجد التعبير الآتي:

«رَجَعَ إِلَي حِنْجِهِ وَبِنْجِهِ: أي أصله»[2] .

وفي هذا نلاحظ أن كلمة بِنْجِه قد حظيت بالباء التي ترجح في كثير من الأحيان على غيرها في المتابعة؛ وهو ما يجعلنا نشعر أحياناً أن ما يكون الإبدال فيه بالباء هو في الحقيقة والأصل إتباع، كسب مع الوقت المعنى في مجاورته للأصل، وإنه في مثل هذا المثل يرجح عندنا أن «الأصل» «حِنْجِهْ» وأن «بِنْجِه» وإن وردت في المعاجم اللغوية تعني الأصل، وإنه بالامكان الإتيان بها، على هذا، وحدها، فإنها في بادئ الأمر جاءت لتكون وتداً يثبت الكلمة الأولى، سرت إليه عدوى «الأصل» مع الزمن فحققت فيه

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٣ .

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٥٤ .

هذا المعنى!

ونجد «طريفة» في حرف الجيم، تأتي من بين الأمثلة التي جاء بها المؤلف لما يبدو عليها من مظهر المتابعة، ولكنه لم يبين المعنى لا في الكلمة الأولى، ولا في الثانية، حتى المحقق للكتاب لم يأت بما يؤكد معنى لها، والقول هو:

«ويقولون للصبي في الترقيص: حَدَارِجْ نَدَارِجْ»[1].

ولقد صدق المؤلف فيما قال عندما أشار إلى أنها للترقيص، فالنساء في زمننا إلى وقت قريب، ولعله إلى اليوم، يرقصن أولادهن على قول مسهب يبدأ بشيء قريب من هذه الكلمة، فيقلن:

حَدَارْجَا بِدَارْجا، مِنْ كُلِّ عِيْنٍ دَارْجَا، والحبّة حَبّة اللُّولُو، وتْلالِي مَضْرِطَ الدِّيك، يَا دِيْكٍ حَسْنَ الأَدْيَاك، طَارَ الشُّفَّحْ مَعَ اللُّفَّحْ، لِقِيْت غرِيبْين، يَأْكْلُونْ لِقْمِتِيْنْ، أَكَلْتُ مَعْهِمْ رَدِّتِيْنْ، وْقِلْتْ يَا عَمِّي يَا بَاحْسِيْنْ، كَمْ عَلَى عِيْدْ رْمِضَانْ، سَبْعَةْ أَيَّامٍ تَمَامْ،

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٤.

وَحَادِيهَا، وبَادِيْهَا، وَضْربْ القُوْسْ يْعَدِّيْهَا، إحْذِف قَبُّوْن إبْنْ قَبُّوْنْ، غَزِيْتْ لَلشَّامْ، وْجِبْتْ ضْبيَّ وَكَلْتُّهِ نِـيْ، وْجَانْ الذِّيْبْ، حَمَرْ مَنْغُورْ، يشِدّ الكُوْرُ علَى البَاكُوْرْ».

إلى آخر هذه الجمل المتتابعة، المتشابهة المتنافرة، التي كلما ظن السامع أو القارئ أنه مسك طرف حبل المعنى فيها وجد أنه طُوِّح به بعيداً عنه، فتاه في مفازة من الألفاظ، لا تتناسق فيها المعاني، ولا تتجانس فيها المدلولات.

وهذه الصيغة صيغة من الصيغ المختلفة في بعض مناطق المملكة، ولعلها لو جمعت، باختلافها، وعدم تماثلها، فقد يركب من بينها ما يدل على أصل معناها، الذي لابد أنه تحرف مع الزمن، فكل راوٍ يخرج بالقول إلى صيغة من المعنى الذي يكون أقرب إلى فهمه، دون مراعاة للأصل الذي قد يكون غير واضح له، فحوره إلى ما ظن أنه أقرب إلى المعنى وإلى مفهوم السامع، فزاد الغموض غموضاً، واللبس إبهاماً.

ويلاحظ أن: «حَدارَج نُدَارَجْ» التي ساقها ابن زكريا جاء الإبدال فيها بالنون، في حين أنه في اللغة العامية جاء بالباء، وهو ما يفضل في اللهجة العامية، عند محاولة صوغ كلمة متابعة.

ويلاحظ أيضاً في الصيغة العامية، فيما بعد البدء، جاءت كلمتا: «طَارَ الشُّفَّحْ مَعَ اللُّفَّحْ» ومن المؤكد أن الكلمة الثانية كلمة تابعة، خاصة وأن الأولى لا يتبين لنا ما معناها، وهما كلمتان تمهدان للعب بالكلمات فيما بعد مثل: لقمتين وردتين، وحاديها وباديها، والكور والباكور، هذا عدا السجع، والحرص على اصطياده.

وفي باب الحاء يأتي اتباع في القول الآتي:

«هُوَ مَلِيْحٌ قَزِيْحٌ». (١)

والإبدال في هذه المرة جاء في حرف القاف، وتفوديت الحروف الأخرى، خوفاً من اللبس بمعنى

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٥، والأمالي: ٢/ ٢١١.

آخر، أو ثقل في النطق، ونُبُوٍّ في السمع، فبزيح ثقيلة، ونزيح معناها بعيد عن مليح.

وعندما تفودي الثقل على اللسان، والنبو على السمع، قالوا فيما جاء به المؤلف في حرف الحاء:

«شَحِيْحٌ نَحِيْحٌ». [(١)]

فالشحيح معروف، والنحيح لايبدو أن لها معنى، وأتي بها للمتابعة فقط، ولاشك أنها سندت الكلمة التي سبقتها، وفيها وحي بأن الموصوف بالشح قد وضع عليه حمل من البخل مع حمله الذي جاءت به الكلمة الأولى.

ومثل من حرف الخاء يقول اللحياني فيه:

«سَلِيْخٌ مَلِيْخٌ» للذي لا طعم له، وأنشد:

سَلِيْـخٌ[(٢)] مِلِيْـخٌ كَلَحْـمِ الحِـوَا
رِ، فَلاَ أَنْتَ حُلْوٌ وَلاَ أَنْتَ مُرّ[(٣)]

(١) الإتباع والمزاوجة: ٥٥، والأمالي: ٢/ ٢١١.
(٢) في مجالس ثعلب «مسيخ» ص ١٩٨.
(٣) الإتباع والمزاوجة: ٦١، والأمالي: ٢/ ٢١١.

ورغم أن اللحياني دل على أن المعنى للكلمتين إلا أن تباعد السلخ عن الطعم يوحي بأن الكلمة جيء بها للمتابعة، أما مجيؤها في الشعر، فلأنها ملازمة لهذا الوزن الذي أتت عليه صفة السلخ.

ويرجح قول ابن سيده على غيره عند التبصر في مثل جاء به المؤلف على الدال، فقال: قال اللحياني:

«هُوَ وَحِيْدٌ قَحِيْدٌ». (١)

فكلمة وحيد واضحة المعنى، صريحة المدلول، أما قحيد فإن تلمسها في السنام فيه تكلف، ولايبدو أنها تتماشى مع الوحدة، والأقرب أن تكون إتباعاً، جيء به ليؤنس وحدة البدء في الجملة، ولقد زالت عنها بهذا الوحدة والوحشة!

ومثله في رجحان الإتباع قولهم:

«جَاءَ مُسْتَمْغِداً مُسْتَمْيِدًا». (٢)

«أي غضبان قد تورم وجهه من الغضب».

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٦٣، والأمالي: ٢/ ٢١١.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٦٣.

وهو وزن من أوزان المتابعة، له نغمة خاصة، به، فمكان الحرف مختلف، ووزن الكلمة مع أختها مختلف.

ومما يأتي موحياً بالمتابعة قولهم:

«ما عِنْدَهُ نَدَى وَلاَ سَدَى. النَّدَى مَا كَانَ مِنَ السَّمَاءِ بِالنَّهَارِ».[1]

والشارح أعطى معنى السدى بأنه: «ندى الليل، وهو حياة الزرع»، فإذا صح هذا فالأمر ليس بمتابعة وإنما هو معنى جديد أريد به تأكيد الاتجاه المقصود، وهو وصف الشخص مثلاً بعدم القدرة بالإتيان بشيء.

وفي نجد كلمة تقال، فيها روح التأكيد، وفيها صيغة الإتباع، فأنت إذا سألت أحداً عن الدنيا، أو عن حال من الأحوال قال: «سُهُودٌ وَمُهُودٌ».

وهذا يعني أن الحال جميلة، وكل شيء يسير على مايرام، وتوحي الجملة بالإطمئنان، وكأن الحال

(١) الإتباع والمزاوجة: ٦٣.

ممدَّدَة على سهل من الأرض منبسط، ليس فيه نتوء أو خشونة، وقد وجدت في حرف الدال من الكتاب الذي بين أيدينا عن الاتباع والمزاوجة ما قد يكون الأصل في الجملة التي يلجأ إليها العامة في نجد عندما يسألون عن حال أمر من الأمور، والجملة هي:

قال أبو عبيدة: «هُوَ سَهْدٌ مَهْدٌ، أَيْ حَسَنٌ». [1]

وتكاد الجملة تنطق، ومعها شهودها، أنها الأصل فيما نسمعه بيننا.

ومما ساقه المؤلف في باب الإتباع في حرف الدال قوله:

«بَقْلٌ ثَعْدٌ مَعْدٌ: إذَا كان غَضّاً. (مَعْدٌ) إتباع». [2]

وكلا الكلمتين من الغريب، وإذا كانت الأولى دائماً هي صاحبة المعنى الأصل الذي سيقت من أجله الجملة، فإن «معد» عند المؤلف إتباع لاشك فيه؛ وقد حملت مظهراً من مظاهر الإتباع وهو قلب

(١) الإتباع والمزاوجة: ٦٥.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٦٥، والأمالي: ٢/ ٢١٦.

الثاء إلى ميم، والميم من الحروف التي يُغرم بها أسلوب الإتباع، وتكاد تتساوى مع الباء في هذا؛ والعامة تعشق الميم في المتابعة، فيقول أحد الناس: «بَلاَ صِيَاحْ بَلاَ مْيَاحْ».

ومياح من المؤكد أنه لا معنى لها، ولكن من ابتدأ الجملة بصياح رأى ألا يتركها وحدها دون حارس أو معضد يثبتها بوتد، وليس عليه عناء، ولن يبذل جهداً، في إيجاد هذا الحارس، فعنده من حرف الميم معين لا ينضب، والأمر سهل بحيث وجد أنه من المستحسن أن ينفق ما عنده من مخزونه، حتى لا تتكدس في مستودعه البضاعة، فهو سريع إلى قول:

بَلاَ كَلاَمْ بَلاَ مَلاَمْ».

«بَلاَ شُرْبَهْ بَلاَ مُرْبَهْ».

«بَلاَ دُجَاجْ بَلا مُجَاجْ».

و «مجاج» هذه قد يكون لها معنى في القاموس، ولكنه لم يُستَحْضر في الذهن عندما نُطِق بالكلمة، وإنما جيء بها للسَّنْد والتعضيد، مثلما يقول أحد

الناس:

«بَلَا شَرْطَهْ بَلَا وَرْطَهْ».

عندما يقترح أحد أن يستعين بالشرطة في أمر ما، ويرد عليه آخر بهذا الرد، وكلمة «ورطة» لها معنى، ولكن القائل لم يقصده، ولم يأت في ذهنه أن في استدعاء الشرطة ما يورطه، ولكنه جاء به ليؤكد أن الأمر لم يصل إلى الحد الذي يستوجب ازعاج الشرطة، وأن بالإمكان حله بدون هذا الاستدعاء.

ويأتي الأمر مضحكاً أحياناً، لأن القول في مثل هذا يسبق التفكير، والقول إذا سبق التفكير عرضة للزلل، فلو أن شخصاً قال لآخر، ما رأيك في أن نتغدى اليوم بطاً، فرد عليه الآخر رافضاً هذا الاقتراح بقول:

«بَلَا بَطّ بلا مَطّ».

ليس هنا علاقة بين البط والمط، مما يجعل القول يبدو مضحكاً، وربما أدى إلى الضحك حقاً.

ولحرف الراء نصيب من أسلوب المتابعة، وأحد الأمثلة التي جاءت تحت باب هذا الحرف، قولهم:

«عَيْنٌ حَدْرَةٌ بَدْرَةٌ؛ الحَدْرَةُ: المُمْتَلِئَةُ، وَكَذَلِكَ البَدْرَةُ». [1]

وللقارئ العادي «حدرة» و «بدرة» كلاهما مجهولة المعنى، ولكن المعاجم تفسر الكلمة الأولى بثقة، أما الكلمة الثانية فتبقى فيما رجح من الأقوال إتباع، وإن قال بعضهم أن معنى «بدرة»: يبادر نظرها نظر الخيل. ولبعد هذا المعنى فإننا نشعر بارتياح لاعتبار بدرة إتباع لحدرة.

ولا نجد حرجاً إذا اعتبرنا بعض الكلمات التي جيء بها بعد غيرها، دالة على معنى مؤكد، أو قريب من معنى الأولى، لأننا نحس بأن نية المتابعة في ذهن القائل أقوى من نية تأكيد المعنى، خاصة إذا وجد أن تأكيد المعنى بكلمة أخرى هو أقرب للفهم، وأوفى في المعنى مثل:

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٦٩.

«تَفَرَّقُوا شَغَرَ بَغَرَ، وَشَذَرَ مَذَرَ». [1]

فلولا أن هذا أصبح كالمثل، لما عرف معناه بالاستدلال عليه باللفظ، لأن ظاهر النص لا يوحي بالمعنى المراد، «فشغر» إذا صُرِّفت، وأعيدت إلى أصولها، لا توصل إلى معنى معروف، وكذلك «بغر»؛ ومثلهما: «شذر مذر»، وإن كانت شذر قد يستدل على معناها عند التدبر، بمقارنتها بما يعرف عن أن الشذر هو القطع المتناثرة من إناء زجاج منكسر إلى عدد من القطع الصغيرة؛ ولكن إذا أمكن حل معنى الكلمة الأولى فإن «مذر» تستعصى من الدخول في مثل هذا التصريف؛ ويبقى الرجحان للإتباع في هذين المثلين.

ولعل أوضح من المثل السابق فيما قلناه القول الآتي:

«هُمْ أَكْثَرُ مِنَ الطَّرَى وَالثَّرَى. الطَّرَى: النَّبَاتُ، والثَّرَى: التُّرابُ». [2]

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٧٠.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٧٠.

لولا أن الإتباع مقصود هنا لما لُجئ إلى كلمة «الطرى» وهي مجهولة المعنى إلا لمن له إلمام جيد باللغة، وأقرب من هذا القول «النبات والتراب»، ولكن هذا القول يفقد التناسق في المظهر، والموسيقى في الصوت، وإذن فالقصد الإتباع، وإن كان هناك ضمناً ما يؤكد المعنى.

ومثله القول الآتي:

«جَاءَ بِالغَوْرِ وَالمَوْرِ. الغَوْرُ: المَاءُ، والمَوْرُ: التُّرابُ».(١)

وتتأكد الرغبة في الإتباع، ويتبين الحرص عليه في مثل القول الآتي:

«وَهُوَ كَثِيْرٌ بَثِيْرٌ، وَبَذِيْرٌ. وَهُوَ إِتْبَاعٌ وَبَجِبْرٌ أَيْضاً».(٢)

فلم تكف كلمة واحدة، بل أتي بثانية، وثالثة، وفي الثلاث كلمات «الباء» هي البديل للكاف، مما

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٧١.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٧٢، والأمالي: ٢/ ٢١٠.

يؤكد أن الإتباع هو المقصود.

ولا يستبعد أن تكون بعض الصيغ المتعارف على أنها للتأكيد، بل هي التأكيد نفسه، هي في الحقيقة تحمل في طياتها روح الإتباع، ويراد في جنباتها صدى المزاوجة، ويدب في عروقها الإسنادُ والتعضيد:

«جاؤا أجمعين أكتعين أبصعين». [1]

هذه صيغة في التأكيد مكررة لتثبيت المجيء لمن جاؤا جميعهم، دون أن ينقص منهم أحد، ومع هذا احتفظت كلها بصيغة واحدة في وزنها، مما طعمها بروح الإتباع والمزاوجة.

وفي حرف الراء يأتي إتباع وسيلته الباء ومعها حرف آخر، وهو قولهم في رواية أبي عبيدة:

«مَكَانٌ عَمِيْرٌ بَجِيْرٌ، مِنَ العِمَارَةِ، وَهُوَ إِتْبَاعٌ». [2]

ورغم أن «بجير» لا معنى لها، ورغم أن المؤلف والمحقق، وما استشير من معاجم تؤكد أنه إتباع،

(١) انظر الأمالي: ٢/ ٢١٧.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٧٨.

إلا أنه من الإتباع المستوفي لغرضه، وهو يؤكد أن المكان عامر عمراناً تاماً، وبدون «بجير» تبقى الجملة قلقة.

ومثله المثل الآتي، وقد غُير فيه الحرف الثاني، وأبقي الحرف الأول، ولعل ذلك لقوة الألف في أوله:

قال الفراء:

«هُوَ أَشِرٌ أَفِرٌ، وأَشْرانُ أَفْرانُ».[1]

ويقول الشارح أن معنى أشر: مرح وبطر، ونحن نعرفها من القرآن الكريم[2]، أما «أفر» فهي إتباع.

وفي مثل آخر للإتباع يعطي المؤلف قولاً في حرف الراء، وهو من أكثر الأبواب أمثلة في التأكيد وفي الإتباع والمزاوجة، ولم نأت إلا بقليل مما جاء به في هذا الباب:

«إِنَّهُ لَهَذِرٌ مَذِرٌ».[3]

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٧٨، والأمالي: ٢/ ٢١٢.

(٢) سورة القمر، آية: ٢٦.

(٣) الإتباع والمزاوجة: ٧٨، والأمالي: ٢/ ٢١٢.

وفي هذا المثل حَظيت الميم بالإبدال، ولا غرابة، فهي مثل الباء في كثرة الاستفادة منها في الإبدال في الإتباع.

«والخاز باز» في إحدى اللهجات العامية في نجد دمامل تخرج تحت الحنك، وتسمى أحياناً الخنازير، ولكنها في اللغة العربية ذات معنى مختلف، ويقول المحقق إنهما اسمان جعلا اسماً واحداً وبنيا على الكسر في النصب والرفع والجر، والمثل هو:

وروى أبو عبيدة عن الأحمر:

«الخَازِ بَازِ: صوت الذباب».

وهو تركيب عجيب، وإذا كان هذا التركيب اعتبر اسماً واحداً، فإن مظهر الإتباع فيه مسيطر، فالفكر يأخذه على أنه إتباع بدليل أن المؤلف جاء به في مجال الإتباع.

وفرق كبير بين المعنى العامي لخاز باز والمعنى الفصيح، ولا صلة بينهما إلا أن قرب الذباب من

وجه من في وجهه خاز باز يقيم قيامته ويقعدها، لشدة أذاه له، وعناده في الوقوع على هذه الدمامل، واصرارهِ الملح.

وفي حرف السين يسوق المؤلف مثلاً تتوالى فيه كلمتان، تعبيراً عن شيء واحد، ويتغير في الكلمة الثانية الحرف الثاني، وتحظى الميم بالاختيار، والمثل:

«رَجُلٌ أَخْرسُ أَمْرَسُ». [1]

ويرجح الإتباع هنا رغم أن «أمرس» لها معنى، وهو أن المَرِس هو من عالج الأمور وزاولها، لأنه لا يتجانس بين ذهاب الكلام عيّا أو خلقة، ومعالجة الأمور، ومزاولتها.

وفي حرف السين أيضاً يأتي بمثل للإتباع له صورتان، قد تكونان في الأصل مختلفتين، أو أن إحداهما دخلها التحريف، والمثل هو:

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٣.

«تَاعِسٌ وَاعِسٌ، من التَّعَس (عثور الحظ)، وَقَدْ يُقَالُ: نَاعِسٌ وَاعِسٌ، مِنَ النُّعَاسِ، والوَاعِسُ إِتْبَاعٌ». [1]

وفي حرف الشين يأتي باتباع صريح، ووسيلة الإتباع فيه النون، وهي من الحروف المفضلة عند الإبدال في الإتباع، يقولون:

«عَطْشَانُ نَطْشَانُ. إتباع». [2]

وإذا كان من السهل علينا أن نعرف معنى عطشان فإن نطشان لا معنى لها، ولا تستطيع أن تقف وحدها على قدميها، وإنما هي دائماً مستندة استناداً كلياً على قوة جارتها «عطشان».

ولعل المتكلم ابتعد عن الباء حتى لا يفقد الإتباع الذي أراده، فلو قال: «عطشان بطشان» لصار لبطشان معنى يتنافر مع معنى الكلمة الأولى، ومطشان ثقيلة، لهذا كانت الكلمة التي أتبعها أقرب إلى ذوقه ولسانه.

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٧.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٨٧، والأمالي: ٢/ ٢٠٩.

وفي المثل الآتي قُصد إلى الإتباع قصداً:

«فُلاَنٌ ذُو هَشَاشٍ وأَشَاشٍ». [1]

والهشاش النشاط والارتياح، وإذا رجعنا إلى استقبال الضيف، وقلنا أنه هش في وجهه أي ابتسم ورحب، أما أشاش فإتباع، ولو لم يرد القائل الإتباع لاختار غير الألف التي حرمت الكلمة من المعنى، إلا ما تتفضل به الكلمة السابقة عليها؛ وكان بإمكان القائل أن يختار الباء فيكون القول:

«فُلاَنٌ ذُوْ هَشَاشٍ وَبَشَاشٍ».

فيكون البشاش من البشاشة، ويكون المعنى تأكيداً لهشاش، وكأنه مفصل له، ومخصص؛ إلا أن إغراء الإتباع كان أقوى، فاختاره على تأكيد المعنى، خلافاً لآخر اختار كلمتين متصلتي المعنى، متقاربتي اللفظ، فيهما لمحة من الإتباع، إلا أن التأكيد أقوى، وقد قصد القائل إليه قصداً:

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٧.

«هُوَ أَعْمَشُ أَرْمَشُ» .[1]

ويقال هذا وصفاً لعلتين تصيبان العين، ومحقق الكتاب في شرحه يقول:

رجل أعمش: في عينيه ضعف بصر، مع سيلان الدمع، ورجل أرمش: في عينه حمرة ،مع سيلان الدمع.

ويبدو أن العامة تتفق مع هذا حيال الأعمش، ولكنها تختلف معه في الأرمش، فالكلمة آتية من الرِّمْش، فعليه: الأرمش هو من سقط رمش عينه، وهو عيب قد يكون فيه أذى كبير للعين، يتسبب في ضعفها، وسيلان الدمع، والتعرض للغبار والأتربة، وبرودة الجو، وحرارة الشمس؛ لهذا لم تعتبر كلمة أرمش إتباعاً، لأن لها معاني قائمة بذاتها، وقد تفوق الكلمة التي جاءت تسندها فالسيد أقل أهمية من الخادم.

وفي حرف الصاد يأتي المثل الآتي:

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٧.

«لَهُ مِنْ فَرَقِهِ أَصِيْصٌ وَكَصِيْصٌ»: أَيْ ذُعْرٌ وانْقِبَاضٌ.[1]

هذا مثل يخرج بعض الشيء عن القاعدة، فكان المتوقع أن تكون الكلمة التي فيها الكاف هي المتقدمة، فيقال: له من فرقه كصيص وأصيص، فهذا هو المعتاد في الإتباع أو شبهه، وهذا يجعلنا نرجح أن هذا إتباع لغرابة الكلمتين ولقلب الأوضاع فيهما.

وهناك المثل الذي لا يكاد يجهله أحد، لأنه دارج على الألسنة، ولا تكاد تجد أحداً لا يعرفه، أو لم يستعمله في حديثه مرات ومرات؛ فله جاذبية عجيبة، لما فيه من موسيقى مشنفة؛ وله تصريفات كثيرة، أوردتها المعاجم وكتب اللغة، ورغم أنّ كل كلمة منهما أعطيت معنى، إلا أن الإنسان يطغى عليه شعور أن الكلمة الثانية إتباع، كسبت معناها مع مرور الزمن، أما في الأصل فهي خالية من أي معنى، ودورها أن تسند

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٩.

أختها التي سبقتها. والجملة هي:

«تَرَكْتُهُ في حَيْص بَيْصَ، وحِيْصَ بِيْصَ: أَيْ ضِيْقٍ شَدِيْدٍ». [1]

وقد وردت به لغات عددها الشارح، وزاد عما ذكر:

حِيْصٍ بَيْصٍ، وحِيْصٍ بِيْصٍ، وحَيْصًا بَيْصًا، وحِيْصًا بِيْصًا.

وفي مجال التأكيد، واختيار الكلمات الغريبة، التي تحمل التأكيد معنى، والإتباع مظهراً، الأقوال الآتية:

«هُوَ عَرِصٌ هَبِصٌ: أَيْ نَشِيْطٌ». [2]

وقد حلت الهاء محل العين، وهو ما لم نعتده في الإتباع، وهو ما لم يحدث للمثل الآتي:

«قد شَاصَّهُ وَمَاصَّهُ، أَيْ: غَسَلَه». [3]

فالميم من المعتاد أن تحل محل أي حرف في الكلمة

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٩.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٨٩.
(٣) الإتباع والمزاوجة: ٨٩.

السابقة، وهي من الحروف المفضلة؛ والعامة تعرف مَوْصَ الثياب بعد الغسل، وهي آخر مرحلة في الغسل، لإزالة الأداة التي غسل بها الثوب، سواء كان سدراً أو إشناناً أو صابوناً، أما شاص هذه فلا علم لهم بها، ولكن الكلمتين جاءتا حسب نموذج الإتباع المعروف.

ويقرب من المثلين السابقين المثل الآتي:

«مَا بِهِ نَوِيْصٌ وَلاَ لَوِيْصٌ: أَيْ حَرَاكٌ». [1]

وحظ الضاد من عناية المؤلف جملة فيها التتابع جاء دالاً على زيادة في المعنى، فليس مجرد إتباع أو تأكيد، ولكنه إضافة أخذت صيغة الإتباع بإحلال الألف محل العين، والمثل كالآتي:

«بَلَدٌ عَرِيْضٌ أَرِيْضٌ، إِذَا كَانَ حَسَنَ النَّبَاتِ». [2]

ومما تغلب عليه روح الإتباع القول الآتي:

«وَمَا عِنْدَهُ قَرْضٌ وَلاَ فَرْضٌ. القَرْضُ مَا يَقْضِي

(١) الإتباع والمزاوجة: ٨٩.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٩١، والأمالي: ٢/ ٢٠٩.

بِهِ، وَالفَرْضُ: مَا تَفْرِضُهُ عَلَى نَفْسِكَ لِغَاشِيَةٍ أَوْ قَرَابَةٍ». [1]

فإذا كان كل واحد منهما له معنى، تختلف الدلالة فيه بينهما كما ذكر المؤلف في معنى كل واحد منهما، فإن صيغة الإتباع في الذهن، روعيت في الصيغة، فجاء الفرق في إبدال حرف مكان حرف، وحلت الفاء محل القاف.

ومثله في التقارب في الأحرف، وإبدال حرف مكان حرف، مع اختلاف في المعنى مُحّاً، والتشابه شكلا، المثل الآتي:

«وَمَا عِنْدَهُ غَيْضٌ وَلاَ فَيْضٌ؛ أَيْ كَثِيرٌ وَلاَ قِلِيلٌ، وَيُقَالُ الإِعْطَاءُ والمَنْعُ». [2]

وكان بالإمكان ما دام أن هناك تغايراً في المعنى، بل تضاداً، أن يعبر بالكلمات الدارجة مثل: قليل وكثير؛ ولكن لأن الإتباع مقصود، لما فيه من تأثير، يأتي بعد جلب الإنتباه لهذا التعبير، الذي جاء على

(١) الإتباع والمزاوجة: ٩١.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٩٢.

النمط المتعارف على أنه أسلوب متميز، جاء بهذه الصورة من الإتباع.

وكلمتا: غيض وفيض من الكلمات التي دخلت في تعبير الناس الدارج لكثرة استعمالها، وقبول الناس لها.

ويأتي المثل الذي جاء به المؤلف في حرف الطاء مثلاً واضحاً للإتباع، واختار قائله اللام، وهي من الحروف التي تنال الحظوة عند أصحاب الإتباع، والمثل:

«هُوَ شَيْطَانٌ لَيْطَانٌ». (١)

فكلمة شيطان معروفة، أما ليطان فجاءت إتباعاً لتسند الكلمة الأولى، دون حاجة إلى أن تحمل معنى.

والمثل الآتي: في حرف الطاء:

«حُطَائِطٌ بُطَائِطٌ». (٢)

ويأتي في الشرح الذي أدلى به محقق الكتاب:

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٩٣، والأمالي: ٢/ ٢٠٩.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ٩٤.

«الحطاط: الصغير من الناس، وغيرهم، ويقال: حُرٌّ حطائط بطائط، ضخم، وجر و بطائط: ضخم».

ورغم أن هذا يوحي بأن كلمة: «بطائط»، لها معنى يدل على الضخامة، إلا أنه يتبع هذا بما جاء في كتب اللغة مخالفاً لهذا، ودالاً على صغر الحجم، فيقول:

«وتقول صبيان الأعراب في أحاجيهم: ما حطائط بطائط؟ تميس تحت الحائط؟ يعنون الذَرَّة من صغار النمل؛ وهذا يؤكد أن بطائط لا تعني الضخامة وهي إتباع فقط.

ويأتي الإتباع في حرف الظّاء بإحلال الباء محل الكاف، فيقولون:

«هُوَ كَظٌّ بَظٌّ. أَيْ: مُلِحٌّ». [1]

وإحلال الباء محل غيرها يأتي في المثل الآتي:

«وَحَظِيَتِ المَرْأَةُ عِنْدَ زَوْجِهَا وَبَظِيَتْ». [2]

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ٩٥.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٩٥.

وهو إتباع ظاهر، يدل عليه قولهم:

«لَحْمُهُ خَظَا بَظَا». [1]

ويدل عليه أيضاً قولهم:

«وَإِنَّهُ لَفَظٌّ بَظٌّ» وإذا كانت بظ جاءت تابعة لفظ، والفظاظة هي الخشونة، فإنها تتنافى مع مجيئها مع «بظ» إلا إذا ووفق على أنه لا معنى لبظ، وهي فقط إتباع.

وفي حرف العين جاء بالمثل الآتي إتباعاً، بدل فيه حرفاً بحرف، واختار للإحلال حرف النون:

«يقال: جَائِعٌ نَائِعٌ، هُوَ إِتْبَاعٌ». [2]

واعتبره الكسائي إتباعاً، رغم ما قيل من أن «نائعاً»: عطشان.

والجوع ليس غريباً على العربي في صحرائه، ولهذا فلا عجب أن جاء له في الإتباع، في حرف واحد، بأكثر من مثل، فالصحراء كفيلة بفقرها، واتساعها، وتباعد أطرافها، أن تصيب ساكنها بالجوع المؤكد،

---

(١) هامش ص ٩٥ الإتباع والمزاوجة، والأمالي: ٢/ ٢١٧.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ٩٧، والأمالي: ٢/ ٢١٤، وأداب الكاتب: ٤٧.

المحتاج إلى أوصاف مؤثرة أحدها الإتباع؛ والمثل الآتي صورة واضحة لمثل هذا الاتجاه، وهذا المثل يقول:

«جَوْعٌ يَرْقُوْعٌ، يَهْقُوْعٌ، دَيْقُوْعٌ». [1]

وهذه الكلمات المتتابعة وصف لشدة الجوع، وقد جاءت بالتأثير المطلوب، وقلبت الجيم في أول إتباع إلى قاف، وتبع التغيير ثاني حرف وثالثه، ولم يبق إلا الحرفان الأخيران ليدلا على الإتباع، وأتي للثاني بثالث فيه إتباع غير فقط فيه الحرف الثاني، والرابع جيء به مغايراً للثالث بحرفين، وهذه الكلمات المتتالية تذكرنا «بأجمعين أكتعين أبصعين».

ومن الإتباع في حرف الغين المثل الآتي:

«طَعَامٌ سَيِّغٌ لَيِّغٌ: يَسُوْغُ فِي الحَلْقِ». [2]

أَبْدَلَتْ اللام السين في هذا المثل، وهو إبدال وارد، يماثل الباء والنون أحياناً في كثرة اختياره.

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٠٠.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٠٣، والأمالي: ٢/ ٢١٥.

ومثل آخر في باب الغين:

«وأَحْمَقَ بَلْغٌ مَلْغٌ، أَيْ: يَبْلُغُ مَا يُرِيْد». [1]

وملغ في هذا المثل إتباع.

وفي حرف الفاء إتباع واضح حلت القاف محل الخاء: والمثل كمايلي:

«مَا يَعْرِفُ الخُذْرُوْفَ مِنَ القُذْرُوْف، والخُذْرُوْفُ: لُعْبَةٌ للصِّبْيَانِ، وَالقُذْرُوْفُ: العَيْبُ». [2]

فإذا صح أن للقذروف معنى، وهو العيب، فإنه في هذا المثل لا يرد، لبعد مجال المقارنة بين لعبة الصبيان والعيب، والأرجح أنه إتباع، وأن القذروف هنا لا معنى لها، وما دورها إلى «تعكيز» الكلمة الأولى، وسندها.

وذكر المؤلف ابن زكرياً من الإتباع القول الآتي، وقلبت في التابع الخاء ذالاً:

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٠٣، والأمالي: ٢/ ٢١٦.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٠٥.

«وَمِنَ الإِتْبَاعِ: خَفِيْفٌ ذَفِيْفٌ. الذَّفِيْفُ: السَّرِيْعُ». [1]

ومثل آخر على نمط هذا، وحلت فيه اللام محل الثاء:

«هُوَ ثَقِفٌ لَقِفٌ. ذَكِيٌّ». [2]

ومثل ثالث حلت فيه النون محل الضاد، وهو كمايلي:

«وَهُوَ ضَعِيْفٌ نَعِيْفٌ. إِتْبَاعٌ». [3]

ومن الإتباع فيما أورده المؤلف في حرف القاف المثل الآتي، وقد حلت الدال محل الميم، والمعتاد خلاف ذلك، فالميم عادة تحل محل غيرها:

«هُوَ مَائِقٌ دَائِقٌ. إِتْبَاعٌ، وَقَدْ مَاقَ وَدَاقَ، يَمُوْقُ وَيَدُوْقُ». [4]

وقد شرح المحقق كلمة: مَائِق بأنها الهالك حمقاً

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٠٦، والأمالي: ٢/ ٢٠٩.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٠٦. والأمالي: ٢/ ٢١٣.
(٣) الإتباع والمزاوجة: ١٠٦.
(٤) الإتباع والمزاوجة: ١٠٩، والأمالي: ٢/ ٢١٥.

وغباوة، وفي العامية المائق، من يرى حاله أعلى من حال الآخرين، ويترفع عليهم، اعتماداً على ميزة فيه، فَلابس الثوب الجديد يموق على الآخرين بثوبه الجديد، وصاحب الدابة يموق بها على من ليس عنده دابة، والطالب عنده قلم متميز يموق به على من عنده قلم غير متميز، وهكذا.

ودائق جاءت إتباعاً للمعنى المقصود من مائق أياً كان هذا المعنى.

ويأتي الإتباع في القول الآتي:

«هُوَ حَاذِقٌ بَاذِقٌ». (١)

وفي هذا المثل احتلت الباء مكانها المختار من الإتباع.

وفي باب اللام تحل الباء محل الحاء في القول الآتي:

«وَهُوَ لَهُ حِلٌّ وَبِلٌّ، أَيْ مُبَاحٌ». (٢)

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٠٩، والأمالي: ٢/ ٢١٣.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ١١٥.

والعامة تقول: حَلاَلٌ بَلاَلٌ، مما يؤكد أن «بل» هي إتباع.

وفي حرف اللام يسوق المؤلف المثل الآتي، وحظيت فيه الباء باختيارها لبدء الإتباع:

«ومن الإتباع قولهم: ضَئِيْلٌ بَئِيْلٌ، وَقَدْ ضَؤُلَ وَبَؤُلَ، وَذٰلِكَ إِذَا نَحَلَ جِسْمُهُ وَدَقَّ». [1]

ومما جاء في هذا الباب قولهم:

«يُقَالُ: ضَالٌّ تَالٌّ، وَذَهَبَ فِي الضَّلاَلِ والتَّلاَلِ، التَّلاَلُ إِتْبَاعٌ». [2]

والإتباع جاء أول حرف فيه التاء.

وإذا كان المرحب لا يكفي أن يأتي بكلمة واحدة، ويشعر أنه إذا لم يكررها فلابد أن يُلحق بها كلمة ترحيب أخرى ترفدها، فيقول: أهلا وسهلا[3]، وقد يقول: ومرحبا.

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١١٧، والأمالي: ٢/ ٢١٠.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ١١٧، والأمالي: ٢/ ٢١٤.
(٣) ويقولون: حياك الله وبياك: أدب الكاتب: ٤٤.

وإذا لم يكن هذا إتباع صاف صريح، فهناك ما يقاربه في المثل الآتي:

«قَالَ أَبُو عَمْرٍو: مَهْلاً بَهْلاً، تأْكِيْدٌ». [1]

ومع هذا فالشارح علق بمايلي مما يدل على أنه إتباع وليس تأكيداً:

«حكاه يعقوب في البدل، قاله صاحب اللسان في «بهل». وقال أبو عمرو: «بَهْلاً» إتباع».

وفي حرف الميم جاء بالمثل الآتي:

«وَيُقَالُ: مَا مِنْ ذَاكَ حُمٌّ وَلاَ رُمٌّ، أَيْ: لاَبُدَّ مِنْهُ». [2]

و «رُمّ» يبدو أنها عديمة المعنى، وفائدتها فقط في سند الكلمة السابقة.

ومن أمثلة إحلال الدال محل الراء في هذا الباب الإتباع الآتي:

«وَيُقَالُ: رَغْماً دَغْماً». [3]

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١١٨.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٢٢.
(٣) الإتباع والمزاوجة: ١٢٣، والأمالي: ٢/٢١٦.

والرغم معروف، وهو الذلة والكره والقسر، وقد أضاف الشارح إيضاحاً لهذا الإتباع، فقال: فيما قال:

«رَغْماً دَغْماً شَنَغْماً، كُلُّ ذَلِكَ إِتْبَاعٌ، وَالمُرَادُ بِهِ الدُّعَاءُ عَلَيْهِ بِالذُّلِّ وَالهَوَانِ؛ وَرَجُلٌ رَاغِمٌ دَاغِمٌ: إِتْبَاع». (١)

وفي باب النون يأتي المثل الآتي:

«يُقَالُ: هُوَ حَسَنٌ بَسَنٌ قَسَنٌ». (٢)

وقد احتلت الباء في «بسن» محلها، ثم تلاها حرف آخر وهو القاف في الإتباع الثاني؛ وقد جاء في شرح محقق الكتاب مايلي:

«قال ابن الأعرابي: أبسن الرجل: حسنت سحنته، ورجل حسن بسن إتباع له، وقسن إتباع لحسن بسن».

ويبدو أن المعبر يفرح بتقارب لفظ مع لفظ، فإذا عثر على هذا التقارب سارع بالإتيان بالكلمة بعد

---

(١) انظر أيضاً الأمالي: ٢/ ٢١٦.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٢٥، والأمالي: ٢/ ٢١٦.

الكلمة، وكأنه يريد أن يبعد عن الأولى الوحشة، وضيق الوحدة، لأن بعض ما يؤتى به على أنه إتباع، لأن الموقف يقتضيه، يحمل معنى يجعله أقرب إلى التأكيد مثل:

«هُوَ زَمِنٌ ضَمِنٌ. الضَّمَانَةُ: الزَّمَانَةُ». [1]

و «الزمن» معروف أنه صاحب العاهة، ولكن «ضمن» غريبة على الإنسان غير المتبحر في اللغة، ويدل على ذلك ما ورد في شرح المحقق، فهو بعد أن ذكر أن الضمانة هي الزمانة والعاهة أردف القول الآتي:

«وقيل: الزمانة والضمانة: الحب، ورجل ضمن: عاشق. وقال ابن فارس في المقاييس: ٣/ ٣٧٢ إنه عندي من باب الإبدال كأن الضاد مبدلة من زاي».

وفرق كبير بين العاهة والحب، وهذا التباعد يؤكد أن القائل أراد الإتباع.

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٢٥.

على أي حال حتى لو كان للكلمة الثانية معنى فإن من يسمع القول يشعر أن القصد سَنْد الكلمة الأولى بأخرى سواء دلت على تأكيد أو وقفت عند الإتباع، مثل القول الآتي:

«إِنَّهُ لَحزْنٌ شَزْنٌ، لِلْوَعْرِ الصَّعْبِ». [1]

فكلا الكلمتين تعني الوعر الصعب، ومع هذا فالتأكيد يقف بعيداً خلف الإتباع، ويبقى الإتباع هو المقصود الأول.

ومثله المثل الآتي:

«مَالَهُ سَعْنَةٌ وَلاَ مَعْنَةٌ، أَيْ: قَلِيْلٌ وَلاَ كَثِيْرٌ، وَيُقَالُ: السَّعْنَةُ الوَدَكُ، وَالمَعْنَةُ الخُبْزُ». [2]

وزاد المحقق فيما نقله أن معنى «المعنة»: المعروف.

وقد يكون القصد الأول هو التأكيد على أن هذا الشخص لا يملك شيئاً، وكان بالإمكان أن يقال إنه لا يملك قليلاً ولا كثيراً، ولكن السعنة والمعنة اختيرت

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٢٥.

(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٢٥.

لما فيها من رائحة الإتباع.

ومثل هذا القول الآتي:

رَجُلٌ أَمَنَةٌ أَذَنَةٌ، يَأْمَنُ كُلَّ أَحَدٍ وَيُصَدِّقُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ». [1]

فالإتباع مقصود رغم أن لكل كلمة معنى، ولكن صورة الإتباع أقوى تأثيراً مما لو اختير كلمات لا تتماثل في الصورة، وهذا الذي جعل للإتباع جذباً أدى إلى كثرته مما أمكن ابن زكريا من تأليف كتاب كامل فيه.

والعامة تقول «المَكَانُ حَانٌّ رَانٌّ»، يعني ممتلئ بالناس، وقصدوا بذلك الإتباع ولعل في ذهنهم الأصوات التي منها الحنين وهو صوت الولهى امرأة أو حيواناً، والرنين أيضاً صوت مختلف، فالجملة جمعت نوعين من الأصوات بينهما أصوات أخرى مثلهما.

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٢٦.

ويبدو أن العامة لم تأت بهذا المثل ابتداعاً، وإنما استوحته من إتباع هكذا:

«مَالَهُ حَانَّةٌ وَلاَ آنَّةٌ، أَيْ: نَاقَةٌ وَلاَ شَاةٌ». [1]

والعامة اختارت: رانة، لقرب معناها عندهم، ولسهولة الألف بعد الراء، وصعوبتها بدونها، والثقل في «آنة» واضح عند النطق بها، والسهولة واضحة في «رانة».

كلمة «تافه» ترد كثيراً على ألسنة العامة، وقد يظن بعض الناس لامتهانها، أنها عامية، ولكن إتباعاً ساقه المؤلف يؤكد أنها عربية، وأنها تستحق الإتباع، والقول فيها كما يلي:

«هُوَ تَافِهٌ نَافِهٌ، أَيْ: حَقِيرٌ، كَذَا قَالَهُ فِي الإِتْبَاعِ، وَهُوَ يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ: اشْتِقَاقُهُ مِنْ (تَفِهَتْ نَفْسُهُ) أَيْ: أَعْيَتْ وَكَلَّتْ». [2]

وإذا تباعد المعنيان للكلمتين المتتاليتين تأكد أن

---

(1) الإتباع والمزاوجة: ١٢٦.

(2) الإتباع والمزاوجة: ١٢٧، والأمالي: ٢/ ٢١٥.

القصد الإتباع مثل القول الآتي:

«أَفْعَلُ مَا سَاءَهُ وَنَاءَهُ، أَيْ: أَثْقَلَهُ». [1]

فالإساءة بعيدة المدلول عن الإثقال، مما يؤكد أن معنى الثانية، وهو الإثقال، ليس مقصوداً، وإنما المقصود الإتباع، وأن جاذبية الصوت والصورة هما الهدف.

ومثله القول الآتي:

«لاَ يَعْرِفُ القَطَاةَ مِنَ اللَّطَاةِ، والقَطَاةُ مَوْضِعُ الرِّدْفِ وَاللَّطَاةُ الجَبْهَةُ. قَالَ:

وَأَبُوْكَ لَمْ يَكُ عَارِفاً لِوَطَاتِهِ
مَا فَرْقَ بَيْنَ قَطَاتِهِ وَلَطَاتِهِ[2]

والقطاه هي آخر جزء من البعير إلى الخلف، واللطاة، وهي الجبهة، هي آخر جزء منه إلى الأمام، والبعد بينهما أوجب تجهيل المرء، وبعده عن المعرفة، ولولا جاذبية صورة اللطاة، وقرب لفظها من القطاة،

---

(1) الإتباع والمزاوجة: ١٢٩.

(2) الإتباع والمزاوجة: ١٢٩.

ما اختيرت على الجبهة، ولكن الرغبة في صورة الإتباع هي التي أوجبت الإتيان بها، وخلدت بهذا الكلمة، وبقيتا متجاورتين متساندتين، رغم اختلاف المعنى، وتباعد المدلول.

وللغرض نفسه اختير المثل الآتي:

«مَالَهُ ثَاغِيَةٌ وَلاَ رَاغِيَةٌ. الثُّغَاءُ: لِلشَّاءِ، وَالرُّغَاءُ لِلْإِبِلِ».(١)

وكان بإمكان القائل أن يقول: ما له شاء ولا إبل، ولكن اختار الإشارة إليها بأصواتها، لأن في ذلك مجالاً للإتباع، وصورته مرتضاه.

ومن الإتباع الواضح قولهم:

«هُوَ عَيِيٌّ شَيِيٌّ، وَمَا أَعْيَاهُ وَأَشْيَاهُ، وَكَانَ مِنْ عِيٍّ وَشِيٍّ. فَالْعِيُّ مَعْرُوفٌ، والشَّيُّ إتباع».(٢)

ومثله قولهم:

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٢٩.
(٢) الإتباع والمزاوجة: ١٣١، والأمالي: ٢/ ٢٠٩.

«لاَ دَرَيْتُ وَلاَ تَلَيْتُ. إِتْبَاعٌ، ويقال أيضاً: إِئْتَلَيْتُ، أَيْ: اسْتَطَعْتُ؛ وَيُقَالُ: مَا يَأْلُوهُ: أَيْ يُطِيْقُهُ». [1]

هذه بعض أمثلة من هذا الكتاب الفريد، ومن بعض الكتب الأخرى، لمستْ جانباً من جوانب اللغة العربية، مضيئاً ساطعاً، دل على رقيها، وشمولها، وعناية أهلها بها، وقبولها للنمو والاتساع، وقدرتها على التحمل، وقوتها في مقابلة الهزات، وتصيّدها لمواقع الجمال.

ويبدو أن هذا المؤلف واحد من الذين اهتموا بالإتباع، وإفراد كتاب كامل له، وجعله على صورة معجم، وهو خلافاً للمؤلفات الأخرى وصل إلينا كاملاً، أو شبه كامل، أما غيره مثل كتاب الإتباع لأبي الطيب اللغوي، فلم يبق لنا من كتابه هذا إلا جزء يسير؛ ويقال إن السيوطي ألف كتاباً في الإتباع، سماه «الإلماع في الإتباع»؛ وكتب عن الإتباع في كتابه «الأشباه والنظائر في النحو».

---

(١) الإتباع والمزاوجة: ١٣١.

أما الذين جاؤا بمقتطفات عن الإتباع، أو أبواب في كتاب، فهم متعددون، منهم أصحاب المعاجم عندما يمرون بكلمة متبوعة أو تابعة، ومنهم من كتبوا في اللغة مثل الثعالبي في كتابه: «فقه اللغة وسر العربية» فقد عقد فيه فصلاً في الإتباع، وفي المزهر بحث عن الإتباع، وكذلك في الجمهرة لابن دريد، وللبكري جهد، وابن قتيبة مثله، وللقالي في أماليه، وثعلب في مجالسه، وابن سيده في مخصصه، وغيرهم.

وقد قام الأستاذ محمد أديب عبدالواحد جمران بتحقيق كتاب «الإتباع والمزاوجة» لأحمد بن فارس ابن زكريا، وبذل جهداً مشكوراً في دراسة الكتاب، وشرح ما يحتاج إلى شرح، وقدم له بمقدمة ثمينة وافية، سوف يستفيد منها قارؤها فائدة جُلَّى.

***

الحكمة عصارة الرأي

الحضارة الحقة هي ذات الجذور، وكلما عمق جذرها زاد بهاؤها، وسمق غصنها، واستوجب على من ينتمي إليها الافتخار بها، والجهر بذلك، والتعالي بحق على من يفتقد مثلها، ويعوزه الإلتفات إلى الخلف، ليجد الركن الرزين الثابت، الذي يمكنه أن يرتكز عليه في منطلقه، وتوثبه، وسيره إلى الأمام.

وصاحب الحضارة يُغبط على الوساد الوثير الذي يجلس على ما اطمأن منه وأراح؛ ولا حضارة طارئة يمكن أن تجاري حضارة عتيدة عتيقة، ثابتة الأركان، بهية الضياء، جوانبها الرئيسة مضيئة بنور تبلورت مصادره مع الزمن، والزمن لا يحل محله غيره، فليس شيئاً يشترى، أو سلعة تجلب، وإنما هو وقت، لمروره قواعد ثابتة تحكمُ ولا تُحكَم.

إحدى مظاهر الحضارات ما دون مع مُرور الزمن عن تجربة أهله، وما مر بهم في سعة وضيق، وشدة

وفرج، وما عانوه من تعب، وما نعموا به من راحة، وما اقترفته أيديهم، وما ابتلوا به دون عمد منهم، أو ابتداء؛ وما نكبهم به الزمن، وما جنته أيديهم؛ وما أنجزوه من عمل مجيد، وما قصروا عن إنجازه.

يأتي ذلك مدوناً في صورة حكم أو أمثال أو أشعار، فتشع هذه ضياءاً يكشف ما وراءها من خبر، ويَبقَى نوراً يهدي الآتي بحصيلة ما مر بالذاهب، فيُحذر ما يجب الحذر منه، ويُقدم على ما يجب الإقدام عليه.

والحِكَم من بين جميع ما دُوِّن عما يفيد من تجربة السابقين تبقى بهديها في المقدمة، لأنها عصارة فكر لمن جرب الأمور، أو راقب حدوثها، وتابع سيرها، وتعمق بنظرته إلى ما تحت السطح، وغاص على ما لا يتمكن من رؤيته إلا الملح، الملحف، الباحث عن حقائق الأمور، ودرها وجوهرها ولؤلؤها، ليصنع من مختارها عقداً مضيئاً في جيد طالب الحكمة، والساعي للانتفاع بحصيلة تجربة العقلاء وتبصرهم وتدبرهم.

والحِكمَ صور صادقة لعقول قائليها، وقائلوها صور صادقة لأممهم، وما هي عليه من الرزانة والتفوق، وما قطعوه في طريق الحضارة، وما بنوه من أمجادها في وقتهم، وما أرسوه من أسس للأجيال اللاحقة، حتى لا تنفصم عرى هذه الحضارة، أو يبلى حبلها، أو يَنبتَّ خيط من خيوط نسجها، أو يبهت ضوء من الإشعاع الساطع الذي استطاع جيل من الأجيال أن يحققه.

والمنطقة التي عاش فيها العرب، ومن جاورهم، كانت بؤرة الحضارات، ومصدر المدنية الحقة، وكانت منبع الإشعاع فيما بعد، للأمم التي ترسف في أغلال التأخر والهمجية، إلى حد لا يكاد يصدق، وهي اليوم بما وصلت إليه من إنجاز مادي، وحضارة مناسبة له تحميه، وتبقيه وتطوره، تعتبر في الصفوف المتقدمة، ورحلة ابن فضلان المشهورة تشهد بذلك.

والعرب انصهروا في بوتقات مختلفة من حواضر وبوادي، ومع الزمن أرسوا أسس حضارة فريدة،

شهد لهم بها القاصي والداني، وكانوا إشعاعاً أضاء جوانب البلدان التي وصلوا إليها مع المد الإسلامي؛ فكانوا مصدر العطاء للبلدان المجدبة من الحضارة، وكانوا حسني الاختيار من حضارات الأمم التي وجدوا أن عندها من الحضارة المتقدمة ما يجمل، وما يستحق أن يقتبس، وأن يستقى، لأن فيه ما يتلاءم مع حياتهم، وما تقبله عقولهم، ويرحب به تفكيرهم.

وما دون في كتب الأدب من الحكم المنيرة يكفي شاهداً على ارتقاء تفكير العربي في صحرائه، وهي صحراء بهدوئها وانقطاعها ساعدت ذهنه على أن يكون صافياً، ونفسه أن تكون شفافة، وعقله أن يكون نشيطاً، متدبراً ومتبصراً؛ وأوجدت تناغماً بين عقله ولغته، لغته ولسانها، فصاغ تجربته، وما توصل إليه عقله، وما هداه إليه تبصره وتدبره فيما حوله، وبما يمر عليه، في جمل أصبحت معالم على الطريق يهتدي بها اللاحق، مقدراً للسابق هذا الإرث الغالي.

وإذا كان هناك من العرب من كان مصدر الحكمة، فهناك ملتقط الحكمة، وإذا كان هناك من يصوغ الدرر، فهناك من يشتريها بالثمن الغالي، وإذا كان هناك من يجلب البضاعة النفيسة، فهناك من يتلقفها، ويغليها ويحافظ عليها.

ونلمح مدى أهمية الحِكَم في حياة الناس، وما تلعبه من دور في تسيير حياتهم، وما يولونه إياها من عناية في قول الحكمة، وفي تلقيها، وتتبع مراميها، والحرص في السير في حدود ما ترمي إليه، وعدم مخالفتها، أو اختيار طريق يعارضها، نلمحه في تعدد جوانبها، فهي تلمس الحياة في طرقها المختلفة، لا تدع طريقاً إلا وضعت له قالباً، يصاغ فيه ما يحتاج إليه المرء من خطوط هادفة، تحد حدودها حكمة منتقاة، ألفاظها وافية، وصورتها جذابة، فتصبح الجملة التي صيغت فيها الحكمة شادّة، بِخِفة نطقها، وسلامة سبكها، وقوة معناها، ووضوح مرماها، وشمولها، وما أريد لها أن تنفع فيه.

وسنرى أن العرب منذ عصر الجاهلية الأولى كانت لهم حضارة عريقة، نم عنها ما سجل من طرح عقولهم النيرة، من حكم صائبة، تدل على عمق تفكيرهم، وحرصهم على ما يقيم أَوَدَ مجتمعهم، ويؤكد صلاحه، وسيره في حدود ما رسموه، في ضوء ما يفضلونه لحياتهم، وعلاقة بعضهم ببعض، وعلاقتهم بغيرهم؛ وما يطمحون إلى الوصول إليه، وما يجب أن يتطور إليه مجتمعهم، وترقى به حياتهم، وإلى ما يجنبها المزالق والزلات، وما قد تأتي به الأيام من هزات ونكبات.

تتحدث هذه الحكم عن صورة المجتمع حديثاً صادقاً، معبراً تعبيراً وافياً، يلمس جوانب مختلفة؛ وتلتمس هذه الحكم عند الرجل المعمر، الذي عرك الحياة، وأصبح في سنٍّ لم يعد الهوى هو المسيطر على تفكيره، ولا العاطفة هي المسيرة لأعماله، والمملية على لسانه، ولا الحاجبة بأستارها للمنطق، وما يتطلبه العقل المستنير، أو التفكير السليم؛ وقد

اضطرد مجيء النصائح القيمة التي صيغت في صور حكم على ألسنة هؤلاء المعمرين، وهو أمر طبيعي، ولولا أن الناس جربوا هذا فحمدوه، لما تتابع هذا، وتوالى.

واشتهر من المعمرين أكثم بن صيفي، وهو واحد من عدد منهم، جمعهم أحد الكتاب في كتاب[1]، وأكثم من المعمرين الذين قد يكون غُولي في أعمارهم، فقد قيل عنه أنه عمر ثلاث مئة وثلاثين سنة، وهو عمر في نظر زمننا غير مقبول؛ ولكن الروايات أحيانا لا تجعل هذا السن كبيراً إذا ما قورن بسن دُوَيْد بنِ نَهْد[2]، الذي قيل عنه أنه عاش أربع مئة وستاً وخمسين سنة، أو زُهَيرِ بنِ جَنَاب[3] الذي قيل عنه أنه عاش أربع مئة وعشرين سنة؛ أو هُبَل بن عبدالله بن الكلبي[4]، الذي قيل عنه أنه عاش سبع مئة سنة!

---

(١) كتاب المعمرين من العرب لأبي حاتم السجستاني.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٤.
(٣) كتاب المعمرين: ٤٠.
(٤) كتاب المعمرين: ٤٥.

وقد يكون سبب المغالاة في الأعمار التفاخر بين القبائل، فقد تفاخر قبيلة بمن بلغ من معمريها مئة وخمسين سنة، فتفاخر أخرى بأن عندها من بلغ المئتين، وثالثة توصل السن مئتين وخمسين، ورابعة إلى ثلاث مئة سنة، وهكذا تسير المزايدة حتى أوصلت هبل إلى ما وصل إليه.

ولا يقبل مثل هذا إلا إذا رجعنا إلى سن نوح عليه السلام، فيكون التعليل أن صفاء الأجواء قَوَّى الأبدان، وجعلها تقاوم ما كان متوافراً حينئذ من أسباب تجعل الجسم يضعف أمام التلوث، وعوامل البيئة، وهي أقل كثيراً مما يوجد في أيامنا، مما يكون سبباً، بإذن الله، في توالي الأمراض، وفتك العلل.

ومن الحكم التي تروى على لسان أكثم الحكمة الآتية:

«أَرَانِي غَنِيّا مَا دُمْتُ سَوِيّاً». [1]

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

أكثم بهذا يؤكد أن أغلى شيء عند الإنسان أن يكون صحيح البدن، صحيح العقل، صحيح التصرف، وأن المال مهما كثر، ومهما زاد، فهو مثل عدمه إذا كان الإنسان سقيم البدن، سقيم العقل، سقيم التصرف؛ فغير السويّ لا يهنأ بما عنده من مال، لأن ما به من خلل فيه من الإيلام ما يقضي على أي لذة تأتي من المال، بل إن هذا الخلل قد يقضي على المال، فيصبح المرء مقضياً عليه بالإفلاس من المال، وبفقدان الاتزان والسويّة، وهذا غاية الخسران في الدنيا.

ويقول في حكمة أخرى صادقة:

«إِنَّكَ لَنْ تَبْلُغَ بَلَداً إِلاَّ بِزَادٍ». [1]

هذا يؤكد أن على المرء أن يتزود لكل رحلة بالزاد الذي يناسبها، ويأخذ معه منه ما يحتاجه في طريقه، سواء طال السفر أو قصر؛ وهذا لا يقف عند الزاد الذي يؤكل، ولكنه ينسحب إلى الأمور الأخرى

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

التي هي أقرب إلى المعنى أكثر من المادة؛ فشخص يريد أن يخطب الناس، ويؤمل أن يؤثر فيهم، عليه أن يحضر لهذه الخطبة، قبل الإقدام عليها، ويستعد لها بالتفكير فيها، أو تحبيرها قبل إلقائها، وإلا فإنه مسافر إلى هدفه بدون زاد، ومن فعل ذلك انقطع به سبيله، وفاته غرضه.

وهذا يصدق على كل أمر يريد الإنسان أن يقوم عليه، وعلى كل ما ينوي الإنسان أن يفعله، توافه الأمور، أو جلائلها، فلكل أمر زاده، الذي يتماشى معه.

وهذه حكمة لم يأت بها أكثم من بعيد، بل التقطها من بيئته، ولكنه تركها تسعى في أرض الله، لتنطبق على كثير من الأمور؛ ولاشك أن من التفت إليها، وتدبرها، وعمل بها، فاز بالفلاح فيما سعى إليه.

ويقول أكثم:

«لَا تَسْخَرَنَّ مِنْ شَيْءٍ فَيَحُوْرَ بِكَ». [1]

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

يريد أكثم أن يسيطر الأدب على الناس، حتى تقوى الصلة بينهم، وتمتن العلاقة التي تربط بعضهم ببعض؛ ويبعدهم هذا عما يفصم عرى المحبة، وحبال المودة؛ ومن بين أسباب الفرقة أن يسخر الناس بعضهم ببعض؛ وحذر أكثم من أن السخرية قد تعود على صاحبها بأسرع مما ظن؛ والشماتة ذات صلة بهذه الرذيلة، فالشامت سرعان ما يجد أنه متشمت به في الأمر الذي كان مثار شماتته بالناس؛ وهذا أمر ملاحَظ، ولهذا قال العامة:

«لاَ تَشْمَتْ بِأَخِيْكَ، يُعَافِيْهِ اللهُ وَيَبْتَلِيْكَ».

وأكثم قال ما قال بعد أن رأى سرعة الناس إلى الشماتة، أو السخرية، لأن الشيطان يجد طريقه إلى قلب الإنسان عن هذا السبيل؛ ونجاحه معروف، لأنه يستغل الطبائع التي لم يهذبها الدين، ولم تشذبها تربية المربين، ولا وعظ المخلصين؛ ورأى أكثم أيضاً مدى ما تحدثه السخرية في المجتمعات، وما تأتي به من إبعاد الأخ عن أخيه، والابن عن أبيه، والصاحب

عن صديقه.

جاء هذا التحذير قوياً ينبه الغافل، ويعلم الجاهل، ويبصر الساهي؛ ليرى أي من هؤلاء مدى فداحة الأمر؛ والمتدبر المتقبل لمرمى هذه الحكمة سوف يفزع من الصورة التي رسمت، والتي كشفت له أن مآله إليها إذا لم يرعوِ.

وهذه حكمة أخرى، تروى على لسان أكثم بن صيفي:

«لاَ تَهْرِفْ بِمَا لاَ تَعْرِفْ».[1]

هذه حكمة بالغة، وقول صادق، أفلح من نفذ موجبه، وسار على هديه، واتبع السبيل الذي فتحه؛ ومن أخذ به نجح في مجتمعه، وحسّن علاقته بأفراده، واحتل المكان الذي يأتي له بالاحترام والتقدير؛ لأن مثل هذا يرفعه في عيون مجالسيه، وفي نظر من يختلط بهم؛ ومن خالفه وقع في المحذور، ونفر الناس منه، واستثقلوا روحه، ولا أشد على الناس من ثقل الروح،

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

لأن هذا الثقل ليس له دواء، لأنه داء عضال، وعيب لا يمكن التخلص منه.

وهذه الحكمة تزن المسافة بين القول والفكر، وتعدل الكفة بين النطق وما يأتي من الذهن؛ فإذا أعطي اللسان الحرية في أن يقول دون مخزون فكري، صادق الدلالة، قوي الأساس، من الحقائق والعلم، والتأكد منها والتثبت، أوقع صاحبه في المحذور، لأنه يضلل من قاله، ويضلل الآخرين؛ ومع تكرار القول بدون علم، والنطق بدون تفكير، والتفكير بدون حقائق، يُقضَى على ثقة السامع في المتكلم.

والحِكَم في هذا كثيرة، مرماها واحد، وإن تعددت صور القول بها، وبدء اللسان بالنطق قبل أن يدار الرأي في الذهن، وقبل أن يأتي الرفد للسان من حقائق الفكر، خرق وغباء، لأنه وضع للأمر في غير مجراه، وإخلاف لنظام الكون السوي؛ لأن كثيراً من الأقوال قد لا تقال إذا سبقها الفكر بالتمحيص، وبالتدبر والقياس والمقارنة؛ والمقام أحياناً يقتضي

عدم التكلم بما قد يكون حقاً وصدقاً، لأن لكل مقام مقال، ومن قال قولاً في غير مقام القول أهدر القول، وأهدر معه فكره ومقامه.

ولهذا جاء المثل الحكيم الذي يقول:

«مَا كُلُّ مَا يُعْرَفُ يُقَالُ».

ولا يستطيع أن يمسك نفسه تجاه بعض الأقوال إلا من كان من ذوي الإرادة القوية، ومن في يده رسن قوي يلجم به لسانه؛ لأن إغراء القول قوي، واللسان معه جامح، مع أن السكوت ـ في الغالب ـ فيه السلامة، إلا إذا كان يضيع حقاً، أو يأتي على آخرين بالضرر؛ ولهذا كان الميزان بين القول وعدمه دقيقاً، يحتاج إلى عناية وتروٍّ؛ وليس الأمر سهلاً، فقد يفوت بالسكوت نفع، ويأتي منه ضرر، مثلما أن القول قد يجلب نفعاً، ويدفع ضرراً.

وسلطة اللسان قوية، ولهذا جاءت أقوال حول خزم هذه السلطة، وكبح جماحها، جاءت كثيراً في الأقوال الحكيمة، ومن هذه الأقوال قولهم:

«لِسَانُكَ حِصَانُكَ، إنْ صُنْتُهُ صَانَكَ».

وهذا يدل على أن اللسان جامح مثل الحصان، وجماح الحصان أقوى جماح، وقد عبر هذا القول الحكيم بكلمة «صيانة» اللسان، إشارة إلى عمق الإفادة، التي يمكن أن تأتي من إلجام اللسان بلجام قوي.

ومن الأمثلة الحكيمة في هذا المجال القول الآتي:

«رُبَّ كَلِمَةٍ قَالَتْ لِصَاحِبِهَا دَعْنِي».

تصوير الكلمة بصورة الإنسان الناطق أمر يدفع بالمعنى المقصود إلى التأثير على السامع، لأن الصورة المحسوسة أسرع إلى التصور من الصورة الفكرية أو المعنوية؛ والكلمة المنطوقة هي التي ترشد المتكلم بها إلى ما كان يقتضيه العقل من التروي، وما يستوجبه وزن الأمر.

وكم من كلمة جرت حرباً، أو أنزلت سوءاً، أو تسببت في كارثة، أو قطعت صلة حميمة، أو هدمت بيتاً معموراً، أو أقلقت ذهناً مطمئناً، أو عقلاً مُراحاً؛ أو جلبت شقاءاً، وقضت على سعادة؛ وهي

على صغرها مثل الرصاصة توجه بإتقان إلى القلب، أو الشوكة إلى العين.

والإنسان يندفع، خاصة وقت الغضب، فتعمى عينه عن رؤية الدلائل التي تنبئ بالعواقب، والغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفِؤه؛ والانفعال نار تتقد يزيد جذوتها الوساوس التي يلقيها على لهبها الشيطان المتربص، ليَفْرح بما يَنْتج عن ذلك من أذى للمتكلم، ومَنْ وقع عليه القول.

والعرب ينفرون من الهذر، لأن فيه الزلل ولهذا قالوا:

«أَحْسَنُ القَوْلِ أَوْجَزُهُ». [1]

وقالوا أيضاً:

«خَيْرُ الكَلامِ مَا قَلَّ وَدَلَّ».

وهذا يصور الأمر كأنه ثوب مفصل، إن زاد عن الحد انتُقِد، وإن قَلَّ لم يُجز؛ وهم يمتدحون الوسط،

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٠.

وعندهم خير الأمور الوسط. وينفرون من كل شيء يزيد عن المقدر له، ولهذا امتدحوا عدم الزيادة فيما لا يحتاج إلى زيادة، فقالوا:

«أَمْثَلُ الأَشْيَاءِ تَرْكُ الفُضُولِ». (١)

جُعل ترك التزيد في كل الأمور هو المثل الذي يجب أن يسعى إليه العاقل، لأن فيه السلامة، وفي اتباعه الغنيمة المضمونة، وفي مخالفة ذلك توقع الزلل، وارتقاب العثرة.

واللسان عندهم أداة لها خطرها، ولهذا تكلموا عنها في عدة جوانب، فبجانب ما قالوه من خزمها، والسيطرة على سلطانها، والإقلال من عملها إلا فيما يوجبه المقام، حثوا على تعويدها الحسن من الأقوال، فقالوا:

«ضَرِّ لِسَانَكَ بِالخَيْرِ». (٢)

وهذه حكمة توزن بالذهب، وتثمن بالجواهر،

---

(١) كتاب المعمرين: ٣١.

(٢) كتاب المعمرين: ٣١.

وتُمَاثِل الدر واللؤلؤ، لأن الخير كله فائدة، وصلاح أمر، ولا يأتي من تعويد اللسان عليه إلا ما يأتي بالفائدة، ويبعد الضرر، ويقرب الكسب ويجنب الخسارة، ويقود إلى السعادة، ويقف سداً منيعاً دون الشقاء والخيبة والحسرة.

وهناك كلمة أمدت رحى الحرب بوقود أوصلها إلى أربعين سنة، هي عمر حرب البسوس؛ وكادت أن تنطفي لولا أن قال المهلهل أخو كليب عند مقتل جساس: «بُؤْ بِشِسْعِ نَعْلِ كليب»، وكان والد جساس أمّل أن يكون قتل جساس معادلاً لمقتل كليب، إلا أن هذه الكلمة حركت في نفس والد جساس عزة أدخلته في نار الحرب، التي حاول أن يتقي شرارها، ويبعد عن أوارها؛ ولكن هذه الكلمة لم تقل لمهلهل: دعني، أو قالتها، ولم يسمعها، فلفظها، فأقبلت تدفع أمامها أمواج الغضب، ورياح الحقد.

ومن الأقوال الحكيمة التي جاءت لتحد من صلف اللسان وقصفه، القول الحكيم الآتي:

«إِنَّ مِنَ المُرُوْءَةِ أَنْ تَكُونَ نَاطِقًا كَعَيِيٍّ» .[1]

وهذا فيه مبالغة في الصمت محمودة، فصاحب اللسان فصيح، يستطيع القول ويطيله، إلا أنه مطلوب منه أن يتظاهر بالبكم المؤقت، وعدم القدرة على مجاراة الآخرين في الكلام، لأن في هذا السلامة التي قد لا تتوافر في النطق، والحديث المسهب.

ومثل هذا القول الحكيم القول الآتي: وهو قول يأتي بميزة أخرى للصمت، وفائدة واضحة لحكم اللسان، والخصلة التي تأتي من ذلك ذات قيمة كبرى، والمثل الحكيم هو:

«الصَّمْتُ يُكْسِبُ المَحَبَّةَ» .[2]

ومن لا يحرص على محبة الناس، وكسب رضاهم بالطرق المحمودة، ومن لا يفعل ذلك، أو لا يسعى إليه، فهو مريض النفس، ناقص العقل، ومن قصر عن رِضى الناس المحمود فهو سيء الحظ، وهافي البخت.

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٢.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٢.

ويسير على هذا النهج قول حكيم آخر، يأخذ جانباً من جوانب فضيلة الصمت، ولجم اللسان، وعدم الهذر، والإكثار من القول، إلا بما توجبه الحاجة، ويقتضيه الظَّرف، والقول هو:

«العِيُّ أَنْ تكَلَّمَ بِفَوْقِ مَا تَسُدُّ بِهِ حَاجَتَكَ». [1]

إذا كان العيّ، كما هو معروف، هو العجز عن الإبانة، فإن مثله في النقص، ويشبهه في القصور عن الهدف، أن تتعدى في قولك ما يكفي للإبانة عما في النفس، فالزيادة هنا هي أخت النقص هناك؛ والنّجاح في أن يلبس القول مدلول الحاجة فلا يزيد عليه، ولا يقف دونه، وإلا ضاع الهدف، بسبب الإسراف في القول، والإسراف يشين كل شيء، والقصد يزين الأشياء زينة تجمل المقتصد في الحدود المتعارف عليها.

ومما جاء في هذا الباب القول الآتي لأكثم بن صيفي، وهي حكمة أهداها لبنيه: قول غال ثمين

(١) كتاب المعمرين: ٣٣.

إلى من هو غال وثمين:

«كُفُّوا أَلْسِنَتِكُمْ، فَإِنَّ مَقْتَلَ الرَّجُلِ بَيْنَ فَكَّيْهِ».[1]

ولن يكون بإمكان أحد أن يحصي الذين ذهبوا نتيجة حصاد ألسنتهم، والمواقف في هذا كثيرة، تتجمع عدداً ونوعاً مع مرور السنين والأزمان؛ لأن جرح اللسان أحيانا أشد من جرح السنان، فجرح اللسان لا يندمل، وجرح السنان يلتئم.

ولهذا قيل:

«رُبَّ قَوْلٍ أَنْفَذُ مِنْ صَوْل».[2]

ومما جاء في مقام القول مايلي:

«قَدْ أَقَرَّ صَامِتٌ».[3]

وهذا يعني أن الصمت بليغ، وأن له دلالة مثل الكلام، فالزم الصمت، واكتفِ به، إذا كان في هذا مصلحتك، وانطق إذا كان النطق أسلم، ورغم أن

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٣.

(٢) كتاب المعمرين: ٢٥.

(٣) كتاب المعمرين: ٢٤.

الصمت محمود دائماً، إلا أنه يجب أن يكون أبلغ من النطق؛ والدين الإسلامي دل على بلاغة الصمت في أحد الأحكام المهمة، فإذن البكر في قبول الزواج هو سكوتها، وهو سكوت بالغ التعبير.

ويقول أكثم لبنيه أيضاً، والمجال لايزال مجال القول والنطق:

«المِكْثَارُ كَحَاطِبِ اللَّيْلِ».[1]

هذا تعبير جميل، وصورة مجسمة، تخفي وراءها رسماً مفصلاً، الحركة فيه متتالية، والمرمى واضح بين، والسبيل إليه معبد. فالذي يحطب في الليل لا يرى الحطب رؤية متمعنة، فهو يجمع، في سعيه، الحطب اليابس، والحطب الرطب، وقد يجمع مع حطبه ما لو رآه في النهار لفزع منه مذعوراً، وجفل من مجرد رؤيته، فما بالك حمله على ظهره أو ظهر دابته، فقد يكون جمع حية أو عقرباً، فيكون في ذلك هلاكه، أو بالغ الضرر له؛ ومن يكثر من القول فإنه يوشك أن

(١) كتاب المعمرين: ٢٤.

يدخل في حديثه ما يجوز وما لا يجوز، وأن يأتي بالقول الحسن، والقول الرديء، والمعنى المقبول، والمعنى المرفوض، وقد يقول ما لا يحسن شرحه، وما يسوء تفصيله.

وبعض الناس إذا جلس في مجلس شارك في كل موضوع يرد في حديث المجتمعين، سواء يدخل ذلك في تخصصه، أو لا يدخل، يجيد جوانبه، أو لا يجيدها، ويبدو وكأنه أعلم الحاضرين، لا يعف عن القول في أي مجال يأتي أصلاً في الحديث، أو عرضاً؛ وهذا يكون ثقله على من حوله ظاهر، ونفورهم منه واضح، وقد يؤدي بالحاضرين إلى تجنب الجلوس في مجلس هو فيه.

ويؤكد أكثم نفوره من كثرة الكلام بقوله:

«مَنْ أَكْثَرَ أَسْقَطَ». [1]

وهذا أيضاً جاء في مجرى نصيحته لبنيه.

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٤.

ومواقف الحروب، وملاقاة الجيوش، وأوقات النزال، واحتدام الصدام، من المواقف المهيبة، ومن الساعات الحرجة، واللحظات المهمة، ولهذا جاء الحث على الصمت فيها، حتى تتأكد الهيبة، ويبهم الموقف، فلا يعرف من اللغط والصراخ ما قد يكون خافياً في الصدور، والصمت يعطي فرصة للمقاتلين في وزن المواقف، واتخاذ الخطوات التي تتناسب مع ما يعرفونه عنها، فلا يشغل أحداً نطقُه، ولا يصرف تفكيره نطقُ غيره، فالنطق نصف الأمر، وفهم النطق النصف الآخر، فإذا طاح عبء النصف استفاد المحارب خزن قوة تفيده في هذا الموقف الخطر.

وأكثم نفسه له نصيحة لقومه يوم الكلاب، وهم يتأهبون لملاقاة خصمهم، يقول فيها:

«إِيَّاكُمْ وَكَثْرَةُ الصِّيَاحِ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الصِّيَاحِ مِنَ الفَشَلِ». (١)

وإذا أنهينا الحديث في القول، ودلفنا إلى حِكَم

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٥.

أخرى، نجد إحداها تقول، وهي على لسان أكثم ابن صيفي:

«فِي العَافِيَةِ خَلَفٌ مِنَ الوَاقِيَةِ». [1]

إذا ما تدبر المرء الأمر قبل الإقدام عليه، وتفادى الخطأ قبل وقوعه، أمن الزلل، فالبعد عن الخطل، في الرأي والعمل، يريح الإنسان من تعب يناله من جراء اتقاء عواقب ما أقدم عليه، والسعي في محو آثاره، والعافية هي الابتعاد عن الأذى للبدن والنفس؛ والاتقاء درع يحمي هذه النعمة، ويقوم حصناً منيعاً في الذود عنها، ورد الغائلة إذا جاءت.

والذي لا يقيم وزناً لحق الناس، أو لا يراعي شعورهم، أو لا يأبه بما يحبون أو يكرهون، فيقدم على قول أو عمل، يغبط فيه الناس حقهم، أو ينكرهم فضلهم، أو يجرح به إحساسهم، أو يأتيهم بما يزعجهم، أو يسلبهم لذة هي حق لهم، لن يرى العافية، ولن يهنأ بالراحة، والسلامة لن تكون من

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

نصيبه، وطمأنينة البال سوف تفارقه، ولذة العيش سوف تتجنبه؛ إن رام إصلاح ما أفسد عز عليه ذلك وصعب، وإن سعى إلى تقويم ما تسبب في اعوجاجه نأى عنه ذلك وابتعد؛ جهده مبذول دون نتيجة، وإن جاءت جاءت ناقصة، لا تجزي ولا تفي بالمقصود.

على المرء أن يحسب للآخرين حسابهم، فيرجو لهم ما يرجو لنفسه، ويعطيهم من نفسه ما يرجو أن يعطوه من نفوسهم؛ المعاملة تجر المعاملة، وما يبذله المرء لغيره يبذله غيره له، والناس دون حقوقهم؛ لا يترك حقه إلا عاجز، ولا يتحمل الضيم إلا ضعيف.

لهذا كله صار طلب العافية مع هذه الحكمة، ففيه السلامة، وفيه الراحة، وفيه اللذة، وفيه النفع، ودفع الضرر، ومجموع هذا كله السعادة؛ وكأن الحكمة تقول: العافية طرحها السعادة.

يقول أكثم:

«إِنَّهُ لاَ يَنْفَعُ مِمَّا هُوَ وَاقِعٌ التَّوَقِّي». [1]

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٣.

وتقول حكمة من الحكم التي نطق بها أكثم بن صيفي:

«عَادَاكَ مَنْ لاَحَاكَ». [1]

هذه حكمة لابد أن أكثم - إذا كان قالها - استقاها مما رآه أثناء حياته الطويلة بين الناس، ورأى فيها ما فرق بين الأحبة، وقطع الصلة بين الأصحاب، وأوجد العداوة بعد الصداقة، وفرق بين مجتمعين، وباعد بين مقترِبين؛ هدم بناء قائماً، وكسر ما كان ملتئماً، وأخرب ما كان صالحاً.

والجدل، وهو وعاء الملاحاة، عامل من عوامل الفرقة، يبدأ رهواً سهلاً، ثم تتوالى حزونه في التسامق والارتفاع، حتى يكون السهل منها جبلاً، والمنبسط مرتفعاً، ويكثر الشغب، وينصدع الشعب إلى صورة لا يمكن رتقها؛ والإنسان خُلِق، وفي داخله من مظاهر العزة ما لا يمكنه مقاومته، تأخذه العزة بسبب ما، فيجادل ويناكف، وقد يغالط، ويختلق، ليخرج في

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

آخر الأمر رابحاً جولة الجدل، والخاسر هو المتجادل معه، ولكنه ربح هواءاً، وخسر إنساناً، وما أصغر الربح، وأكبر الخسارة؛ وليس منا من لم يجادل، أو شهد جدلاً، فرأى نتيجة الملاحاة، وعنف الأخذ والرد، واصطفاق مياه بحار الجدل، وعلو أمواجها، وما تغرقه وما تدمره.

والناس، وهم يتجنبون الملاحاة، يبتعدون عن أسبابها، وما يقود إليها، ويتفادون المزالق التي تركس المرء فيها؛ ومما يدخل في الملاحاة اللوم، فكثرته توصل إلى الملاحاة، هذا يلوم، وهذا يدافع، ومن هذا كلمة، ومن هذا أخرى، ومن هذا عتاب، ومن هذا رده، وترتفع ألسنة اللهب تدريجاً، حتى تبلغ منتهاها، وقد تكون بدأت صغيرة، ومحدودة، ويُرجَى من ورائها الخير، ولكنها تعدت الحد الذي كان يجب أن تقف عنده، ولهذا قالوا:

«رُبَّ لائِمٍ مُلِيْمٍ». (١)

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٢.

يصبح اللائم ملاماً، إما لأنه زاد في اللوم، أو لأنه لام قبل أن يتثبت من الخطأ الذي جاء يلوم غيره عليه، فالتسرع مدعاة للزلل؛ ومغبته وخيمة، وفي التثبت محمدة، وقد غالوا في الابتعاد عن اللوم فقالوا:

«لاَ تَلُم أَخَاكَ مَا آسَاكَ» .[1]

فالإبقاء على الأخ أثمن من كسب أخ جديد، والإبقاء على الصديق خير من زيادة صديق آخر؛ وتأويل خطأ الأخ إلى ما يخرجه عن الخطأ خير مِن عتابه أو ملامته، لأن كليهما يترك في النفس ندوباً قد تعمق مع مرور الأيام، أو تكرر الملامة والعتاب.

وقال أكثم:

«لَيسَ مِنَ العْدلِ سُرعَةُ العَذْلِ» .[2]

وهذا أكثم يؤكد أمراً هو محل الاستغراب، وموطن العجب، فرغم أن قول الحق فضيلة، إلا أن أكثم

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٣.

(٢) كتاب المعمرين: ٢٥.

يحذر من أن الأمر في هذا ليس سهلاً، وأن في قول الحق ما قد يجلب النقص، ويُطير من اليد كسباً كبيراً، يقول أكثم في هذا، منبهاً أولاده في سرد حِكَمِهِ لهم، وإزجاء نصائحه:

«إِنَّ قَوْلَ الحَقِّ لَمْ يَدَعْ لِي صَدِيْقاً».[1]

وأكثم يريد بهذا أن يؤكد أن الحق مرّ، وليس كل إنسان يستطيع استساغته، فرأى أن يوطن أبناءه على أن يستعدوا لما يأتي من مردود الحق، فإذا كان الحق نفر الأصدقاء، فأولى به أن يطير الأعداء؛ ومن، من بين الأصدقاء، أخفى الحق أولاً، فإنه لا يقبله من غيره آخراً، وهذا من حب الأثرة، والإنسان مع الأثرة لا يذكر إلا نفسه، ينسى معها الآخرين وحقوقهم، وإذا لم ينس تناسى، وويل ثم ويل لمن يذكره، فهو إنما يذكره بنقص كبير فيه، وهو عيب فاضح، ولا أحد يقبل بسهولة أن تنشر على الملأ عيوبُه، أو يفضح بين الناس سوؤه.

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٣.

والحق مرّ، لأنه له توابع، يتتالى وقوعها بعد أن يقال الحق، فإذا تصورنا مجرماً أخفى جرمه، وجاء مَنْ كشف هذا الجرم، وقال الحق في وقوعه، وأدى هذا إلى تحمل المجرم إثم عمله، وجزاء ما فعل، أتراه يرحب بمن كشف ستره، ولو كان أباه!

وقول الحق وضع للأمر في نصابه، ووضع الأمر في نصابه إحقاق للحق، وتقويم للمعوج، وإصلاح لفاسد، وهذا فيه عناء، ولا يتقبله الناس بسهولة، وفيما يلي أحد مرامي قول أكثم:

«لَيْسَ بِيَسِيْرٍ تَقْوِيْمُ العَسِيْرِ». (١)

خاصة إذا كان مضى على عسره مدة طويلة، فإن الإعوجاج إذا بنى عليه الزمن يصعب تعديله، والخلل إذا تعود عليه المرء يعسر محوه؛ والمبادرة إلى إصلاح الخلل أقمن أن تأتي بالمراد.

ولم يقف أكثم في النصح، وقول الحِكَم، لمن يقول الحق، وإنما عمد إلى من يتلقى الحق، فأعطاه حكمة

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٥.

تنفعه، إن كان ممن يرعوي، فقال له:

«أَذْلِلْ لِلْحَقِّ تَعَزَّزْ». [1]

لأن الحق نور، فإذا سار المرء خلف النور، وصل إلى الهدف، لأن الطريق تكون حينئذ له واضحة المعالم، سهلة المسالك، إن ارتفع أمامه ناتئ حاد عنه، وإن وقفت عقبة في طريقه تغلب عليها؛ والعز في اتباع الحق، لأن خلاف ذلك اتباع للباطل، ويكفي الباطل أن اسمه الباطل، لينفر منه.

وقد استعمل أكثم كلمة «أذلل» ليكون الخضوع للحق كاملًا، لا نقص فيه، وجلياً لا شبهة فيه، وواضحاً لا غموض فيه، وبقدر التذلل تكون العزة، لأن في هذا الذل شرف، يتسابق الناس إليه، ويحرصون على حيازة قصب السبق فيه.

ويقول أكثم:

«لَا تَنْطَحُ جَمَّاءُ ذَاتَ قَرْنٍ». [2]

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٧.

(٢) كتاب المعمرين: ٢٥.

هذا قول صدق، وتكملته. لا تنطح جماءُ ذات قرون فتفلح، لأنها قد تنطحها فتهلك، والجماء هي الدابة التي لا قرون لها، وهذا قول يحذر المرء من أن يحتك بمن هو أقوى منه، لأن الضرر عليه مؤكد الحدوث، فلا كفاية في الجماء في مقابلة ذات القرون، فكأن أعزلاً قارع ذا سلاح، فالأعزل واحد، والمتسلح أكثر من واحد، وربما وازن جماعة، فالمصارع الأعزل قد رمى نفسه في التهلكة، والعامة تقول بحق:

«لاَ تَحَكَّكْ بالزَّمْلْ وَأَنْتَ حُوَيْشِيّ».

أي ما دمت بعيراً صغيراً فلا تزاحم قطيع الإبل الكبار، فإنها تسحقك.

وأحياناً تسيطر الثقة الطاغية على شخص، نتيجة الغباء والخرق، فيقدم على ما كان يجب أن يحجم عنه، ويتقدم إلى ما كان يجب أن يتأخر عنه، فيكون في تصرفه هلاكه، أو أذاه؛ والسبب عقله القاصر، الذي هيأ له أنه بإقدامه على معاركة من هو أقوى

منه، أو أكمل سلاحاً، أو أوسع سلطة، أو أنسب موقعاً، أو أوفق ظرفاً، أو أكثر جماعة، أو أوفر حزباً، يغلب خصمه، ويفوز بالطائلة عليه.

ولا يقتصر الأمر على العراك أو القتال، فالحكمة هنا تتسع لما هو أوسع، فالتاجر إذا كان رأس ماله محدوداً، متواضعاً، إذا سامق تاجراً فحلاً، وزاحمه، فقد تكسر أضلاعه في أول جولة، ويفاجأ بخطل رأيه في دخول الحلبة، وهو غير أهل لها، وفي السباحة في بحر لجي لا تقدر على مصاولته عضلاته.

والمسافر إلى بلد يذهب بغير زاد مناسب لطول السفر الذي أمامه، قد يجد نفسه مهزوما أمام ما أقدم عليه، مما لم يستعد له، وكل من أقدم على أمر لم يكن له بكفيء يبوء بما باءت به الجماء مما جاءها من ذات القرون.

والقول المأثور: «لاَ تُنَاطِحْ صخراً» يرمي في المرمى نفسه، الذي رمت إليه هذه الحكمة، ويقصد الهدف، الذي هدفت إليه، وقد قال الشاعر في مثل هذا:

كَنَاطِحٍ صَخْرَةً يَوْمًا لِيُوْهِنَهَا
وَلَمْ يُضِرْهَا وَأَوْهَى قَرْنَهُ الوَعَلُ

وهذه صورة محسوسة تري المدى الذي يمكن أن يصل إليه الضرر من جراء هذا الفعل الأهوج؛ ولن ينال الوعل إلا الجهد المضني، والقرون المكسرة، والرأس المجرح، والنَّفَس الثائر، والحمق الغالب، والغباء المتناهي؛ والصخرة كما هي، لم تخدش، ولم تدر أن هناك من نطحها!

ودريد بن الصمة من حكماء العرب، وإليه يرجع قومه في الرأي السديد، وإليه يلجؤون في الحروب والشدائد، وأثر عنه الرأي الصائب، والقول الحق، والحكمة البالغة، لسنّه، وطول تجربته، ورجحان عقله، وقد أعطى قولاً واضحاً عن مدلول مناطحة الجماء لذات القرون، فقال ناصحاً لقومه، وهو يعرف قوتهم ومداها، ويخشى أن تزيد ثقتهم بأنفسهم، فينظروا إلى الملوك نظرتهم إلى القبائل، ويظنوا أن الأمر واحد، وأن بإمكانهم أن يحاربوا ملوك المنارذة،

أو ملوك الغساسنة مثل محاربتهم بني فلان أو بني فلان من أندادهم من العرب، فقال لهم:

«أَمَّا أَوَّلُ مَا أَنهَاكُمْ عَنْهُ فَأَنْهَاكُمْ عَنْ مُحَارَبَةِ المُلُوكِ، فَإِنَّهُم كَالسَّيْلِ باللَّيْلِ، لَا تَدْرِي كَيْفَ تَأْتِيْهِ، وَلَا مِنْ أَيْنَ يَأْتِيْكَ.

وَإِذَا دَنَا مِنْكُمْ المَلِكُ وَادِيًا فَاقْطَعُوا بَيْنَكُمْ وبَيْنَهُ وَادِيَيْنِ، وَإِنْ أَجْدَبْتُمْ فَلَا تَرْعَوْا حِمَى المُلُوكِ، وَإِنْ أَذِنُوا لَكُمْ، فَإِنَّ مَنْ رَعَاهُ غَانِماً لَمْ يَرْجِعْ سَالِماً». (١)

ويقول أكثم في إحدى حكمه:

«فِي الجَرِيْرَةِ تَشْتَرِكُ العَشِيْرَةُ». (٢)

يخطئ فرد في العشيرة أو القبيلة، فينجر الخطأ إلى العشيرة كلها، أو إلى القبيلة بأجمعها؛ إما لأن قوم المخطئ أخذتهم العزة بالإثم، فلم ينصفوا من جاهلهم، أو أن من وقع عليهم الخطأ لم يروا، مع فداحته، أن أخذ فرد به كاف لمحو العار، أو نبذ الأذى.

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٦.

(٢) كتاب المعمرين: ٢٥.

وأغلب حروب القبائل العربية بدأت بخطأ ارتكبه فرد جر وراءه الجماعة، وتلا ذلك حرب ضروس، أكلت الأخضر واليابس، وأوقفت الناس على قدم وساق، أيّمت النساء، وأيتمت الأطفال، وقضت على الأبطال، وما حرب البسوس ببعيدة عن ذلك.

ولهذا حث على الأخذ على أيدي السفهاء قبل أن يقع منهم من السفه ما يجر الشر على القبيلة، ويودي بهدوئها، ويعكر صفو حياتها، والسفيه سفيه لا يدري مغبة ما يأتي منه من خطأ، فإذا ما جاء منه البلاء خف الأذى عنه بتحمل القبيلة الجزء الأكبر منه، وهو أمر ينطبق على العائلات اليوم، يأتي من صغارهم ما يجر الأذى على كبارهم، ولهذا يقول المثل العامي:

«يعمَلُوهَا الصِّغَارُ وَيَقَعُ فِيْهَا الكِبَارُ».

وقال أكثم:

«الشَّرُّ يبدَؤُهُ صِغَارُهُ». (١)

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٨.

والفرد الجاهل يأخذ الأمر بيده دون مراعاة لمن تربطهم به صلة ممن سوف يفزعون إذا حزبه أمر، فهو بهذا مستبد برأيه الذي تجعله نتيجته ليس من حقه وحده، بل إنها تجعله في حق الجميع، لأن الغرم سيقع عليهم، وما الفرد بعمله إلا داخل في حدود القول المأثور:

«رَمَتْنِي بِدَائِهَا، وانْسَلَّتِ».

ولأكثم قول في هذا يردف به قوله السابق، يقول:

«الاسْتِبْدَادُ عَلَى العَشِيرَةِ يَجُرُّ الجَرِيْرَةَ».[1]

ولما قد يجره الفرد الأخرق على قومه، فقد حُث على الأخذ على يد السفيه، ولو بتسليمه إلى من وقع منه الخطأ عليه، لأن هذا يكف الأذى، ويطفئ نار الفتنة، ويقفل باباً للريح الكريهة، تهب على مجتمع ما، فتعصف بساكنه، وتقتلع ثوابته؛ وجاء هذا الحث على لسان دريد بن الصمة إذ قال ينصح قومه بأقوال حكيمة، وأراء سديدة، رجا أن تكون نبراساً

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٣.

لهم في سيرهم في الحياة، عند ما كبر، ورأى أنهم بدؤا يهملون رأيه:

«أَسْلِمُوا ذَا الجَرِيرَةِ بِجَرِيرَتِهِ، وَمَنْ أَبَى الحَقَّ فاعْلِقُوهُ إِيَّاهُ» .[1]

ورجا أن لا يضيع صوته في هذا سدى، والا تَغْلب الطباع على الأدب، وأن لا يتجاهل القوم النفع، فتضيع فائدته في خضم غبار العزة الكاذبة، والعنجهية الخرقاء، والسير على ما تسير عليه القبائل، من سفه الحمية، التي يرتفع علمها وقت الحماس والغضب.

ولأن السفيه هو علة القوم، وهو مصدر القلق والخطل، حذر دريد بن الصمة من إعطائه أكثر من حقه، أو التهاون تجاه سفهه، وعدم نضجه، فقال:

«وَلاَ تُحْضِرُوا نَادِيَكُمْ السَّفِيْهَ» .[2]

والسفيه ثقل يجر السفينة إلى الأعماق من البحر فيغرقها، والسفيه في المحضر الجامع يبدد الرأي،

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٧.

(٢) كتاب المعمرين: ٣٧.

ويبلبل الفكر، ويتسبب في قلب الأوضاع، وتقديم غير المهم، وتأخير ما يجب أن يتقدم.

ولهذا قيل:

«لاَ يَصْلُحُ القَوْمُ فَوْضَى لا سَراةَ لَهُمْ
ولاَ سَراةَ إِذَا جُهَّالُهُمْ سَادُوا»

وجاء في نصيحة عامر بن الظرب العدواني لقومه:

«خُذُوا عَلَى أَيْدِي سُفَهَائِكُمْ تَقِلُّ جَرَائِرُكُم». [1]

وقال أكثم:

«فِي الاعْتِبَارِ غِنىً عَنِ الاخْتِبَارِ». [2]

تجارب الإنسان تنحدر من جيل إلى جيل، وتنتقل من أمة إلى أمة، وتستعار من شعب لشعب، وتقتبس من تراث إلى تراث، وفي أخذ تجارب السابقين من اللاحقين توفير للجهد والوقت؛ وليس من العقل أن يترك المرء ما جرب وقُبِل، ويعيد التجربة، ليصل إلى ما وصل إليه الآخرون؛ والأكثر قبولاً أن يأخذ

---

(١) كتاب المعمرين: ٦٨.

(٢) كتاب المعمرين: ٢٧.

التجربة، ويزيد عليها، أو يشذب منها.

ونتيجة تجربةٍ مَا فيها الفائدة، وقد تكون الفائدة في إبراز ما يدعو للإعتبار، والحذر من السير في السبيل الذي مر به صاحب التجربة التعسة، فرجل دخل عرين الأسد، وانتهى الأمر بانتهاء حياته، خليق أن تؤخذ تجربته بعين الإعتبار، فلا يقدم غيره على تجربة مماثلة؛ والأمثلة في هذا لا تكاد تحصى؛ وما لدينا من حصيلة حضارات الأمم، مما هو ثابت ومقبول، يحيط بجميع أعمالنا تقريباً، فنحن نسير فيها معتبرين بنتائج تجربة غيرنا، فالطبخ حقل واسع فيه من نتائج تجارب الماضين ما لا يكاد يحد، وتفصيل الملابس مثله، وحقول الرياضة لها نصيبها الوافي من النتائج، التي لا تحتاج إلا إلى الاقتداء بها، وإتقانها بالتدريب والتمرين، لا بالفحص والاختبار.

وتقول إحدى الحكم التي يسوقها أكثم:

«أَشَدُّ القَوْمِ مَؤُونَةً أَشْرافُهُم». (١)

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٨.

الشرف زينة لمتقدم القوم، وبهاء ورونق، يمشي في ركابه الاحترام والتقدير، وتستظل بظله الهيبة والتقدير؛ صاحبه مرموق، وحامله باهي، لا يجهل وجوده أحد، مقامه ملء السمع والبصر؛ وشريف القوم حمله ثقيل، وهمه كبير، وإذا كان في الشرف بهاء وزينة، ففي تبعته ضناء وجهد؛ فالكفة إذاً إذا ثقلت من جانب، عادلها معادل من جهة ثانية، وإذا شالت كفة وَزَنَها ما في الكفة الأخرى.

وقد يجهل مسؤولية الشريف بعض من لا يتعمق بنظرته إلى الأمور، ولا يسبر غورها، ولا يقلب الفكر فيها، فيظن أنها ربح ولا خسارة، وغنم ولا غنم، ولا يعرف النار وحرها إلا من وطئ جمرها، واكتوى بلهبها؛ وأهم ما في هم الشرف أنه يخلي الجيب، وقد لا يكون له من الرفد ما يقويه؛ وهو يشغل الذهن، ويثقل النفس.

والمخدوم مراح، وصاحب الشرف خادم ساهر تعب، إن جاء ربح لم يزده شرفاً، وإن حدثت خسارة

حل به اللوم، إن قولاً، وإن نظرة شزرة؛ ينام الناس والساهر شرفاً عليهم لا يغمض له جفن، وإن أغمض فلأحلام ممضة، وتقلب لا يني ولا يستقر.

ولولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ هيأ جسم الإنسان وذهنه لما خلقا له، فيتعود كل إنسان ما يقدم عليه ويكرره، وأن الاعتياد يخفف بعض الحمل، لقتل الناس هم عملهم، ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ وضع في هذا الجسم ميزاناً يزن الأمور بما يضمن نجاح العمل إذا أعطي حقه من النية الحسنة، والجهد المبذول، وعدم التواني، والابتعاد عن التواكل، ومحاربة الكسل.

والناس فرادى همهم في حدود عملهم، وبقدر جهدهم ووقتهم وهمتهم، وهم لأنفسهم، ولأناس في حدود طاقتهم، أما أشراف القوم فعملهم متشعب وكثير؛ والانتقال بهم من شعْبة في التفكير إلى شعبة أخرى، فيه من الإجهاد والعنت ما فيه؛ يضاف إلى هذا ثقل العبء، وكثرة العمل؛ ووقت المخدوم

يكفيه لحياته في يومه، ووقت صاحب الشرف، الخادم لقومه، لو أمكنه استعارة وقت مع وقته لسعد بهذا واستفاد.

ومن حكم أكثم:

«الْخُرْقُ طَلَبُ القَلِيْلِ، وَإِضَاعَةُ الكَثِيْرِ». [1]

والخرق هو الغباء بعينه، أو هو أخوه، وهذا نوع واحد من أنواعه، وإلا فأنواعه كثيرة، يمر بها المرء في قراءته، وفي حياته، ويرى من الناس عجباً في تنكب الطريق السوي، واختيار الطريق المعوج، لغباء ليس له ما يبرره، وجنوح لا يسنده سند، ولا يقوم هو على عماد.

ومما يؤكد الإقدام على مثل هذا الْخُرْق غياب العقل، بسبب أو بآخر، فإما أن تكون خفة العقل طبيعة جبل الله صاحبها عليها، وأنه ولد وهو ناقص العقل، ضحل التفكير، أو أن غضباً هب بعاصفته على عقله، فحجب بغباره القصد السويّ، والطريق

---

(١) كتاب المعمرين: ٢٩.

المستقيم، فازْوَرَّ الغاضب يميناً أو يساراً، وجنح إلى ما فيه النفع القليل، والضرر الكبير؛ وأغلب قتل الأفراد في العراك من هذا النوع، وبهذا السبب.

وقد يكون الهوى والغرض هو الذي أحدث العمى للبصيرة، وأغشى البصر عن أن يرى الحق، وطريق الفائدة العظمى، والهوى يعمي ويصم؛ ويأتي من ذلك أخطار جسيمة، والعاطفة مصدر قوي أكيد للهوى، وطالما أودت بأصحابها، وأوردتهم موارد الهلاك، وأركستهم في حفر من الأذى، لا يجدون منجاة منها؛ والعاطفة إبزار في الحياة، فإذا زادت عن هذا أصبح ضررها أكثر من نفعها.

هذه بعض الحكم التي جاءت على لسان أكثم بن صيفي أو دريد ابن الصمة أو غيرهما، وهي قليل من كثير من الحِكَم، التي تُري صفاء الأذهان، وعمق الأفكار، وتغلغل حضارة النفوس في هذه الصحاري القاحلة، بين هذه البادية، رجالها ونسائها، وهم في معزل عن المدن، إلا ما جاء لماماً؛ وقد سبقوا بها من

كانوا في مدن وقرى، وهم اليوم في المقدمة فيما يخص الفكر؛ ولكن عند التمعن نجد أنه لا يزال في الفكر الحضاري العربي الإسلامي ما تبدو فيه البركة، خاصة ما يلمس الجانب الروحي، وصدى الدين الإسلامي.

ولعل أخذ قصة رجل واحد في الجاهلية، وموقعه من قومه، وما جرى بينه وبينهم، وما استطاع أن يخترق به الحجب الوثنية التي كانت سائدة حينئذٍ، وينفذ إلى ضياء التوحيد، مما وجد معه أن قومه لم يكونوا ناضجين نضجه، ولا مستعدين للتخلي عنه إلا بنبوة تظهر، وقد ظهرت النبوة، التي هدى إلى سبيل الحق فيها الرسول ﷺ.

والقَلَمَّسُ بن أمية بن عوف هو الرجل الذي أراد أن يرشد قومه إلى بعض ما وصل إليه فكره من تدبر وتبصر، فلما رفضوا جعل وصيته لهم في صورة حِكَم عددها عليهم بترتيب جميل، قد يوحي بأنه من تأليف مفكر فيما بعد، صاغها بذهنه الإسلامي.

يقال إن القَلَمَّسَ هذا عمر طويلاً، وهو من حكماء

العرب، وكان جده الحارث بن كنانة، وهو الذي يقوم بفناء البيت، ويخطب العرب، وكانت العرب لا تُصِدر حتى يخطبها، ويوصيها» .[1]

ولعل هذا هو السبب الذي جعله يتدبر في نفسه، وفيما حوله، ولعله بنى فكره على ما بقي من الحنفية في زمنه، وهذا ما قاله لقومه في إحدى خطبه لهم:

«يا معشر العرب أطيعوني ترشدوا.

قالوا: وما ذاك؟

قال: إنكم قوم قد تفردتم بآلهة شتى؛ وإني لأعلم ما الله بكل هذا راض، وإن كان ربَّ هذه الآلهة إنه ليحب أن يعبد وحده» .

«فنفرت العرب عنه ذلك العام، ولم يسمعوا له موعظة، فلما حج من قابل اجتمعوا له، وهم مُزْوَرُّوْن عنه. قال:

ما لكم أيها الناس، كأنكم تخشون مثل مقالتي عام أول؟! إني ـ والله ـ لو كان الله تعالى أمرني بما

---

(١) كتاب المعمرين: ١١٩ .

قلت لكم ما أعتبتكم، ولا استعتبت، ولكنه رأي مني؛ فإذا أبيتم فأنتم أبصر.

أوصيكم بخصلتين: الدين والحسب.

فأما الدين فلله، ومن أعطيتموه عهداً فوفوا له، ومن أعطاكم عهداً، فارعوا عهده حتى تردوه إليه.

فأما الحسب فبذل النوال». [1]

فلما حضرته الوفاة حضره أشراف قومه من كنانة، ومات بمكة، فقالوا:

قل نسمع! ومرنا نطع! وأوصنا نقبل! وزودنا منك زاداً نذكر لك به.

فقال:

○ أوصيكم بالأحساب:

أوصيكم بأحسابكم، فإنها مَقْدَم وافدكم، وشرفكم في محافلكم، وكفاف وجوهكم، وغِنى معدمكم.

---

(١) كتاب المعمرين: ١١٩.

○ أوصيكم بالسائل:

وأوصيكم بالسائل إن كان منكم أن يسأل غيركم، وإن كان من سواكم، وتيممكم، فلا تُخطُنّه ما رجا فيكم [تخطنه: تحملونه إلى الخطو إلى غيركم].

○ تواصوا بذوي الأسنان:

واستوصوا بذوي أسنانكم خيراً، أجملوا مخاطبتهم، قدموهم أمامكم، وزينوا بهم مجالسكم.

○ أوصيكم ببيوت الشرف:

وأوصيكم ببيوت الشرف فيكم، أقيموا لهم شرفهم، ولا تنزعوا الرئاسة منهم حتى لا تجدوا لها منهم أهلاً.

○ أوصيكم بالحرب:

وأوصيكم بالحرب: أن ظفرتم بقوم فأبقوا فيهم، فإنه حسب لكم، ويد عند عدوكم، فإن ظفرتم به فهو ظافر بكم لابد، وهو عامل فيكم بما عملتم به فيه؛ فلا تقتُلنّ أسيراً، فإنه ذَحَل [الذحل: الحقد

والثأر] عندكم، ومصيبة فيكم؛ وإنما هو مال من أموالكم، وإن الأسراء تجارة من تجارات العرب، فلا تسألُن أسيركم فوق ما عنده، فيموت في أيديكم، فلا يستأسر بعده أحد لكم.

○ وأوصيكم بالأسرى:

وأكثروا العتاقة في أسراء العرب، ودعوا العرب ترجوكم، وتستبقيكم.

○ وأوصيكم بالضيف:

وأوصيكم بالضيف، فإن كُلاًّ إذا قال لم يكد يسمع منه، حتى يقول الضّيف، فلا يخرج من عندكم وهو يستطيع أن يقول فيكم.

○ وأوصيكم بالجيران:

أوصيكم بالجيران فأكرموهم، ولا تغشوا منازلهم، وليصحبهم ذوو أسنانكم، وامنعوا فتيانكم صحابتهم.

○ وأوصيكم بالخفراء:

أوصيكم بالخفراء [طالب الحماية] خيراً، فلا

تغرّموهم في غرمكم، واغرموا في غرمهم، فإنهم عدة لكم، يعينونكم ماداموا فيكم، وينقصونكم إذا فارقوكم، ويعينون عليكم إذا خرجوا من عندكم.

○ أوصيكم بالأيامى:

وأوصيكم بالأيامي خيراً، شدوا حجبهن، وأنكحوهن أكفاءهن، وأيسروا الصداقة فيما بينكم، تنفق أياماكم، ويكثر نسلكم، فإذا نكحتم فاختاروا لكم ذواتَ العفاف، والحسانَ أخلاقاً، فإنكم لما يكون منهم أحمد من غيركم، وإنهن راؤون فيمن بقي من نسائكم مثل ما رأوا فيمن جاءهم منهن.

○ نكاح الغريبة:

وإذا نكحتم الغريبة ـ يعني المرأة من غيركم ـ فأَغْلوا صداقها، وتزوجوا في أشراف القوم، ثم أكرموا مثوى صاحبتهم ما كانت فيكم؛ ولا تحرموها ـ إذا انصرفت إلى قومها ـ مالها، واصرفوها على أحسن حالاتها، لا تنقصوها من شيء يكون لها؛ فإن كريمة القوم إذا رجعت إليهم، قليلاً متاعها، ظاهرة

حاجتها، غير راجعة فيكم غيرها.

○ أوصيكم بالصلة:

وأوصيكم بالصلة، فإنها تديم الألفة، وتسرّ الأسرة؛ وأحذركم القطيعة، فإنها تورث الضغينة، وتفرق الجماعة؛ وإياكم والعجلة، فإنها رأس السفه». [1]

هذه وصايا ثمينة، جمعت فأوعت، لم يترك فيها قائلها جانباً من جوانب المجتمع إلا وجاء فيه بما يضمن صلاحه، وبقاء الخير فيه.

وهذه الوصايا صورة شاهدة بحق على مدى ما وصلت إليه عقولهم، ومدى ما أنتجته أفكارهم، وما رمى إليه طموحهم؛ هذا هو المجتمع الذي أرادوه لأنفسهم، وهذا هو المحيط الذي ارتضوه لعيشهم؛ وما ذكر هنا يحدد الجوانب المهمة في نشاطهم في حياتهم.

---

(١) كتاب المعمرين: ١٢٠.

هذه حياة مضيئة بنور العقل، وسلامة التفكير، وفخرنا لا يقف عند التمعن فيها، ولكن في المقارنة بينها وبين مجتمعات مزامنة لها كانت ترسف في الهمجية، والسذاجة الفكرية، في حين كان آباؤنا يرفلون بحلل المدنية الحقة، والحضارة الباهرة.

***

المعمر فيه أثر من آثار الماضي، والناس شغوفون بالماضي، ومعرفة ما فيه، حب استطلاع، وربطاً لحاضرهم بماضيهم؛ ولعل رواج القصص عن الماضي كان بأسباب هذا الشغف؛ والقصاص وقد وجدوا هذا الإصغاء، ولمسوا هذا الاحتفاء، عمدوا إلى تزوير القصص عن الماضي، فجاؤا فيها بما يدهش، وغالوا في هذا حتى أنهم أوجدوا القصة الخرافية، وطوروها إلى الحد الذي يجعلها مرفوضة من العقل، فعوج بن عنق طوله المفرط يجعله يدخل يده في عمق البحر، ويخرج السمكة منه، ويرفعها إلى أعلى، فيشويها في الشمس، ولما مات اتخذوا من عظم ساقه جسراً، مدوه على نهر النيل، يعبرون عليه من الضفة اليمنى إلى الضفة اليسرى!

ومن يسأل المعمر يحرص على أن يسمع منه أخبار الماضي القريب الذي عاصره، وفي ذهنه أن يسأل عن آبائه وأجداده، ومن يشبه منهم في صورته وعمله؛

وهذه لذة داخلية يشبعها ما قد يقوله المعمر.

وقد يشعر المعمر عندما يسأله حاكم أن عليه أن يسر الحاكم بما يرويه، فيختار من الأخبار ما يتناسب مع ما في ذهن الحاكم مما يكمن خلف السؤال؛ ولا يُخيِّب أمل الحاكم إلا طبيعة المعمر التي تجعله زاهداً في الحياة، ولا يهمه كثيراً، في بعض الأحيان، سَرَّ الحاكم أو أحزنه، فهو يقول الحق؛ ولهذا تأتي إجاباته أحيانا جافة، خاصة إذا كان السؤال جاء صلفاً، والمعمر يشعر أنه قد أكمل عمره، ولن يخسر شيئاً من جراء غضب الحاكم، سواء كان خليفة أو عاملاً للخليفة.

وآفة ما يروى عن المعمرين كثرة الوضع على لسانهم، فهم مشجب قوي يعلق عليهم كثير مما يود الواضعون أن ينشروه، طلباً لتعميمه لطرافته، أو لأن فيه ما يعضد فكرة يؤمنون بها، ويرجون لها السيطرة والقبول؛ ولأجل زيادة التأثير يغالون في عمر المعمر إلى الحد الذي يجعله يبدو مستحيلاً.

ولعل لمجالس السمر في البادية أيام الجاهلية، وبعد أن جاء الإسلام، دخلا في إنعاش القصص التي توضع على ألسنة المعمرين؛ وبعد أن توضع تدرج من لسان إلى أذن، ومن أذن إلى لسان، وكل راوٍ يزيد فيها أو ينقص، أو يحرف، حتى تصبح مع الزمن مشوهة مرفوضة، إما كلاً أو في بعض جوانبها.

وقد يأتي الحوار مع معمر معقولاً مقبولاً فيما يلقى من سؤال، وما يأتي من جواب، إلا أن بعض هذه الأسئلة والأجوبة قد تنقل إلى معمر وهمي آخر، فيزاد في هذه، ويزاد في تلك، ويسقط سؤال وجوابه، ويؤتى بسؤال جديد ومعه جوابه المناسب، أو غير المناسب أحياناً.

وقد لوحظ في بعض المجالس التى حضرها هؤلاء المسنون، وحادثهم فيها الخلفاء، أو العمال، أو القواد، أنها أخذت طابع التلاعب بالألفاظ؛ وهذه ظاهرة غريبة، تتنافى مع ما يتوقع أن يكون عليه المعمر من النضج، ومراعاة الجد، والبعد عن الهزل

والسخرية؛ وتتنافى أيضاً مع وقار المجلس، وهيبة الحاكم؛ إلا أن واضع القصة ينسى هذا، ولا يذكر إلا غرضه الأساس، الذي قصد إليه قصداً، وكثيراً ما كان الهدف الطرافة والتسلية، مما يوحي بأن الأصل في القصة حكاية يؤتى بها للتسلية في السمر، أو في فراش الصبيان يناغون بها من أمهاتهم أو جداتهم أو مربياتهم حتى يناموا، وما على القاص إذا جاء بما يسر السامع، ويوصل إلى الهدف!؟

وقد يكون للقصة أساس، ولكن الزيادة أو التحريف يهدمها، ويبعدها عن القبول، ويصبح الناظر فيها مثل الذي نظر إلى زنبيل به تفاح، ورأى في أعلاها تفاحة فاسدة، فهو أقرب إلى أن يعتقد أن العطب قد عم ما تحتها أو أغلب ما تحتها، مما يجعل الزنبيل مرفوضاً بكامله.

ومن القصص التي سبق أن وردت في أحد أجزاء سلسلة «إطلالة على التراث»[1] ما روي عن خالد بن

---

(١) إطلالة على التراث، ٢/ ٤٨.

الوليد، ومقابلته لأحد المعمرين، وقد نوقش في ذلك المقال في الإطلالة مدى صحة الخبر، والأسس التي يمكن أن يرفض عليها، والقصة كمايلي:

لما حاصر خالد بن الوليد أهل الحيرة قال:

ابعثوا رجلاً من عقلائكم.

فبعثوا عبدالمسيح بن عمرو (ابن بقيلة الغساني، معمر من الدهاة، له شعر وأخبار، يقال إنه باني قصر الحيرة، عاش في الجاهلية والإسلام، وظل على النصرانية).

وكان نصرانياً، فجاء، فقال لخالد:

أنعم صباحاً أيها الملك.

فقال: قد أغنانا الله عن تحيتك هذه، فمن أين أقصى أثرك، أيها الشيخ؟

قال: من ظهر أبي.

قال: فمن أين خرجت؟

قال: من بطن أمي.

قال: فعلام أنت؟

قال: على الأرض.

قال: ففيم أنت؟

قال: في ثيابي.

قال: أتعقل؟

قال: أي والله وأقيد.

قال: ابن كم أنت؟

قال: ابن رجل واحد.

قال خالد: ما رأيتِ كاليوم، أسألك الشيء، وتنحو غيره!

فقال: ما أنبأتك إلا عما سألتني». [1]

يدحض هذه القصة عدة أمور أولها أن خالداً طلب أعقل الناس، ولايبدو أن هذا أعقلهم، لو صح أن هذا هو في الحقيقة ما جرى، فلقد قلب مجلس الحكم إلى مهزلة، وثانيها أن خالداً عندما رأى بدء كلامه كان المتوقع أن يرده إلى عقله، ليسلك طريق الجد لا الهزل، وثالثها أن المتوقع أن يهديه خالد إلى

---

(١) أخبار الظراف: ٩٨.

الطريق الصحيح في التحية وردها، لا أن ينهره، ورابعها مؤلف القصة لم يخبرنا عما تم في نهاية الأمر، وماذا جاء من المفاوضة عن تسليم الحيرة سلماً؛ لقد نسي الهدف الأساس في عجاج معركة الجدل الملفق، وغبار الركض بالقصة في السبيل الذي ارتضاه القاص.

وسنجد أن هذه القصة، أو غيرها، أصبحت أساساً لقصص مماثلة تروى مع أناس آخرين مثل القصة الآتية، وهذه أيضاً وردت في «إطلالة على التراث»[1] ونوقشت هناك:

«قال المبرد:

قال رجل لهشام بن عمر الغوطي: كم تعد؟

قال: من واحد إلى ألف ألف.

قال لم أرد هذا.

قال: فما أردت؟

قال: كم تعد من السن؟

(١) إطلالة على التراث، ٢/ ٥٤.

قال: اثنان وثلاثون: ستة عشر من أعلى، وستة عشر من أسفل.

قال: لم أرد هذا.

قال: فما أردت؟

قال: كم لك من السنين؟

قال: ما لي منها شيء، كلها لله ـ عز وجل ـ.

قال: فما سنك؟

قال: عظم.

قال: فابن كم أنت؟

قال: ابن اثنين، أب وأم.

قال: فكم أتى عليك؟

قال: لو أتى علي شيء لقتلني.

قال: فكيف أقول؟

قال: قل كم مضى من عمرك؟». [1]

هذه بلا شك رياضة عقل ولغة، أجاد الكاتب الذي حبرها، وأحسن في سبكها طريقة ممتعة، ولكن

(١) أخبار الظراف: ٥٥.

الحقيقة بريئة منها؛ والقاص لم يتنبه إلى أنه أظهر أن المسؤول كان يعرف القصد من أول سؤال، بدليل أنه دل السائل عن الطريق الصحيح للسؤال عن السن.

والملاحظة الثانية تنصب على وقوفه عند السؤال عن السن، وكأن الكاتب، أو الأديب، الذي زور القصة، لم يعجبه في قصة خالد مع عبدالمسيح المرور مر الكلام على سؤال السن، مع أن فيه مجالاً للمحاورة أثبت فيما جاء به صحة رأيه، وأن هناك بحراً من الأسئلة عن السن، كان يمكن أن يستمر فيها، لولا أن السائل استعان بالمسؤول، فأوقف هذا السيل المنهمر، والشلال الدافق.

وممن قيل إنه معمر عبيد بن شرية الجرهمي، ويقال إنه أدرك زمن معاوية، وأن معاوية حاوره، والقصة قد يكون لها أصل، إلا أنه قد دخلها بعض التحوير، وغالباً ما يكون سهواً من الراوي، أو عدم إتقان لضبط الحوار، فجاء فيه ما لا يتلاءم مع معاوية، في استجلابه للقلوب، وأدبه في الخطاب،

والقصة كمايلي :

«قالوا إن معاوية أتي برجل من جرهم .

قال : ما أسكنك هذه البلدة؟

قال : خرج قومي من مكة ، وتفرقوا في البلاد ، فخرج أبي نحو الشام ، فلم أزل بها .

قال : كم أتى عليك؟

قال : أربعون ومئتا سنة .

قال : فممن أنت؟

قال : من جرهم .

قال : كذبت ، لست منهم .

قال : فكيف تسألني إذن؟ !

قال : : كم أتى عليك من الزمان؟

قال : كالذي أتى عليك ؛ فظن معاوية أنه يعني هلكه .

قال : كذبت .

قال : فكيف رأيت الدهر؟

قال : سنيّات بلاء ، وسنيات رخاء ، ويوم شبيه

بيوم، وليلة شبيهة بليلة، يهلك والد، ويخلف مولود، فلولا الهالك لامتلأت الدنيا، ولولا المولود لم يبق أحد.

قال: فهل رأيت أمية؟

قال: نعم، يقوده ذكوان عبده.

قال: كُفّ، فقد جاء غيرُ ما ذكرت.

قال: فأي المال أفضل؟

قال: عين خرارة، في أرض خوارة.

قال: ثم ماذا؟

قال: فرس، في بطنها فرس، يتبعها فرس، قد ارتبطت منها فرساً.

قال: ثم ماذا؟

قال: عدة أيام السنة ضأنا، أضمن لصاحبها الغنى». [1]

هذه القصة، إن صحت، تكشف حرص معاوية، وهو خليفة المسلمين، على معرفة عمق الماضي،

---

(١) كتاب المعمرين: ١٦.

وما كانت الصورة عليه فيه، وهي ثقافة يحتاجها الحاكم، ولا غنى له عنها، ففي عِبرَ الماضي، وتجارب السابقين، زبدة من الفوائد، تنفعه في حكمه عندما يعرض عليه مُدْلَهِمٌّ من الأمور، وفي التاريخ حلول مزجاة، لأن «كل الصيد في جوف الفرا».

ولكن معاوية سرعان ما حول الحوار إلى جده أمية، ودل في تكذيبه الرجل، إن صح هذا، على أنه متابع لهذا الأمر، وسبق أن وصل إلى معلومات، قارنها بما قال الرجل، ورفضها لاختلافها في بعض جوانبها، ويبدو أن تاريخ عائلة معاوية من الأهمية بمكان، يؤكده ما سيأتي في قصة أخرى مماثلة، وقد تكون هي الأساس لهذه القصة.

ويلفت النظر خشونة معاوية مع هذا المعمر، وتكذيبه له بطريقة قاسية، لا تتماشى مع ما عرف عن معاوية ـ رضي الله عنه ـ من اللين، والبشاشة، وحسن الاستقبال؛ واستجلاب قلوب الناس، وكلمة «كذبت» كلمة نابية، ينتقد قائلها لو كان

من عرض الناس، فما بالك معاوية.

ثم ما هو الأساس الذي كذب معاوية عليه الرجل، وما الذي يمنع أن يكون من سلالة جرهم؛ إذا كان معاوية يبحث عن شيء يكذبه به فسِنّه، أما إذا كان قَبِل منه هذه السن، فأولى به أن يقبل منه أنه من جرهم، فتصديق هذا أقرب من قبول هذا السن الطويلة. وفي التكذيبة الثانية نُبُوٌّ ورَكاكة، تتناسب مع الجواب الذي أوجبها، وهو غير واضح، إذ أن «الذي أتى عليك» لا تدل على شيء، ولا ما أوجب اعتراض معاوية عليها.

ثم هل يحتاج معاوية أن يعرف من هذا الرجل المعمر أي الأموال أثمن، ولا نتصور أنه يَخْفى على معاوية، أن لكل زمان أمواله الرائجة، ولكل أرض أموالها المفضلة، وهي تختلف من أرض إلى أرض؛ ثم اصرار معاوية على المزيد من معرفة المال المفضل، مما أوحى بأنه سوف يستمر في السؤال، ولكنه فجأة يتوقف!

كانت هذه الاعتراضات تدور في ذهني بعد أن قرأت هذه القصة في أول «كتاب المعمرين من العرب، للسجستاني»، وقد تأكدت من وجاهتها عندما وصلت نهاية الكتاب تقريباً، إذ وجدت قصة مماثلة قد تكون هي الأصل لهذه، وهي الأساس الذي جاءت منه هذه القصة، التي دخلها التحريف، مما أوجب الاضطراب فيها.

والقصة التي عثرت عليها في آخر الكتاب تقول:

«قال أبو عامر، رجل من أهل المدينة، عن رجل من أهل البصرة، قال أبو حاتم: وحدث به الجنيد الضرير عن أشياخه، قال: قال معاوية:

إني لأحب أن ألقى رجلاً، قد أتت عليه سن، وقد رأى الناس، يخبرنا عما رأى.

فقال بعض جلسائه: ذاك رجل بحضرموت، فأرسل إليه.

فأتى به فقال له: ما اسمك؟

قال: أمد.

قال ابن من؟

قال: ابن أبد.

قال: ما أتى عليك من السن؟

قال ستون وثلاث مئة سنة.

قال: كذبت.

قال ثم إن معاوية تشاغل عنه، ثم أقبل عليه، فقال:

ما أسمك؟

قال أمد.

قال؛ ابن من؟

قال: ابن أبد.

قال كم أتى عليك من السن؟

قال: : ثلاث مئة وستون سنة.

قال: فأخبرنا عما رأيت من الأزمان، أين زماننا هذا من ذلك؟

قال: وكيف تسأل من تكذب؟!

قال: إني ما كذبتك، ولكني أحببت أن أعلم

كيف عقلك .

قال : يوم شبيه بيوم ، وليلة شبيهة بليلة ، يموت ميت ، ويولد مولود ، فلولا من يموت لم تسعهم الأرض ، ولولا من يولد لم يبق أحد على وجه الأرض .

قال : فأخبرني ، هل رأيت هاشماً؟

قال : نعم ، رأيته طوالاً ، حسن الوجه ؛ إن بين عينيه بركة ، أو غرة بركة .

قال : فهل رأيت أمية؟

قال : نعم ، رأيته رجلاً قصيراً أعمى ، يقال إن في وجهه لشرّاً ، أو شؤماً .

قال : أفرأيت محمداً ﷺ؟

قال : ومن محمد؟

قال : رسول الله ﷺ .

قال : ويحك! أفلا فخّمته ، كما فخمه الله ـ تعالى؟! فقلت : رسول الله ﷺ .

قال : فأخبرني ، ما كانت صناعتك؟

قال : كنت رجلاً تاجراً .

قال: فما بلغت تجارتك؟

قال: كنت لا أشتري[1] عيباً، ولا أرد ربحاً.

قال مُعاوية: سلني؟

قال: أسألك أن تدخلني الجنة!

قال: ليس ذلك بيدي، ولا أقدر عليه!

قال: فأسألك أن ترد عليّ شبابي!

قال: ليس ذلك بيدي، ولا أقدر عليه.

قال: لا أرى بيدك شيئاً من أمر الدنيا، ولا من أمر الآخرة، فردني من حيث جئت بي.

قال معاوية: أما هذه فنعم.

قال: ثم أقبل معاوية على أصحابه، فقال:

لقد أصبح هذا زاهداً فيما أنتم فيه راغبون». [2]

يحتار الإنسان عندما يوازن بين النصين، أيهما الأصل، وأيهما الفرع، وإلى أي مدى كان النحل فيهما، وهل هما منحولان أصلًا، أو أن الشك فيهما جاء مما أضيف إليهما أو حذف.

---

(١) لعلها: لا أستر.

(٢) كتاب المعمرين: ١١٩.

فإن قيل أن الأولى هي الأصل، فاختلاف الثانية جاء لتعديل ما كان معوجاً هناك، فالتكذيب في الثانية جاء مرة واحدة، ولكنه جاء في محله، إذ شكك معاوية في ارتفاع مدة العمر، ونحن معه في هذا؛ ونزيد على شك معاوية في اسم «أمد» و «أبد»، وهي من أسماء الزمان. وعندما يولد الإنسان لا يتوقع له أن يعمر هذا العمر، حتى ولو عمر أبوه، ولكن خيال القاص، الذي أراد أن يكون العجب متكاملاً.

والقاص أخر اعتراض المسؤول على عودة معاوية للسؤال، وكان المفروض أن يأتي الاعتراض عندما استأنف معاوية سؤاله عن اسمه، ولكن التكلف يخون صاحبه، ويظهر ما أُبطن من الأمور، وبرع القاص في أن يعطي العذر لمعاوية في أن يوقف التساؤل، ثم يعود إليه، فمعاوية يريد أن يمتحن عقل هذا المعمر، فيعرف هل هو ثابت، أو يتأرجح بين الحضور والغياب، كما هي عادة كبار السن.

وناحية نفسية قد نستخلصها من عمل معاوية ـ لو كانت القصة صحيحة ـ وهي أن مجلس الخليفة، والهيبة المسيطرة على المقام، قد يكون لهما تأثير على هذا المعمر، فأراد معاوية أن يطمئنه بعد أن كشف له أنواع الأسئلة التي في جعبة معاوية.

وجواب الرجل في هذه القصة عن سؤال معاوية عن الزمان يماثل الجواب في القصة الأولى، مما يدل على أن من أخذ من الآخر مقتنع بأن هذا الجزء مجز، ولا يحتاج إلى تغيير جذري، ترى هل هذا التعبير كان على ألسنة الناس في ذلك الزمن الذي دونت فيه القصة، فاستفاد منه مدونها!

وفي هذه القصة سأل معاوية عن هاشم، ويُخشى أن هذا الجزء أدخل من قبل القاص، وفيه مدح هاشم بحسن الوجه، لذم أمية بأنه أعمى وقصير، خاصة وأن معاوية لم يعترض على مدح هذا ولا ذم ذاك، مما يدل على أن الهدف هو وضع هاتين الصفتين لهذين الجدين؛ وهذا لا يستبعد لأن في الأمر إعلاء

للهاشميين والعباسيين ولمز للأمويين، وهنا يأتي التساؤل هل هذه الإضافة، وهذا التغيير حدث في زمن العباسيين، أو بعدهم؟! وإذا كان أمية في القصة الأولى أعمى يقوده عبده ذكوان، فقد لا يكون في هذه منقصة، فقد يكون كفّ بصره بعد أن كبر، بل إن في ذكر قيادة عبده ذكوان له مدح، لأن فيه إشارة إلى الإيسار، والإيسار مظهر للسؤدد، وعلامة للثراء.

أما في القصة الثانية فقُصدت الإهانة والتجريح، لأن بجانب العمى أضيف إلى أنه يقال إن في وجهه لشراً أو شؤماً، وهنا ترجح كفة إضافة هذه الجملة في زمن لاحق، من العباسيين، أعداء الأمويين، أو من غيرهم من الشعوبيين، الذين وجدوا في عصر العباسيين متنفساً لحقدهم على العرب، الذين يمثلهم الأمويون خير تمثيل.

ثم يصيد القاص سانحة مرت بذهنه، فيُحمل معاوية إثم عدم تبجيل الرسول ﷺ، وعدم تفخيم اسمه، ويأتي التنبيه للصحابي من غير الصحابي،

ونسي القاص أن كثيراً من المسلمين في صلاتهم يقولون: اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد، دون تفخيم، ولم يُقل إن في هذا إنقاص لحقه ﷺ، أو قلة أدب معه؛ ولكن الكاتب مادام مسك القلم ليضع شيئاً، فهو لن يضعه حتى يعطيه حقه من الجهد.

ونلمس في الحديث عن التجارة جملة سبق أن مرت بنا في الحديث عن التجارة[1] قالها أحد الصحابة، الذين ربحت تجارتهم، ونمت ثروتهم، فلما سُئِل هذا الصحابي عن أسباب هذا النمو، وهذا الازدهار، ردّ بأنه لم يشتر عيباً، ولم يرد ربحاً:

«قيل للزبير ـ رحمه الله ـ: بم بلغت هذا المقال؟
قال: إني لم أرد ربحاً، ولم أشتر عيباً».[2]

هل يا ترى هذه قاعدة حكيمة، كان يسير عليها التجار، فمن أراد الربح تمسك بها، أو أن هذا المعمر هو أول من قال بها، وأخذها الزبير منه، أو وضعت

---

(١) إطلالة على التراث، ٧/ ٤٠٥.
(٢) بهجة المجالس: ١/ ١٣٤، وعيون الأخبار: ١/ ٣٥٩.

علس لسانه؛ أو أن الزبير هو أول من قالها، ومن ساق قصة المعمر استفاد منها!

أما ما جاء من طلب المعمر أن يدخله الجنة، أو يرد شبابه، ففكرة أديب أراد أن يختم بها الحديث، إذ لم يكن من المتوقع أن يختمه بمثل هذا، لأن هناك، مما يهم الناس، بله الخلفاء، شيئاً كثيراً مما في حياة الناس في الماضي؛ ومن بين هذه الأمور الوقائع الحربية بين ملوك ذلك الزمن، وبين القبائل بعضها مع بعض، وسيرة فرسان العرب، وما مرّ ببلادهم من قحط وخصب، وما مر بالرجل من طرائف، وفي هذه من الجاذبية ما جعلها همّ صحافي اليوم عندما يستجوبون شخصاً معمراً، أو شبه معمر، كأن يكون متقاعداً.

وعادة الحكام إذا رأوا المعمر أن يسألوه عن النساء، وعن عدد من تزوج منهن، وحياته معهن؛ والحاكم عندما يسأل عن هذا الجانب يستنبط الطرائف، والمواقف المسلية، مثل تسلط المرأة على زوجها، أو

حيله معها، ولم نر من ذلك شيئاً.

ومن الملاحظ على ما ورد في التراث أن كتاب العرب حريصون على وضع قصص على ألسنة الخلفاء، تعادل تلك الموضوعة على لسان ملوك الأعاجم، خاصة الفرس، والفرس مثلهم في وضع قصص على لسان ملوكهم، تعادل تلك التي تشتهر على لسان خلفاء العرب، والأمثلة على ذلك كثيرة، وبعضها لا يأتي الغرض فيها مكشوفاً واضحاً، وأنه لهذا الهدف، ولكن الفكرة العامة، وطريقة السؤال والجواب، توحي بهذا، ومن هذه الأمثلة القصة الآتية:

«حكي في سيرة أحد الأكاسرة أن بعض ملوكهم مر بغلام يسوق حماراً غير منبعث، وهو يعنف عليه بالسوق.

فقال: يا غلام، إرفق به!

فقال: أيها الملك في الرفق به مضرة عليه، وفي العنف به إحسان إليه.

قال: وما في الرفق به من المضرة؟

قال: يطول طريقه، ويشتد جوعه.

قال: وما في العنف من الإحسان؟

قال: يخف حمله، ويطول أكله.

فأعجب الملك بكلامه.

قال: قد أمرت لك بألف درهم.

قال: رزق مقدور، وواهب مأجور.

قال: وقد أمرت بإثبات اسمك في حشمي.

قال: كفيت مؤونة، ورزقت معونة.

قال: ولولا أنك حدث السن لاستوزرتك.

قال: لن يعدم الفضل من رزق العدل.

قال: فهل تصلح لذلك؟

قال: إنما يكون الحمد والذم بعد التجربة، ولا يعرف الإنسان نفسه حتى يبلوها.

فاستوزره، فوجده ذا رأي صليب، وفهم رحيب، ومشورة تقع مواقع التوفيق». [1]

لاشك أن واضع هذه القصة حبرها، ووضع فيها

(١) تسهيل النظر: ١٩٩.

مقدرته الفنية، لتأتي بهذا التماسك في الحوار بين ملك وغلام، في وقت كان أغلب من استوزر للخلفاء في زمن العباسيين من الفرس.

وهناك قصة أخرى تظهر جدلاً بين حاكم عربي، ورجل له خبرة، وأراد الحاكم أن يزيد علمه من هذه الخبرة، فكان له ما أراد، وجاء هذا في محادثة قامت بين الحجاج وأحد المزارعين، وهي مايلي:

«خرج الحجاج إلى القاوسان، فإذا أعرابي في زرع، فقال له:

ممن أنت؟

فقال: من أهل عمان.

قال: فمن أي القبائل؟

قال: من الأزد.

قال: وكيف علمك بالزرع؟

قال: إني لأعلم من ذلك علماً.

قال: فأي الزرع خير؟

قال: ما غلظ قصبه، واعتم نبته، وعظمت

حبته، وطالت سنبلته.

قال: فأي العنب خير؟

قال: ما غلظ عموده، واخضر عوده، وعظم عنقوده.

قال: فما خير التمر؟

قال: ما غلظ لحاؤه، ودقّ نواه، ورق سحاه». [1]

ولا يخدش صحة هذا الحوار إلا السجع المتكلف فيه، مما يوحي بأن هناك جهداً أدبياً قد بذل، لإخراج هذا الحوار بهذه الصفة.

ونعود إلى ما كان يجب أن يسأل عنه معاوية، لو كانت المجادلة التي بينه وبين المعمر، وقعت حقيقة، وأن الأديب الذي ساقها لم يكن يهمه إلا الجدل الذي في أولها عن السن، والمغالطات اللفظية التي ساقها، وفي جعبة المعمرين كثير مما يهم السائل أن يعرف عنه، وفي مقدمته موت القديم، وولادة الجديد من المدن والقرى والقصور، وقيام الدول، وسقوطها،

(١) البيان والتبيين: ٢/ ١٤٦.

وفي شعر أحد المعمرين مثل على ذلك، وهو عبدالمسيح ابن عمرو بن قيس، ويقال إنه أدرك الإسلام ولم يسلم، وكان منزله الحيرة، يقول:

لَقَــدْ بَنَيْــتُ لِلْحَـدَثَــانِ بَيْتــاً
لـوَ انّ المَـرْءَ تَنْفَعُـهُ الحُصُـونُ
رَفِيْعَ الـرَّأْسِ أَحْـوَى مشمَخِـرّاً
لأَنْــوَاعِ الــرِّيَــاحِ بِــهِ حَنِيْــنُ

وقال، يذكر من معه من ملوك قومه الذين مضوا:

أَبَعْـدَ المُنْـذِرَيْـنِ أَرَى سَـوَامـاً
تـرَوَّحُ بِـالخَـوَرْنَـقِ وَالسَّـدِيْـرِ
تَحَـامَـاهُ فَـوَارِسُ كُـلِّ حَـيٍّ
مخَافَـةَ أَغْضَـفٍ عَـالِي الـزَّئِيرِ
وَبَعْـدَ فَـوَارِسِ النَّعْمَـانِ أَرْعَـى
رِيَــاضـاً بَيْــنَ مُـرَّةَ والحَفِيْـرِ
وِصِرْنَا بَعْدَ هُلْكِ أَبِي قُبَيْسٍ
كجُـرْبِ الشَّـاءِ فِي يَـوْمٍ مَطِيْـرِ

تَقَسَّمَنـا القَبَـائِـلِ مِـنْ مَعَـدٍّ
عـلاَنِيَـةً كَـأَيْسَـارِ الجَـزُوْرِ
وَكُنَّـا لاَ يُـرَامُ لَنَـا حَـرِيْـمٌ
فَنَحْنُ كَضَـرَّةِ الضَّـرْعِ الفَخُـورِ
نُؤَدِّي الخَرْجَ بَعْدَ خَرَاجِ بُصْرَي
وخَـرَاجِ بَنِـيْ قُـرَيْظَـةَ وَالنَّضِيْـرِ
كَـذَاكَ الـدَّهْـرُ دَوْلَتُـهُ سِجَـالٌ
فَيَـوْمٌ مِـنْ مَسَـاةٍ أَوْ سُـرُورِ»[1]

في هذه الأبيات صور واضحة للتحول الذي رآه هذا المعمر في حياته الطويلة، ولاشك أن قص تفصيل هذا التحول كان سيشد انتباه معاوية لو قيل أمامه، وسيبعث أسئلة أخرى في نفسه، توحيها التفاصيل، التي سوف تترى عندما يجر طرف حبل الذكريات.

وكما قلنا، حديث المعمر عن النساء قريب إلى أذهان سائليهم، وأذهان محادثيهم، ولعل الحرمان عند الشيوخ يكمن خلف حب الحديث عنهن، وقد

(١) كتاب المعمرين: ٥٦.

يقول أحدهم عنهن أكثر من الحقيقة، ترقيعاً لضعفه في كبره، وقد يقوله إغاظة للشباب، الذين يلمزونه في هذا المجال، فيأتي بفخر مفتعل، في هذا الصدد، وفي جوانب القوة الأخرى مثل الفروسية والكرم، ولعله بهذا يُخْجِل مَنْ وَاقِعُهم اليوم يقصر عما يدعي أنه قادر عليه في شبابه، ومن الأمثلة لأحد المعمرين، وقد سئل سؤالاً، حرص أن يكون في جوابه ذكر المرأة، مرة مدحاً لها، ومرة ذمًّا لها، والقصة كمايلي:

«قال (شريه بن عبدالجُعفي)، في زمن عمر بن الخطاب، وهو بالمدينة، لقد رأيت هذا الوادي الذي أنتم به، وما به قطرة، ولا قصبة، ولا شجرة مما ترون؛ وأدركت أخريات قومي يشهدون مثل شهادتكم، يعني قول: «لا إله إلا الله»، ومعه ابن له يهادي به في شجار قد خرف، فقيل له:

يا شريه ما بال ابنك قد خرف، وبك بقية؟

قال: أما والله ما تزوجت أمه حتى أتت علي سبعون سنة، وتزوجتها ستيرة عفيفة، إن رضيتُ رأيتُ

ما تقر به عيني، وإن سخطتُ تأتتْ لي حتى أرضى، وإن ابني هذا تزوج امرأة فاحشة بذية، إن رأى ما تقرّ به عينه تعرضت له حتى يسخط، وإن سخط تَلَغَّبته (أتعبته بكلامها الفاسد وحمقها) حتى يهلك». [1]

ودون أن نبعد كثيراً عن محادثة الحكام للمعمرين نسوق حديثاً جرى بين معاوية وعبيد بن شريه الجرهمي، ويُظن أنه أدرك الإسلام، والحديث كمايلي:

«قدم (عبيد) على معاوية بن أبي سفيان، فبلغنا أن معاوية قال له:

أخبرني كم أتى عليك؟

قال: مئتان وعشرون سنة.

قال: ومن أين علمت؟

قال: من كتاب الله.

قال: ومن أي كتاب الله؟

قال: من قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً

(١) كتاب المعمرين: ٥٨.

﴿لِتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] .

فقال له معاوية : وما أدركت؟

فقال : أدركت يوماً في إثر يوم ، وليلة في إثر ليلة ، متشابهاً كتشابه الحَذَفِ (طائر ، أو غنم)، يحدوان بقوم في ديار قوم ، يكذبون ما يبيد عنهم ، ولا يعتبرون بما مضى منهم؛ ؛ حيهم يتلف ، ومولودهم يخلف ، في دهر قد تصرف؛ أيامه تقَلَّبُ بأهلها كتقلبها في دهرها ، بينا أخوه في الرخاء إذْ صار في البلاء ، وبينا هو في الزيادة أدركه النقصان ، وبينا هو حر إذ أصبح قنّا ، لا يدوم على حال ، ولا تدوم له حال؛ بين مسرور بمولود ، ومحزون بمفقود ، فلولا أن الحيّ يتلف لم يسعهم بلد ، ولولا أن المولود يخلف لم يبق أحد .

قال معاوية : يا عبيد ، أخبرني عن المال أيّه أحسن في عينيك؟

قال : أحسن المال في عيني ، وأنفعه غناءًا ، وأقله عناءاً ، وأبعده من الآفة ، وأجداه على العامة ، عين

---

(١) سورة الإسراء ، الآية : ١٢ .

خرارة، في أرض خوارة، إذا استودِعَت أدت، وإن استحلبتَها درت، فأفعمت، تعول، ولا تعال.

قال معاوية: ثم ماذا؟

قال: فرس في بطنها فرس، تتبعها فرس، قد ارتبطت منها فرساً.

قال معاوية: فأي النعم أحب إليك؟

قال: النعم لغيرك يا أمير المؤمنين[1]، قال: لمن فلاها بيده، وباشرها بنفسه.

قال معاوية: حدثني عن الذهب والفضة؟

قال: حجران، إن أخرجتهما نَفِدا، وإن خزنتهما لم يزيدا.

قال معاوية: أخبرني عن قيامك وقعودك، وأكلك وشربك، ونومك، وشهوتك للباءة؟

قال: أما قيامي، فإن قمت فالسماء تبعد، وإن قعدت فالأرض تقرب؛ وأما أكلي وشربي، فإني إن جعت كَلِبْتُ، وإن شبعت بُهِرت؛ وأما نومي، فإن

(١) لعل هنا سقطا تقديره «قال معاوية: لمن؟».

حضرت مجلساً حالفني، وإن خلوت أطلبه فارقني؛ وأما الباءة، فإن بُذِلتْ لي عجزت، وإن منعت غضبت.

قال معاوية: فأخبرني عن أعجب شيء رأيته؟

قال: أعجب شيء رأيته، أني نزلت بحي من قضاعة، فخرجوا بجنازة رجل من عذرة، يقال له: حريث بن جبلة، فخرجت معهم، حتى إذا واروه انتبذت جانباً عن القوم، وعيناي تذرفان، ثم تمثلت شعراً كنت رويته قبل ذلك:

يَا قَلْبُ إِنَّكَ فِيْ أَسْمَاءَ مَغْرُوْرُ
أُذْكُرْ وَهَلْ يَنْفَعُكَ اليَوْمُ تَذْكِيْرُ
قَدْ بُحْتَ فِي الحُبِّ مَا تُخْفِيْهِ مِنْ أَحَدٍ
حَتَّى جَرَتْ بِكَ أَطْلاَقاً مَحَاضِيْرُ
تَبْغِي أُمُوْراً فَمَا تَدْرِيْ: أَعَاجِلُهَا
خيْرٌ لِنَفْسِكَ أَمْ مَا فِيْهِ تَأْخِيْرُ؟
فَاسْتَقْدِرِ اللهَ خَيْراً وَارْضَيَنَّ بِهِ
فَبَيْنَمَا العُسْرُ إِذْ دَارَتْ مَيَاسِيْرُ

وَبَيْنَمَا المَرْءُ فِي الأَحْيَاءِ مُغْتَبِطاً
إِذْ صَارَ فِيْ الرَّمْسِ تَعْفُوهُ الأَعَاصِيْرُ
حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ إِلاّ تَذَكُّرُهُ
والـدَّهْـرُ أَيَّمَـا حَـالٍ دَهَـارِيْـرُ
يَبْكِي الغَرِيْبُ عَلَيْهِ لَيْسَ يَعْرِفُهُ
وذُو قَـرَابَتِـهِ فِـيْ الْحَـيِّ مَسْـرُوْرُ
وَذَاكَ آخِرُ عَهْدٍ مِنْ أَخِيْكَ إِذَا
ما الْمَرْءُ ضَمَّنَهُ اللَّحْدَ الخَنَاسِيْرُ

(الخناسير: جمع خنسير، مشيعوا الجنازة).

فقال رجل إلى جانبي ـ يسمع ما أقول: يا عبدالله: من قال هذه الأبيات؟

قلت: والذي أحلف به ما أدري، إلا أني قد رويتها من زمان.

قال: قائلها الذي دفناه آنفاً، وإن هذا ذو قرابته أسرّ الناس بموته، وإنك للغريب الذي وصف، تبكي عليه.

فعجبت لما ذكره في شعره، والذي صار إليه من قوله، كأنه كان ينظر إلى موضع قبره.

فقلت: إن البلاء موكل بالمنطق». [1]

في ضوء الصورتين السابقتين التي قيل إن معاوية جلس فيهما يستجوب المعَمّرين، تبدو لنا ملاحظات عند مقارنة هذه القصة بتلك القصتين، فقد قويت بعض الجوانب، التي كانت ضعيفة هناك، وسُدت بعض الثغرات التي أوجبت النقد والملاحظة، وزيدت بعض المعلومات التي أوفت الأمر حقه، وقربت الأمر من الواقع، وإذا كان هناك خلل فقد يكون من الرواة، سواء كان هذا المجلس قد عقده معاوية، أو هو من نتاج فكر أديب، تمعن في النصوص السابقة، فأجرى قلمه بحذف، وأكمل الناقص، وستر العيب، وقرب الصورة للقبول.

عبيد فهم من أول الأمر قصد معاوية من قوله: كم أتى عليك، فرد بما كان عليه عمره حينئذٍ،

---

(١) كتاب المعمرين: ٥٩.

خلافاً لما ورد به محدث هشام بن عمر الغوطي، الذي أجاب بأنه لو أتى عليه شيء لقتله.

وعلم عبيد ومصدره، وهو القرآن، لائق برجل يتحدث وهو مسلم، وقد يكون أراد الأجر في هجر علم الجاهلية، والاكتفاء بنور علم الإسلام، خصوصاً وأن في الآية ما يشير إلى تعاقب الليل والنهار، وطبيعة كل منهما، وقد مر عليه منهما كثير.

وقد فصل عبيد ما أدرك، فجاء بما جاء به الأولون، وزاد عليه ما يتطلع إليه السائل من أن الأول يشبه الآخر، وما في طبيعة الناس في كل زمن، من تفاوت في الرخاء والشدة، والسرور والحزن، وتقلب الأحوال بالناس، فالغني يفقر، والفقير يغتني؛ فلما انتهى عبيد من القول العام، وقد وفاه حقه، بدأ معاوية يسأل أسئلة محدودة، شعر بأهميتها، وسهل على عبيد الأمر، فسأل عن المال، وهو مهم في حياة الناس، فأجاب بما لا يختلف كثيراً عن إجابات المعمرين في القصص السابقة، ولم يكتف معاوية بالرد، لأنه

شعر أنه ناقص، فطلب الزيادة في الإجابة، فرد عبيد بما أضافه لما سبق.

ورأى معاوية أن عبيد ترك من المال ما هو مهم، فسأله عنه، وهذا أقرب إلى القبول من القصتين السابقتين، اللتين في إحداهما، على الأقل، كانت الإجابة إضافة لم تطلب، فجاءت كأنها استطراد أو تدارك؛ وقد يكون عبيد تركها لأنها لم تعد تهمه وهو في ضعفه، ويؤكد هذا قوله إن النعم لمن فلاها بيده، وباشرها بنفسه، وهو ما لا يقدر عليه في سنه المتقدمة.

ثم رمى معاوية بسؤال مهم، ولعله تركه ظناً أن عبيد كان سيأتي به في إحدى إجاباته، خاصة عن المال، وهذا هو سؤاله عن الذهب والفضة، فأجاب عبيد الإجابة الجامدة التي لا تزيد عن وصف طبيعة الذهب والفضة؛ وإن كان للجواب بعض مراميه.

والمعمر قد يعمر لأن في بعض هذا وراثة، وقد يعمر بإذن الله لأن المحيط محيط صحي، يقلل انتشار العلل، وفشو الأمراض، وقد يكون للأكل دخل في

هذا؛ فسائل المعمر يحرص على معرفة ما قد يكون وراء هذا، خاصة الأكل، الذي يمكنه أن يستفيد من معرفته، بالاقتداء بصاحبه؛ ولكن إجابات عبيد لم تأت بما قد يفيد، بل لعلها أزعجت معاوية بما قد يصير إليه إذا شاخ.

ثم توج معاوية أسئلته بسؤال متوقع، وهو ما أهمل في القصص السابقة، مع قربه إلى الذهن، وهو أغرب ما مر على هذا المعمر في حياته الطويلة، وإذا كان هناك غرابة فليست في السؤال، ولكن في أن معاوية اكتفى بقصة عجيبة واحدة، ولم يستزد عبيداً بما لديه مما لابد أنه كان كثيراً.

هذا ولم تنته الصور التي جاءت عن مساءلة معاوية لبعض المعمرين، فمع القصص السابقة تأتي قصة أخرى، فيها بعض الاتفاق مع السابقات، وبعض الاختلاف، والقصة الآتية تحكي مقابلة بين معاوية وثوب بن تلدة الأسدي:

«قال ابن الكلبي: سمعت أبي يقول: أدرك ثوب

ابن تللدة معاوية، فدخل عليه، فقال:

ما أدركت؟ وما عمرك؟

قال: لا أدري، إلا أني أدركت بني والبة ثلاث مرات: يريد: أفنيت ثلاثة قرون.

قال: فكيف بصرك اليوم؟

قال: أَحَدّ ما كان قط، كنت أرى الشخص واحداً، فأنا أراه اليوم شخصين!

قال: فكيف مشيك؟

قال: أمشي ما كنت قط؛ كنت أمشي تَيْداً (مهلاً) فأنا اليوم أهرول هرولة.

فقال أأدركت أمية بن عبد شمس؟

قال: نعم، وهو أعمى، يقوده عبد له، يقال له: ذكوان.

فقال له معاوية: كف، فقد جاء غير ما رأيت يا ثوب.

ثم قال له معاوية: ليس في البيت إلا أموي؛ فانظر أي هؤلاء أشبه بأمية؟

فنظر، ثم قال هذا، لعمرو بن سعيد بن العاص، وهو عمرو الأشدق.

قال أبو حاتم: قال العتبي:

قيل له: الأشدق، لأنه كان خطيباً مُفلقاً» [1].

بعض ما جاء هنا سبق التعليق عليه في القصص السابقة، وقد تكرر في هذه القصة ما جاء قبل ذلك من عدم قبول ما قيل عن أمية، وأنه أعمى، يقوده عبد له يقال له ذكوان.

وقد جَدّ في هذه القصة السؤال عن الإبصار، الذي جاء الرد عليه طريفاً، إذْ أوهم في أول الأمر أن البصر كان حاداً، ثم تبين أن في هذا هزءاً، إذ أكد ما وصل إليه بصره من الخلل، فهو يرى الشخص شخصين؛ حتى الهرولة في هذه السن تدل على الضعف، لأن المهرول يندفع بجسمه ليساعد ساقيه.

أما ما ورد عن شبه أمية بعمرو الأشدق، فلعل هذه إضافة من حزب عمرو، أو من المعجبين به

---

(١) كتاب المعمرين: ٩٢.

خطيباً؛ ومن المؤكد أن معاوية لم يُسَرَّ بهذا، وود لو أنه، أو أحد بنيه، كان أقرب إلى أمية في الشبه؛ هذا إذا كان معاوية قد سأل، وأن ثوباً قد أجاب!

وتأتي قصة أخرى عن معمر اسمه فضالة بن زيد العدواني مع معاوية، والقصة كمايلي:

«حدث عبيد بن أبان النميري قال:

قدم فضالة بن زيد العدواني على معاوية، فقال له معاوية:

كيف أنت والنساء يا فضالة؟

قال يا أمير المؤمنين:

لاَ بَاهَ لِيْ إلاَّ المُنَى، وَاَخُو المُنَى
جدِيْرٌ بأن يُلْحَى ابْنَ حَرْبٍ وَيُشْتَمَا
وَفِيْمَ تَصَابِي الشَّيخِ وَالدَّهْرُ دَائِبٌ
بِمِبْرَاتِهِ تَلْحُو عُرُوقاً وَأَعْظُمَا
رَمَتْنِيْ صُرُوفُ الدَّهرِ حَتَّى تركْنَنِيْ
أَجَبَّ السَّنَامِ بَعْدَمَا كُنْتُ أَيْهَمَا

فَخلتُ سُهُولَ الأَرْضِ وَعْثاً وَوَعْثُهَا
سهُولاً وَقَدْ أَجْرَرْتُ أَنْ أَتكلَّمَا
وَكَـانَ سَلِيْطًـا مِقْـوَلِـيْ مُتَنَـاذِراً
شذَاهُ فَصِرْتُ اليَوْمَ مِلْعِيِّ أَبْكَمَا
كَذَلِكَ رَيْبُ الدَّهْرِ يَتْرُكُ سَهْمُهُ
أَخَا العِزِّ وَالاَدِّ الذَّلِيْلَ المُذَمَّمَا
وَحَرْبٍ يَحِيْدُ القَوْمُ عَنْ لَهَبَاتِهَا
شهِدْتُ فَكُنْتُ المُسْتَشَارَ المُقَدَّمَا
تَوَسَّطْتُهَا بِالسَّيْفِ إِذْ هَابَ حَمْيَهَا الْـ
ـكُمَاةُ فَلَمْ يَغْشَوا مِنَ الحَرْبِ مُعْظَمَا
فَلَمَّا رَأَيْتُ المَوْتَ أَلْقَى بَعَاعَهُ
عَلَيَّ تَعَمَّدْتُ أَمْراً كَانَ مُعْلَمَا
فَيَمَّمْـتُ سَيْفِـي رَأْسَـهُ وَتَـرَكْتُـهُ
يهِرُّ عَلَيْهِ الذِّئْبُ أَفْضَحَ قَشْعَمَا
نَفِدْتُ فَمَا لِيْ حَالَةٌ غَيْرَ أَنَّنِي
أَجُوْدُ إِذَا سِيلَ البَخِيْلُ فَهَمْهَمَا

وَأَبْذُلُ عَفْواً مَا مَلَكْتُ تكَرُّماً
وَأَخْبُرُ فِي اللَّأْدَاءِ كَلاًّ وَمُعْدَمَا

فقال له معاوية: كم أتت لك من سنة، يا فضالة؟

قال: عشرون ومئة سنة.

قال: فأي الأشياء بك منذ كنت بها أسرّ؟ وأيّ شيء أشدّ اكتئابا؟

قال: يا أمير المؤمنين، لم يقطع الظهرَ قطع الولدِ شيء، ولا دفع البلايا والمصائب مثل إفادة المال؛ والله، يا أمير المؤمنين، إن المال ليقع من القلب موقعاً ما يقعه شيء، وإن الولد الصالح ليمثل منزلة المال، ولكن للمال فضيلة عليه، وإن كان طلب المال إنما يجمعه لولده، فإنه آثر عنده منه؛ لأنه قد يمنعه المال إذا طلبه منه؛ وإن كان يُثَمِّرُهُ له، فهو أحلى متاع الدنيا عند أهل الدنيا.

فقال معاوية: ليس كل أحد على رأيك، للمال مال، والولد حبة القلب، ووَتِد النفس، وقطبة العيش، لا خير في المال لمن لا ولد له، إلا أن يكون

مالاً ينفقه في سبيل الله .

فقال فضالة ، يا أمير المؤمنين :

وَمَا العَيْشُ إلاَّ المَالُ فَاحْفَظْ فُضُوْلَهُ
ولاَ تُهْلِكَنْهُ فِي الضَّلاَلِ فَتَنْدَمِ
فَأَنِّي وَجَدْت المَال عِزّاً إِذَا الْتَقَتْ
عَلَيْكَ ظِلاَلُ الحَرْبِ تُرْهِمُ بِالدَّمِ
إِذَا جَلَّ خَطْبٌ صُلْتَ بالمَالِ حَيْثُمَا
توَجَّهْتَ مِنْ أَرْضَيْ فَصِيْحٍ وَأَعْجَمِ
وَهَابَكَ أَقْوَامٌ وَإِنْ لَمْ تُصِبْهُمُ
بنَفْعٍ وَمَنْ يَستغْنِ يُحْمَدْ وَيُكْرَمِ
وَيُعْطَى الّذِيْ يَبْقَى وَإِنْ كَانَ بَاخِلاً
بمَا فِيْ يَدَيْهِ مِنْ مَتَاعٍ وَدِرْهِمِ
وَفِي الْفَقْرِ ذُلٌّ لِلرِّقَابِ وَقَلَّمَا
رأَيْتَ فَقِيْراً غَيْرَ نِكْسٍ مُذَمَّمِ
يُلاَمُ وَإِنْ كَانَ الصَّوابُ بِكَفِّهِ
ويُحْمَدُ آلاَءُ البَخِيْلِ المُدَرْهَمِ

كَذَلِكَ هَذَا الدَّهْرُ يَرْفَعُ ذَا الغِنَى
بِـلاَ كَـرَمٍ مِنْـهُ وَلاَ بِتَحَلُّـمِ
وَلَكِنْ بِمَا حَازَتْ يَدَاهُ مِنَ الغِنَى
يَصِيْـرُ أَمِيْـراً لِلَّئِيْـمِ المُلَطَّـمِ

فقال معاوية: قاتل الله أخا بني أسد حين يقول:

بَنِيْ أُمِّ ذِيْ المَالِ الكَثِيْرِ يَرَوْنَهُ
وإِنْ كَانَ عَبْداً سَيِّدَ الأَمْرِ جَحْفَلاَ
وَهُـمْ لِمُقِـلٍّ أَوْلاَدُ عَلَّـةٍ
وإِنْ كَانَ مَحْضًا فِي العُمُوْمَةِ مُخْوِلاَ»[1]

هناك ما يوحي بأن القصد هو هذه الأشعار، وأن قصة المحادثة بين معاوية وفضالة ما هي إلا وسيلة لذلك، ووراء هذه الأشعار فكرة ترجيح المال على الولد، مع أننا رأينا في الأمثلة السابقة عزوف المعمرين عن المال والدنيا، حتى إن أمد بن أبد لم يطلب من معاوية، رغم ما كبده من طول سفر، إلا إعادته إلى

(١) كتاب المعمرين: ١١٣.

بلاده؛ ويتضح هذا أكثر من إصرار المعمر على رأيه في المال، ورضوخ معاوية في نهاية الأمر لرأيه، عندما يستشهد بأبيات في صف المعمر، توحي بإعجاب معاوية بها.

ونختم هذه السلسلة، من لقاءات معاوية بالمعمرين، بالقصة الآتية، والمعمر هنا يسمى: خِنَّابة بن كعب:

«دخل خنابة بن كعب العبشمي على معاوية، حين اتسق له الأمر ببيعة يزيد ابنه، وقد أتت لخنابة يومئذ أربعون ومئة سنة.

فقال له معاوية: يا خنابة كيف نفسك اليوم؟

فقال: يا أمير المؤمنين، أمتعني الله بك:

عَلَيَّ لِسَانٌ صَارِمٌ إِنْ هَزَزْتُهُ
وَرُكْنِي ضَعِيفٌ وَالفُؤَادُ مُوَقَّرُ
كَبِرْتُ وَأَفْنَى الدَّهْرُ حَوْلِيْ وَقُوَّتِي
فلَمْ يَبْقَ إلاَّ مَنْطِقٌ لَيْسَ يَهْذِرُ

وَبَيْنَ الحَشَا قَبْلَ كَمِّيْ مُهَذَّبُ
متَى مَا يَرَى اليَوْم العَشَنْزَرَ يَصْبرُ
أَهُمُّ بِأَشْيَاءٍ كَثِيْرَةٍ فَتَعْتَفِيْ
مشِيَّةُ نَفْسٍ إِنَّهَا لَيْس تَقْدِرُ
تَلَعَّبَتِ الأَيَّامُ بِيْ فَتَرَكْنَنِيْ
أَجَبَّ السَّنَام حَائِراً حِيْنَ أَنْظُرُ
أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ والشَّيْخُ مُوْلَعٌ
يقُوْلُ: أَرَى ـ واللهِ ـ مَا لَيْسَ يُبْصِرُ»[1]

هذه مثل سابقتها، يوحي الشعر فيها بأنه السبب في وصفها، وإلباسها للمعمر خنابة. وبعد:

فأي هذه القصص الأصل، وأيها الفرع، وهل فيها حقيقة، إلا ميل الشيخ لمعرفة ما لدى الشيخ مثله، وفي المعمر عزاء لمن لا يؤمل أن يعمر.

* * *

(١) كتاب المعمرين: ١١٣.

المشيب وصوره[1]

المشيب مرحلة تأتي في آخر حياة الإنسان، يصلها من أعطاه الله عمراً مديداً؛ وهي من المراحل في عمر الإنسان التي يشعر بها شعوراً واضحاً، يحس بكل لحظة منها، لأن له في كل لحظة معاناة، أما قبل ذلك فنعم الصحة والقوة تنسيه نفسه ووقته، يمر الوقت دون أن يشعر، ويمر سريعاً، خلافاً للمشيب الذي يمر بطيئاً، لأنه يأخذ طبيعته من طبيعة صاحبه.

والشيخ، وهو يدب دبيباً، لا يكفيه معاناة من مشيبه: بطء الحركة، وقلتها، وصعوبة القيام والقعود، ولا كثرة السهر، وقلة النوم، ولا شكوى المفاصل، وضعف السمع والبصر، وسوء الهضم، وكثرة الصداع، وقلة تحمل الحر والبرد، ولكن المعاناة تزيد عندما يقارن حاضره بماضيه، فلا يصدق أنه كان في يوم من الأيام يصعد الدرج ركضاً، ويمشي المسافات الطويلة ركضاً أو شبه راكض،

(١) عن الشيب، في «إطلالة على التراث»: ٣/ ٧، مزيد من صور الشيب.

ويقفز على ظهر الحصان، وهو يجري، ويأتي مما يحتاج إلى قوة بما لا يستطيعه الحصان.

والمقارنة بين حاضره، وما فيه من ضعف، وماضيه وما كان فيه من فتوة، أو بين حاله وحال الفتيان حوله، يجد معها أنه أصبح من سقط المتاع، وكأنه يعد الأيام لنهايته، وما يتوقع من ضعف بعد ضعف، وشكوى إثر شكوى؛ فإن كان ممن هيأ لهذه المرحلة ما يسليه من مهنة سهلة، أو عمل فكري، فإن هذا يخفف وطأة المشيب، وينسي المرء بعض ما به.

وقد وجد بعض الشيوخ راحة في التنفيس عما في أنفسهم مما جاء به المشيب، فصبوا في الشعر شعوراً دافقاً، أراحوا بالشكوى فيه نفوسهم، وعزوها به، وبسبكه، عما في المشيب من نقص إذا قورن بالشباب، وأيامه ذات الذكريات الحلوة الممتعة.

وما قيل في الشيب من شعر يفوق تصور من لم يتتبع ذلك في الكتب، أو في الفصول منها؛ وفيها من الإبداع ما يدهش المتابع، ففيها أفكار مكررة،

ولكن فيها أفكاراً جديدة، وآراء طريفة، تدل على فكر عميق، وإحساس متغلغل في نفس الشاعر؛ ويأتي الشاعر أحياناً بصور جميلة براقة، يلبسها لباس المادة، وطبيعتها معنوية فكرية، فيخرجها من محيطها إلى محيط مستعار، وهذه الاستعارة هي التي تعطيها عنصر الإعجاب، وسبب القبول.

ولابد أن من قال شعراً في الشيب سبق له أن سمع من آخرين قبله ما قالوه فيه، فهو إن لم يقلد، أو يتمثل، فإنه يبحث عن شيء جديد، يبز به الآخرين، ولأن الشعر كثيراً ما يكون نبضاً صادقاً، فإن ما يأتي في هذا المجال ينال الفخر من قائله، والإعجاب من سامعه.

من الصور المألوفة في وصف ذهاب الشباب، ومجيء المشيب، أن الذهاب موقف توديع، وكأن هناك ضيفاً حل ثم ارتحل، أو زائراً طل، وما أقام؛ وهذا المعنى يرد كثيراً في الشعر الذي يتحسر الشاعر فيه على شبابه، ويتغنى بما فيه من مباهج، ويرد

بعدة أوجه أحدها الوجه الآتي، وهذان بيتان مأخوذان من أبيات منسوبة إلى أحد المعمرين، واسمه رُبَيع بن ضُبَيع، يقول فيهما عن ذهاب الشباب:

«أَصْبَحَ مِنِّي الشَّبَابُ قَدْ حَسَرا
إِنْ يَنْأَ عَنِّي فَقَدْ ثَوَى عُصُرَا
وَدَّعَنَا قَبْلَ أَنْ نُوَدِّعَهُ
لَمَّا قَضَى مِنْ جِمَاعِنَا وَطَرَا»[1]

ولم يكتف بالصورة البيانية التي رسمت التوديع، وجسمت الشباب، وكأنه إنسان يستعد للفراق، ولكنه سبق هذه الصورة بصورة أخرى، تبين الشباب وكأنه ظل قد انحسر، أو ماء بحر أو نهر، فيه مد وجزر، وأنه الآن في طور انحساره وجزره.

ويأتي آخر من المعمرين، وهو سيف بن وهب، فيقترب من المعنى السابق، ويبرز الشباب المفقود، وكأنه ثوب يلبس ويبلى، وصاحبه ماشاهُ لفترة ثم فارقه، فيقول:

---

(١) كتاب المعمرين: ١٥، المعمرون والوصايا: ٩.

«لَبِسْــتُ شَبَــابِــي فَــأَفْنَيْتُــهُ
وأَدْرَكَنِــي القَــدَرُ الغَــالِــبُ
وَصَــاحَبَنِــيْ حِقْبَــةً فَــانْقَضَــى
شبَابِي وَوَدَّعَنِي الصَّاحِبُ»(١)

والنابغة يبتدع صورة لذهاب الشباب، فيقول:

«أَكَلْــتُ شَبَــابِــي فَــأَفْنَيْتُــهُ
وأَمْضَيْــتُ بَعْــدَ دَهْــرٍ دُهُــورَا

وهذه صورة فريدة جاء بها النابغة، ولا يبدو أنه مسبوق إليها، وقد لا يلحقه لاحق، فيأتي بصورة مثلها؛ وتعبيره فيها متقن، فالآكل يأخذ من طعامه قليلاً قليلاً، والشباب يمر بالإنسان، ويبتعد قليلاً قليلاً، حتى يتلاشى فلا يرى.

وإذا كان الثوب يلبس، فيرثّ، ويبلى فإن الإنسان في نظر هاجر بن عبدالعزى الخزاعي، يبلى كذلك، ويفنى في يوم ما، يقول:

---

(١) كتاب المعمرين: ٦١، المعمرون والوصايا: ٥٣.

«بَلِيْتُ وَأَفْنَانِي الزَّمَانُ وَأَصْبَحَتْ
هُنَيْدَةُ قَدْ أَنْضَيْتُ مِنْ بَعْدِهَا عَشْرَا»(١)

والهنيدة: المئة سنة.

ويقول معمر آخر، هو عبد يغوث بن كعب، ذاكراً البلى:

«بَلِيْتُ وَقَدْ كُنْتُ دَهْراً جَدِيْداً
وقَدْ عِشْتُ دَهْراً أَبِيًا جَلِيْدَا»(٢)

ويبدو أن البلى كان أقرب صورة لذهاب الشباب، يقول عباد بن سعيد بن أحمد بن ثور:

«بَلِيْتُ وَأَفْنَتْنِي السُّنُونُ وَأَصْبَحَتْ
لِدَاتِي نجومُ اللَّيْلِ وَالقَمَرُ الْبَدْرُ»(٣)

ويقترب شاعر من المعنى الأصل، فيصف شبابه بأنه أودى، وبهذا يبتعد قليلاً عن الصورة البيانية، وعن هذا يقول ربيعة بن عبدالله البجلي:

---

(١) كتاب المعمرين: ٩٩، المعمرون والوصايا: ٩٢.
(٢) كتاب المعمرين: ١٠١، المعمرون والوصايا: ٩٣.
(٣) كتاب المعمرين: ١٠٦.

أُمَيْمَ، أُمَيْمَ، قَدْ أَوْدَى شَبَابِي
وأَخْلَفَنِي البَطَالَةُ والتَّصَابِي»[1]

وكلمة أودي يختارها شاعر معمر آخر، هو عوف ابن الأدرم بن غالب؛ فيقول:

أَوْدَى الشَّبَابُ وَحُبُّ الطَّلَّةِ الخَبَلَه
وقَدْ بَرِئْتُ فَمَا فِيْ الصَّدْرِ مِنْ قَلَبَهْ»[2]

ومرحلة المشيب لها صِورها وأوصافها، وأبرزها نتائج المشيب، ومظاهره على الشيخ، ودلائل فقد القوة بعد الفتوة، والعجز بعد القوة، والانزواء بعد الظهور، والاستعانة بالناس، بعد إعانتهم؛ وهذا كله له زوايا رسمت بإبداع في كثير من الأحيان، وجاءت الصور معبرة، وافية بالغرض، تأتي بالتأثير المراد؛ ولاشك أن الصور الحسية للأمور المعنوية، من الوسائل الناجحة في نقل الصور من المتكلم إلى المخاطب.

---

(١) كتاب المعمرين: ١٠٤، المعمرون والوصايا: ٩٦.
(٢) كتاب المعمرين: ١٠٧، المعمرون والوصايا: ٩٨.

من الصور التي رسمها أحد المعمرين في شعره الصورة الآتية قالها رُبيع بن ضُبَيع، وهي تبين مدى العجز عما كان قادراً عليه، ومدى الضعف فيما كان قوياً فيه، وتصف الحسرة التي يشعر بها:

«أَصْبَحْتُ لاَ أَحْمِلُ السِّلاَحَ وَلاَ
أَمْلِكُ رَأْسَ البَعِيْرِ إِنْ نَفَرا
وَالذِّئْبُ أَخْشَاهُ إِنْ مَرَرْتُ بِهِ
وحْدِي وَأَخْشَى الرِّيَاحَ وَالمْطَرَا»[1]

والنسر من أقوى الطيور بنية، ولكنه إذا شاب فقد هذه القوة، وتبين ضعفه، وانتقاله من حال إلى حال، ولقوته قيل إن هامان اختاره، في بعض الروايات، ليحمل فرعون في محفة ليطلع إلى إله موسى، ولكنه وما معه من النسور خابوا، وعادوا مهيضي الجناح، وفي ضوء قوته، وبدانته يحمل النسر أكثر مما يحمل أي طائر آخر، ويمزق الجيفة، وقت قوته، ويقضي عليها في دقائق، بعض كبار السن يمثل نفسه بالنسر

(١) كتاب المعمرين: ١٥، المعمرون والوصايا: ٩.

بعد أن يضعف، وتهين شدته؛ ويبدو أن هذه الصورة محببة للشعراء المعمرين، وتتكرر في أشعارهم، ومن بين من استفاد منها ابن حممه الدوسي، حيث يقول:

«وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ النَّسْرِ طَارَ فِرَاخُهُ
إِذَا رَامَ تِطْيَاراً يَقُلْنَ لَهُ: قَعِ»[1]

وفرخ النسر وهو صغير لم تفتح عيناه ضعيف، وضعفه هذا يغري الشيخ بتشبيه نفسه به، يقول سمعان بن هبيرة:

«وَعَادَ كَفَرْخِ النَّسْرِ أَعْمَى عَنِ الَّتِي
يُرِيْدُ، طِوالَ الدَّهْرِ يَهْذِيْ وَيَهْذِرُ»[2]

ومن مظاهر ضعف فرخ النسر طول جيده، وضعفه عن حمل رأسه حتى يكبر ويشتد، ويقول عوف بن سبيع بن عميرة في هذا:

«وَصَارَ كَفَرْخِ النَّسْرِ يَهْتَزُّ جِيْدُهُ
يَرَى دُوْنَ شَخْصِ المَرْءِ شَخْصًا إِذَا رَأَى»[3]

---

(١) كتاب المعمرين: ٣٧، المعمرون والوصايا: ٢٩.

(٢) كتاب المعمرين: ٧٣، المعمرون والوصايا: ٦٥.

(٣) كتاب المعمرين: ٧٩، المعمرون والوصايا: ٧١.

وصورة أخرى يرسمها مسافع بن عبدالعزى له ولأصحابه من الشيوخ:

«جَلَسْتُ غَدِيَّةً وَأَبُو عَقِيلٍ
وعُرْوَةُ ذُو النَّدَى وَأَبُو رِيَاحِ
كَأَنَّا مَضْرِحِيَّاتٌ[1] بِرَضْوى
يُنُؤْنَ إِذَا يَنُؤْنَ بِلاَ جَنَاحِ»[2]

وفرخ الطائر، أيا كان، هزيل ضعيف، ولهذا يكون أقرب إلى ذهن المتمثل بالضعف، وعلى هذا قال هاجر بن عبدالعزى الخزاعي:

«وَأَصْبَحْتُ مِثْلَ الفَرْخِ لاَ أَنَا مَيِّتٌ
فَأُسْلَى وَلاَ حَيٌّ فَأُصْدِرُ لِيْ أَمْرَا»[3]

والنسر إذا شاخ أصبح جسماً بلا قوة، يقع فلا يطير، ويكفيه من الطعام اليسير؛ وهذه هي الصورة التي أرادها حارثة بن مرة بن حارثة حين يقول:

---

(١) المضرحيات: النسور يكون بجناحها شبه طرف ذنب الناقة.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٩، المعمرون والوصايا: ٣٠.
(٣) كتاب المعمرين: ٩٩، المعمرون والوصايا: ٩٢.

«فَكُنْتُ كَالنَّسْرِ عَلَى الجَذِيْرَهْ
بُـرَاضَـةً مِـنْ عُمُـرٍ يَسِيْـرَهْ»[1]

(الجذيرة: أصل الحائط، أو البناء. والبراضة: القليل).

ولأن المعمر يكون عادة حبيس البيت أغلب الوقت، فمن المتوقع أن يكون هذا من أسباب شكواه، ومصدراً لقلقه، ومدعاة لملله؛ وأن يخرج ذلك في شعره صارخاً منوعاً، ومن صور ذلك ما قاله دريد بن الصمة الجشمي:

«رَهِيْنَـةُ قَعْـرِ البَيْـتِ كُـلَّ عَشِيَّـةٍ
كأَنِّي أُرَقَّى أَوْ أُصَوَّبُ فِيي المْهَدِ»[2]

وجلوس المرء في بيته في شيخوخته أمر يرعب، ولهذا اتُّخِذَ منه، ومن غيره من صور الشيخوخة وأتعابها، وسيلة للحث على الاستماتة في الحرب، فهي أكثر قبولاً، لأن في الموت في الميدان شرف لا يضاهيه

---

(١) كتاب المعمرين: ١٠٣، المعمرون والوصايا: ٩٥.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٦، المعمرون والوصايا: ٢٧.

الموت، بعد المشيب الطويل، في البيت؛ يقول عروة ابن الورد، مبرراً استماتته عندما أصاب الجدب قومه، وكادوا يهلكون من الجوع والعوز، فأغار على إبل قتل فارسها، واحتاز هو وقومه الإبل، وتبدلت بذلك حالهم:

«أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ أَدِبَّ عَلَى العَصَا
فَيَأْمَنَ أَعْدَائِي وَيَسْأَمَنِي أَهْلِي
رَهِيْنَـةُ قَعْـرِ البَيْـتِ كُـلَّ عَشِيَّـةٍ
يلاَعِبُنِي الوِلْدَانُ أَهْدَجَ كَالرَّأْلِ
أَقِيْمُوا بَنِيْ لُبْنَى صُدُوْرَ رِكَابِكُمْ
فَإِنَّ مَنَايَا القَوْمِ شَرٌّ مِنَ الهَزْلِ»[1]

ويرسم مصاد بن جناب صورة مؤثرة لبقائه في البيت، مراقباً لا يستطيع أن يتعداه، ويخشى منه إذا تعدى عتبة داره، أن يسيء إلى أهله بفعل قد لا يكون تحكم فيه العقل بعد أن ضعف صاحبه، ويصور نفسه، وهو يُرد عن هدفه، بفرخ الطائر الذي يعاد إلى

(١) شرح الحماسة للتبريزي: ٢/ ٣٧، بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٩.

الحظيرة خوفاً أن يضل أو يتعرض لأذى، فيقول:

مَا رَغْبَتِيْ فِيْ آخِرِ العَيْشِ بَعْدَمَا
أكُـوْنُ رَقِيـبَ البَيْـتِ لاَ أَتَغَيَّـبُ
إذَا مَـا أَرَدْتُ أَنْ أَقُـوْمَ لِحَـاجَـةٍ
يقُوْلُ رَقِيْبٌ حَافِظٌ: أَيْنَ تَذْهَبُ
فَيُرْجِعُهُ المُرْمَى بِهِ عَنْ سَبِيْلِهِ
كَمَا رَدَّ فَرْخَ الطَّائِرِ المُتَرَبِّبُ»[1]

ويصف هبل بن عبدالله بن الكلبي بقاءه في البيت، ملقى غير مأبوه به، لا حول له ولا قوة؛ ضعفه واضح، وقلة حيلته بيّنة، فهو مثل فرخ النعام، واهي القوة، لا يستطيع لنفسه تدبيراً، ولو تلمس وصفاً آخر لنفسه لوجد أنه مثل القرد في حركته، مُنْحَنٍ، متكور، في دبيبه في المكان الذي يقيم فيه:

«وَأَنْتَ لَقًى فِي البَيْتِ كَالرَّأْلِ مُدْنَفٌ
وقَدْ كُنْتَ سَبَّاقًا إِلَى غَايَةِ المَجْدِ

(١) كتاب المعمرين: ٣٨، المعمرون والوصايا: ٣٠.

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لِامْرِئٍ مِنْ حَيَاتِهِ

يدِبُّ دَبِيْباً فِي المَحَلَّةِ كَالقِرْدِ»[1]

وفرخ النعام مصدر تشبيه يغرم به الشعراء فهذا أنس بن مدرك الخثعمي، يرسم بأداته صورة شبه نفسه فيها بالرأل، في ضعفه، وفي انحنائه، وفي اعتماده على من حوله، وفي حدود المكان الذي لا يستطيع أن يتجاوزه بأمان؛ يجتر أخبار السابقين، الذين وردوا حياض الموت قبله، ويبعد في تخيله لمن سبقه، ويستطيل حياته، حتى كأنه ذو القرنين والتبابعة؛ يقول:

«وَيَأْذَى بِهِ الأَدْنَى وَيَرْضَى بِهِ العِدَا

إِذَا صَارَ مِثْلَ الرَّأْلِ أَحْدَبَ أَخْضَعَا

رَهِيْنَةَ قَعْرِ البَيْتِ لَيْسَ يُرِيْمُهُ

لَقًى ثَاوِيًا لاَ يَبْرَحُ المَهْدَ مُضْجَعَا

يُخَبِّرُ عَمَّنْ مَاتَ حَتَّى كَأَنَّمَا

رأَى الصَّعْبَ ذَا القَرْنَيْنِ أَوْ رَاءَ تُبَّعَا»[2]

---

(١) كتاب المعمرين: ٤٦، المعمرون والوصايا: ٣٧.

(٢) كتاب المعمرين: ٥١، المعمرون والوصايا: ٤٢، بهجة المجالس: ٦/٢٢٦.

ويصف عامر بن جوين ضعفه بسبب الكبر، وصفاً يأتي به من زاوية تصف واقع حاله بدقة، وهي صورة معبرة، أحاطت بجانب من جوانب الضعف المتناهي؛ يقول:

«مَـاذَا أُرَجِّـيْ مِـنَ الفَـلَاحِ إِذَا
قُنِّعْـتُ وَسْـطَ الظَّعَـائِـنِ الأُوَلِ
مُسْتَعْنِزاً أَطْرُدُ الكِلَابَ عَنِ الـ
ـظِّـلِّ إِذَا مَـا دَنَـوْنَ لِلْحَمَـلِ»[1]

(الظعائن: جمع ظعينة وهي المرأة في هودجها، والاستعناز: التنحي).

وسمعان بن هبيرة معمر عانى من الكبر، وقال أبياتاً يصف فيها حاله وقت القوة، وما آلت إليه من الضعف عند المشيب، ويذكر بقاء الشيخ عادة في البيت، ملقى، لا يستطيع أن يبرح مقامه، تخيم عليه الكآبة، ويخضع للوقار، فلا حركة ولا نشاط:

---

(١) كتاب المعمرين: ٦٢، المعمرون والوصايا: ٥٣.

«فَكَمْ مِنْ صَحِيْحٍ عَاشَ دَهْراً بِنِعْمَةٍ
فَحَلَّ بِهِ يَوْمٌ أَغَرُّ مُشَهَّرُ
فَصَارَ لَقًى فِي البَيْتِ لاَ يَبْرَحُ الفِنَا
رذِيًّا عَلَيْهِ كَآبَةٌ وَتَوَقُّرُ»[1]

ويمثل بحر بن الحارث بن امرئ القيس نفسه بسقط المتاع في البيت، ملقى جانباً، لا يأبه له أحد، وكأنه لا وجود له، لا يُلتفت إليه، ولا يؤخذ رأيه، لا يأمر ولا ينهى، ولا يتدخل في أمر، يقول بحر مشيراً إلى هذا، وإلى ملله من الحياة، وملل أهله منه:

«وَصَارَ فِي البَيْتِ مِثْلَ الحِلْسِ مُطَّرَحاً
لاَ يُسْتَشَارُ وَلاَ يُعطِي وَلاَ يَذَرُ
مَلَّ المَعَاشَ وَمَلَّ الأَقْرَبُوْنَ لَهُ
طوْلَ الحَيَاةِ، وَشَرُّ العِيْشَةِ الكَدَرُ»[2]

وقطري بن الفجاءة يصور من أمهل في عمره، ولم يمت، فيسمه بالملل والسأم، ويصبح من سقط

(١) كتاب المعمرين: ٧٣، المعمرون والوصايا: ٦٥.
(٢) كتاب المعمرين: ٧٨، المعمرون والوصايا: ٧٠.

المتاع حقاً، ويقول إنه لا لذة للحياة حينئذٍ:

«وَمَـنْ لَا يَعْتَبِـطْ يَسْـأَمْ وَيَهْـرَمْ
وتُسْلِمْـهُ المَنُـوْنُ إِلَـى انْقِطَـاعِ
وَمَـا لِلْمَـرْءِ خَيْـرٌ فِـيْ حَيَـاةٍ
إِذَا مَا عُدَّ مِنْ سِقْطِ المَتَاعِ»[1]

وقال شاعر آخر يصف حالة الهرم المتناهي، ويرى أن مثل هذا حيٌّ ميت:

«مَـنْ شَـابَ مَـاتَ، حَـيٌّ
يمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَشْيَ هَالِكِ»[2]

وامرؤ القيس بن حُمام يأتي بصورة يراها ثابتة للمعمر، فيصف ثقل الشيخ على أهله في حلهم وترحالهم، فهو عبء في كل الأوقات:

«إِنَّ الكَبِيْـرَ إِذَا طَـالَـتْ زَمَـانَتُـهُ
فَـإِنَّمَـا حَمْلُـهُ جِنَـازَةً عَـارُ

---

(١) الحماسة: ١/٩٧.
(٢) أحسن ما سمعت: ١١٥.

وَمَنْ يَعِشْ زَمِنًا فِيْ أَهْلِهِ خَرِفًا
كَلاًّ عَلَيْهِمْ إِذَا حَلُّوا وَإِنْ سَارُوا
يَـذُمُـمْ مَـرَارَةَ عَيْـشٍ كَـانَ أَوَّلُـهُ
حلْوًا وَلِلدَّهْرِ إِحْلاءٌ وإمْرَارُ»[1]

وهو بهذه الحالة من الضعف يُشْبِه الجنازة في ضيق أهلها بها، ورغبتهم في التخلص منها؛ وهو بهذه السن لا يفيدهم بعقله، بل إنهم يضيقون بآرائه، التي يكون فيها من النقص ما يوحي به الخرف؛ فيصبح عالة عليهم في كل الأوقات، يعوقهم عن أداء عملهم، ويقف حجر عثرة عن سهولة تحركهم، ويأخذ من وقتهم ما هم في حاجة إليه في معاشهم؛ وهو يعاني عندما يتذكر ما كان عليه في شبابه من المشاركة، والمبادرة.

ويرسم عباد بن شداد اليربوعي صورة له، وهو قعيد بيته، ويصف بحرقة نظرة زوجته له، وهي نظرة متدنية، تدل على احتقار واستهانة، وهذا فيه

(١) كتاب المعمرين: ٧٩، المعمرون والوصايا: ٧١.

من الألم ما لا مزيد عليه، وهي تعيره بما رماه به الزمان من احديداب جسمه، ولا رد عنده إلا تذكيرها بما كان عليه في يوم من الأيام من القوة والفتوة، فيقول:

«وتَهْزأُ العِرْسُ مِنِّيْ أَنْ رَأَتْ جَسَدِي
أَحْدَبَ لَمْ تَبْقَ مِنْهُ غَيْرُ أَجْلادِ
فَإِنْ تَرَيْنِي ضَعِيْفًا قَاصِراً عُنُقِي
فقَدْ أُكَعْكِعُ عَنِّي عَدْوَةَ العَادِي»(١)

ومن الأمور التي تجعل المعمر ثقيلاً على أهله ما ذكره زهير بن مرخة عن حاله، فلضعفه لا يأمل إلا في النوم يريح جسمه به، ويطالب أهله أن يبقوا فلا يرحلوا، لأن الرحيل يتعبه، ويطالبهم بأن يهيؤا له زاداً، وفراشاً وطيئاً، فلم يعد جسمه يتحمل عناء النوم على الفراش غير الوثير، ولم يعد يقبل الجوع والسغب؛ يقول عن هذا:

---

(١) كتاب المعمرين: ٨١، المعمرون والوصايا: ٧٣.

كَبُرْتُ وَأَمْسَتْ عِظَامِي رَمَادَا
وَمَا تَأْمَلُ العَيْنُ إِلاَّ رُقَادَا
أَقُولُ لأَهْلِي لاَ تَظْعَنُوا
وهَاتُوا فِرَاشاً وَطِيئًا وَزَادَا»[1]

ويصرح كعب بن رادة[2] النخعي بأن أهله الأدنون قد ملوه، وأبغضوا رؤيته، لثقله عليهم، وعدم فائدته لهم، وهم أهل كدح وتعب، من لا يشاركهم كدهم، وسعيهم للرزق، أعاقهم عنهما، وحرمهم ثمرة كدهم وتعبهم، يقول:

«لَقَدْ مَلَّنِي الأَدْنَى وَأَبْغَضَ رُؤْيَتِي
وَأَنْبَأَنِي أَلاَّ يَحِلَّ كَلاَمِي»[3]

ويطول عمر أوس بن ربيعة بن كعب حتى مله أهله، وسئم هو عمره، ومرور الأيام والليالي به؛ يعدها آتية، ويعدها ذاهبة، فيقول:

(١) كتاب المعمرين: ٨٨، المعمرون والوصايا: ٨٠.
(٢) في «المعمرون والوصايا»: رداة.
(٣) كتاب المعمرين: ١٠٠، المعمرون والوصايا: ٩٣.

«لَقَدْ[1] عُمِّرْتُ حَتَّى مَلَّ أَهْلِي
ثَوائِيْ عِنْدَهُم[2] وَسَئِمْتُ عُمْرِي
وَحُقَّ لِمَنْ أَتَتْ مِئَتَانِ عَامًا[3]
عَلَيْـهِ وَأَرْبَـعٌ مِـنْ بَعْـدِ عَشْـرِ
يَمَـلُّ مِـنَ الثَّـوَاءِ وَصُبْـحُ يَـوْمٍ
يُغَـادُ بِـهِ وَلَيْـلٌ بعـدُ يَسْـرِي»[4]

ويكرر مثل هذا المعنى حارثة بن عبيد الكلبي، ويتمنى أن عمره انتهى، ولكنه يرد على نفسه بأن التمني لا يفيده، ويشكو ضعفه ومَرَضه، ولزومه بيته، حتى تأذى منه أقاربه، لطول مكثه، واستثقلوا حياته، يقول حارثة:

«أَلاَ لَيْتَنِـي أَنْضَيْـتُ عُمْـرِي
وَهَلْ يُجْدِي عَلَيَّ اليَوْمَ لَيْتِي؟!
حَنَتْنِي حَـانِيَاتُ الـدَّهْرِ حَتَّى
بَقِيْـتُ رَذِيَّـةً فِـي قَعْـرِ بَيْتِـي

(١) في «المعمرون»: خلقت.
(٢) في «المعمرون»: فيهم.
(٣) في «المعمرون»: مئتين عام.
(٤) كتاب المعمرين: ١٠١، المعمرون والوصايا: ٩٤.

تَـأَذَّى بِـيَ الأَقَـارِبُ إِذْ رَأَوْنِـي
بقِيتُ وَأَيْنَ مِنِّي اليَوْمَ مَوْتي!»[1]

ويجمع أبو العريان، الهيثم بن الأسود النخعي، علامات الكبر، الدالة عليه، في أبيات دارت على ألسن الناس، لأنها شملت كثيراً مما جاء مفرقاً في الأشعار المختلفة، عن صفات الشيخ الهرم، وما يتعرض له من مشاق، وما يخسره من مكاسب، بعد أن فارقه الشباب:

يقول أبو العريان:[2]

فَـاسْمَـعْ أُنْبِـيْكَ بَـآيَاتِ الكِبَـرْ
تقَارُبُ الخَطْوِ وَضَعْفٌ بِالبَصَر
وَكَثْـرَةُ النِّسْيَـانِ مَـا بِـيْ مُـدَّكَـرْ
وقِلَّـةُ النَّـوْمِ إِذَا اللَّيْـلُ اعْتكَـرْ
أَوَّلُـــهُ نَـــوْمٌ وَثُلْثَـــاهُ سَهَـــرْ
وَسَعْلَـةٌ تَعْتَـادُنِـي مَـعَ السَّحَـرْ

---

(١) كتاب المعمرين: ١٠٢، المعمرون والوصايا: ٩٤.
(٢) يقال إن قائله المستوغر بن ربيعة.

وَسُرْعَةُ الطَّرْفِ وَتَحْمِيْجُ النَّظَرْ
وَتَرْكِيَ الحَسْنَاءَ فِيْ قَبْلِ الطُّهُرْ
وَحَـــذَراً أَزْدَادُهُ إِلَـــى حَـــذَرْ
وَالنَّاسُ يَبْلَوْنَ كَمَا تَبْلَى الشَّجَرْ»[1]

ويخاطب يحيى بن الحكم الغزال امرأة عن الشيب، وما يأتي به للمرء، وفيه ما يكمل الصورة السابقة التي رسمها أبو العريان، أو المستوغر، في بعض الروايات، فيقول يحيى:

تَسْـأَلُنِـيْ عَـنْ حَـالِـيْ أُمُّ عُمَـر
وَهِيَ تَرَى مَا حَلَّ بِيْ مِنَ الغِيَرْ
وَمَا الَّذِيْ تَسْأَلُ عَنْهُ مِنْ خَبَرْ
وَقَدْ كَفَاهَا الكَشْفَ عَنْ ذَاكَ النَّظَرْ
وَمَـا يَكُـونُ حَـالَتِـي مَـعَ الكِبَـرْ
ارْبَدَّ مِنِّي الوَجْهُ وَابْيَضَّ الشَّعَرْ
وَصَارَ رَأْسِيْ شُهْرَةً مِنَ الشُّهَرْ
وَيَبِسَتْ نَضْرَةُ وَجْهِيْ وَاقْشَعَرّ

(١) البيان والتبيين: ١/ ٣٩٩، بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٧، الحيوان: ٥/ ٤٩، عيون الأخبار: ٢/ ٣٢١ و ٣٤٤، العقد الفريد: ٣/ ٥٥٣.

وَنَقَصَ السَّمْعُ بِنُقصَانِ البَصَرْ
وَصِرْتُ لاَ أَنْهَضُ إِلاَّ بَعْدَ شَرّ
لَوْ ضَامَنِي مَنْ ضَامَنِي لَمْ أَنْتَصِرْ
فَانْظُرْ إِلَيَّ وَاعْتَبِرْ ثُمَّ اعْتَبِرْ
فَإِنَّ لِلْحُلُومِ فِيَّ مُعْتَبَرْ»[1]

ويلفت الجَرَنْفِش بن عبده الطائي نظر محدثته إلى ضعفه وعماه، وما وصلت إليه حاله، مما يجعله لا يرجى لملمة، ولا ينفع لنازلة، وأن من حقه، وقد وصل إلى حاله من عمى، وقعود بالمنزل، أن يستريح، فيقول لها:

إِمَّا تَرَيْنِي لاَ أُعِينَ عَلَى النَّدَى
وَلاَ أَنْصُرُ المَوْلَى كَمَا كُنْتُ أَفْعَلُ
وَأَصْبَحْتُ أَعْمَى قَاعِداً مُتَوَكِّلاً
عَلَى اللهِ إِنَّ المُؤْمِنَ المُتَوَكِّلُ
فَحَقٌّ امْرِئٍ قَدْ سَارَ حَتَّى تَخَرَّمَتْ
هُنَيْدَةُ حَقًّا أَنْ يُنِيْخَ بِمَنْزِلِ» (كذا)[2]

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٨.

(٢) كتاب المعمرين: ١٠٨، المعمرون والوصايا: ٩٩، وقد تكون وَيَنْزِل!.

وسنان بن وهب بن تيم يدلي بدلوه في هذا المقام، ويصف حاله من الضعف بأبيات منها:

لَقَدْ عُمِّرْتُ حَتَّى صِرْتُ كَلاًّ
مُقِيْمًا لاَ أَحُلُّ وَلاَ أَسِيْرُ
تَأَذَّى بِيْ الأَقَارِبُ بَعْدَ أُنْسٍ
كَأَنِّي فِيْهِمُ فَرْخٌ شَجِيْرُ»[1]

(والشجير: الغريب من الناس والإبل).

ومحصِّن بن عتبان الزبيدي يقول عن بقائه في بيته بعد أن طال به العمر، واستبد به الضعف:

أَلاَ يَا اسْمَ أَعْيَانِي الرُّكُوْبُ
وَأَعْيَتْنِي المَكَاسِبُ وَالذُّهُوبُ
وَصِرْتُ رَزِيَّةً فِيْ البَيْتِ كَلاًّ
تَأَذَّى بِي الأَبَاعِدُ وَالقَرِيْبُ»[2]

وتأتي صور مركبة يرسمها مُسافِع بن عبدالعزى عن حاله مع من حوله، وما يجري بينه وبينهم، وما يظنون

(١) كتاب المعمرين: ١٠٩، المعمرون والوصايا: ١٠٠.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٥، المعمرون والوصايا: ٩٦.

فيه، وفي طول مكثه، فيقول:

«إِذَا مَرَّ نَعْشٌ قِيلَ: نَعْشُ مُسَافِعٍ
أَلاَ لاَ بِوُدِّي لَوْ بَنَي لِيْ لاَحِدُ
يَظُنُّــونَ أَنِّــي بَعْــدُ أَوَّلُ مَيِّــتٍ
فَأَبْقَى وَيَمْضِيْ وَاحِدٌ ثُمَّ وَاحِدُ
فَقَالُوا لَهُ لَمَّا رَأَوْا طُوْلَ عُمْرِهِ
تَــأَتَّ لِـدَارِ الخُلْـدِ إِنَّـكَ خَـالِـدُ
عِضَــابٌ عَلَــيَّ أَنْ بَقِيْــتُ وَأَنَّنِــي
بِوُدِّي الَّذِيْ يَهْوُوْنَ لَوْ أَنَا وَاجِدُ»[1]

وزهير بن خباب يرى أن الموت خير للفتى قبل أن يضعف، ويقوده الولدان عندما يخيم الظلام، لضعف بصره، ووهن في قوته، وهو بهذا يتفق مع دعوة العامة التي يقولون فيها: «اللهم من حيلى لقبيري»، أي: أمتني وفيّ قوة؛ وزهير هذا قوله، وهو يرسله حكمة:

---

(١) كتاب المعمرين: ٤٠، المعمرون والوصايا: ٣١.

«فَـــالْمَـــوْتُ خَيْـــرٌ لِلْفَتَـــى
فَلْيَهْلِكَـــنْ وَبِـــهِ بَقِيَّـــهْ
مِـــنْ أَنْ يُـــرَى تَهْـــدِيـــه وِلْـ
ـــدَانُ المُقَـامَـةِ بِـالْعَشِيَّـةِ»[1]

ويقول من أبيات أخرى :

«وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ حَدَاجٍ مُوَطَّأٍ
مَعَ الظَّعْنِ لاَ يَأْتِي المَحَلَّ لِحِيْنِ»[2]

(الحداج : محفّة النساء) .

وهبل بن عبدالله الكلبي يفضل الموت على طول العمر مع الضعف ، واستبداد مظاهر الكبر بالمرء ، المزرية له ، فيقول :

وَلَلْمَوْتُ خَيْرٌ لاِمْرِئٍ مِنْ حَيَاتِهِ
يَدِبُّ دَبِيْباً فِي المَحَلَّةِ كَالْقِرْدِ»[3]

ومثله عمرو بن الحميس يفضل الموت على الخرف

---

(١) كتاب المعمرين : ٤٢ ، المعمرون والوصايا : ٣٣ .
(٢) كتاب المعمرين : ٤٣ ، المعمرون والوصايا : ٣٤ .
(٣) كتاب المعمرين : ٤٦ ، المعمرون والوصايا : ٣٧ .

والهذيان، وهما مما يعانيه الشيخ الفاني، ويقول:

«فَإِنْ أَمُتْ فَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِيْ[1]
مِنْ قَبْلِ أَنْ أَهْذِي وَلاَ أَدْرِي»[2]

ويفقد جعفر بن قرط العامري لداته، ويشعر بالوحدة في هذه الحياة، فمن حوله ليسو من معاصري شبابه، فيخاطب المرأة بقوله:

«لَمْ يَبْقَ يَا خَذْلَةُ مِنْ لِدَاتِي
أَبُــو بَنِيْــنَ لاَ وَلاَ بَنَــاتِ
مِنْ مَسْقَطِ الشَّمْسِ إِلَى الفُرَاتِ
إلاَّ يُعَــدُّ الْيَــوْمَ فِـي الأَمْـوَاتِ»
هَــلْ مُشْتَـرٍ أَبِيْعُـهُ حَيَـاتِـي[3]

وثعلبة بن كعب بن زيد ألمح إلى أنه يتمنى الموت إلا أن الموت أخلف رجاءه في هذا، وأبقاه حبيساً في بيته، يقول ثعلبة:

---

(١) في «المعمرون»: الموت لي خيرة.

(٢) كتاب المعمرين: ٤٧، المعمرون والوصايا: ٣٩.

(٣) كتاب المعمرين: ٦٣، المعمرون والوصايا: ٥٥.

«فَأَصْبَحْتُ الغَدَاةَ رَهِيْنَ بَيْتِي
وَأَخْلَفَنِي مِنَ المَوْتِ الرَّجَاءُ»[1]

وكعب بن رادة[2] النخعي تمنى أن يكون قد مات، ورمس في لحده، بعد أن ضعف، فيقول:

فَيَا لَيْتَنِي قَدْ سِخْتُ فِي الأَرْضِ قَامَةً
وَلَيْتَ طَعَامِي كَانَ فِيْهِ حِمَامِي»[3]

ويبرر المنذر بن حرملة تمنيه الموت، أو تفضيله إياه، تبريراً يجعل الموت مرحباً به، فيقول مرحباً بالموت:

«إِذَا جُعِلَ المَرْءُ الَّذِيْ كَانَ حَازِماً
يُحَلُّ بِهِ حَلَّ الحِوَارِ وَيُحْمَلُ
فَلَيْسَ لَهُ فِيْ العَيْشِ خَيْرٌ يُرِيْدُهُ
لِآتِيْهِ، وَسَوْفَ ـ واللهِ ـ أَفْعَلُ»[4]

والمستوغر بن كعب يمل الحياة بعد أن عمر على ما يقال مئات السنين، ولم يعد في الحياة له أي رغبة،

---

(١) كتاب المعمرين: ٩٨، المعمرون والوصايا: ٩١.
(٢) في «المعمرون»: رداة.
(٣) كتاب المعمرين: ١٠١، المعمرون والوصايا: ٩٣.
(٤) كتاب المعمرين: ١١٧.

لأنه ليس فيها ما يجذبه، وقد أضناه مر السنين، ورتابة الزمن، فيقول في هذا:

«وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُوْلِهَا
وعَمَرْتُ مِنْ عَدَدِ السِّنِيْنِ مِئِيْنَا
هَلْ مَا بَقِيْ إِلاَّ كَمَا قَدْ فَاتَنَا
يَـوْمٌ يَمُـرُّ وَلَيْلَـةٌ تَحْـدُوْنَـا»[1]

وأكثم يؤكد أن رتابة مرور السنين تجعل المرء يمل الحياة:

«وإِنَّ امْرَءاً قَدْ عَاشَ تِسْعِيْنَ حَجَّةً
إِلَى مِئَةٍ لَمْ يَسْأَمِ العَيْشَ جَاهِلُ»[2]

وزهير بن جناب يلمح بتفضيل الموت بعد أن تنهك المرء السنون، فيقول:

لَقَـدْ عُمِّـرْتُ حَتَّـى مَـا أُبَـالِـي
أَحَتْفِيْ فِي صَبَاحِيْ أَوْ مَسَائِي

(١) كتاب المعمرين: ١٨، المعمرون والوصايا: ١٢.
(٢) كتاب المعمرين: ٢١.

وَحُقَّ لِمَنْ أَتَتْ مِئَتَانِ عَاما[1]
عليْـهِ أَنْ يَمَـلَّ مِـنَ الثَّـوَاءِ[2]

ويقول أيضاً:

«لَيْتَ شِعْرِيْ، وَالدَّهْرُ ذُو حَدَثَانِ
أيُّ حِيـنٍ مَنِيَّتِـيْ تَلْقَـانِـي
أَسُبَـاتٌ عَلَـى الفِـرَاشِ خُفَـاتٌ
أَمْ بِكَفَّـيْ مُفَجَّـعٍ حَـرَّانِ»[3]

ويجيء المشيب، وتأتي معه العصا، ولا ينساها المعمر، وهي صديق وفيّ له، وتصبح من لوازمه، لا تفارقه حتى يفارق الحياة، يقول عن العصا مرادس ابن صبيح:

«أَدِبُّ عَلَـى العَصَـا لَـمْ يَبْـقِ إِلاَّ
لسَانٌ صَارِمٌ عَضْبٌ حُتَاتُ»[4]

---

(١) في «المعمرون»: عام.
(٢) كتاب المعمرين: ٤٢، المعمرون والوصايا: ٣٤.
(٣) كتاب المعمرين: ٤٣، المعمرون والوصايا: ٣٥.
(٤) كتاب المعمرين: ٥٣، المعمرون والوصايا: ٤٤.

والمقارنة بين وسائل القوة، والاستفادة منها أيام الشباب، ووسائل الضعف، وحلولها محلها، وقت المشيب، مادة دسمة للأسى والحزن على ما فات، وتأتي هذه المقارنة مؤثرة تأثيراً بالغاً، لأنها تقطر ألماً، خاصة ما فيها من حدة التفاوت بين طرفي الأمر، مما يؤكد حالة الحاضر التي عليها الشيخ، وهو يتصور ماضيه المبهج، ويقارنه بحاضره المعتم، وممن لمس هذا الجانب، وكانت إحدى وسائل المقارنة عنده العصا، عوف بن سبيع بن عميرة، حين يقول من أبيات ساقها:

«وَبُدِّلَ، مِنْ طِرْفٍ جَوَاءٍ حَشِيَّةٌ
وِمِنْ قَوْسِهِ وَالرُّمْحِ وَالصَّارِمِ، العَصَا»(١)

ولبيد بن ربيعة بن مالك، وقد عمر، يذكر العصا، واعتماده عليها، ويرسم صوراً تكمل منظر الشيخ؛ فيها إتقان وإبداع، حيث يقول:

---

(١) كتاب المعمرين: ٧٩، المعمرون والوصايا: ٧١.

«أَلَيْسَ وَرَائِي أَنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
لُزُوْمُ العَصَا تُحْنَى عَلَيْهَا الأَصَابِعُ
أُخَبِّرُ أَخْبَارَ القُرُوْنِ الَّتِي مَضَتْ
أَدِبُّ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ رَاكِعُ»[١]

ويذكر كعب بن رادة[٢] النخعي دور العصا في مساعدته على ضعفه، عند قيامه من قعوده فيقول:

«عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى العَصَا
أَنُوْءُ ثَلاَثاً بَعْدَهُنَّ قِيَامِي»[٣]

وقيل إن قائله عمرو بن قمئة[٤].

وعند اختيار الصور التي توضح مدى الضعف، والانتقال إليه بعد القوة، يرد تعبير مختلف؛ ومن الصور المستعارة لذلك التعبير بجب السنام، وقد ورد ذلك في شعر فضالة بن زيد، فهو يقول فى أحد الأبيات:

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٨، كتاب المعمرين: ٨٥.
(٢) في «المعمرون»: كعب بن رداة.
(٣) كتاب المعمرين: ١٠٠، المعمرون والوصايا: ٩٣.
(٤) كتاب المعمرين: ١٢٣.

رَمَتْنِي صُرُوْفُ الدَّهْرِ حَتَّى تَرَكْنَنِي
أَجَبَّ السَّنَامِ بَعْدَمَا كُنْتُ أَيْهَمَا»[1]

وورد هذا التعبير نفسه في شعر للمعمر: خِنّابة ابن كعب، حيث يقول:

تَلَعَّبَتِ الأَيَّامُ بِيْ فَتَرَكْنَنِي
أَجَبَّ السَّنَامِ حَائِراً حِيْنَ أَنْظُرُ»[2]

والنظر وضعفه، واضطرابه يلعب دوراً في إبداء الضعف في الكبر، ولهذا وصف بعضهم ما طرأ على نظره من تدهور، وعبر عنه بواقع مؤلم؛ قال الحارث ابن التوءم اليشكري في ذلك:

«وَإِذَا تَرَاءَى القَوْمُ شَخْصاً خَالَهُ
شَخْصَيْنِ ثُمَّتَ لَمْ يَكُنْ هُوَ أَبْصَرا»[3]

وخنَّابة قال مثل هذا القول:

---

(١) الايهمان: السيل، والجمل الهائج، أو السيل والحريق ومعناه أيضاً الشجاع. كتاب المعمرين: ١١٣، المعمرون والوصايا: ١٠٤.
(٢) كتاب المعمرين: ١١٥.
(٣) كتاب المعمرين: ١٠٧، المعمرون والوصايا: ٩٩.

«أَرَى الشَّخْصَ كَالشَّخْصَيْنِ وَالشَّيْخُ مُوْلَعٌ
بقَوْلِ: أَرَى ـ واللهِ ـ مَا لَيْسَ يُبْصِرُ»[1]

وذو الأصبع العدواني له مشاركة في هذا الجانب يقول في أحد بيتين وردا له:

«أَصْبَحْتُ شَيْخاً أَرَى الشَّخصَيْنِ أَرْبَعَةً
والشَّخْصَ شَخْصَيْنِ لَمَّا مَسَّنِي الكِبَرُ»[2]

وتأتي صور منفردة معبرة، تصف بعض معالم الكبر، يختارها المعمر من حياته، وما يمر به في يومه، مما يؤكد تألمه من معاناته لها، ومن هذه الصور ما يصفه ربيع بن ضبيع من تعرضه للبرد وللحر، وهمه من مجيء هذا، وحلول ذاك، فيقول:

«إِذَا جَاءَ[3] الشِّتَاءُ فَأَدْفِئُونِيْ
فَإِنَّ الشَّيْخَ يَهْدِمُهُ الشِّتَاءُ
فَأَمَّا حِيْنَ يَذْهَبُ كُلُّ قَرٍّ
فَسِرْبَالٌ خَفِيْفٌ أَوْ رِدَاءُ

(١) كتاب المعمرين: ١١٥.
(٢) كتاب المعمرين: ١٢٣، المعمرون والوصايا: ١١٣.
(٣) في «المعمرون»: إذا كان.

إِذَا عَـاشَ الفَتَـى مِئَتَيْـنِ عَـامـاً
فَقَـدْ أَوْدَى المَسَـرَّةَ والفتَـاءُ»[1]

وابن حممه الدوسي يصف قلقه عند المنام في الليل، ويشبه نفسه بمن لدغته أفعى، فهو قلق يتململ، ويتألم، يقول وهو يستطيل ليله:

«كَبُرْتُ وَطَالَ العُمْرُ حَتَّى كَأَنَّنِي
سَلِيْمُ أَفَاعٍ، لَيْلُهُ غَيْرُ مُوْدَعِ»[2]

وَيَخْتَارُ مُسَافِعُ بن عبدالعزَّى زاوية أخرى لتصوير جانب الضعف عند المعمر فيقول:

«يَـرَانَـا أَهْلُنَـا لاَ نَحْـنُ مَـرْضَـى
فَنُكْـوَى أَوْ نُلَـدُّ، وَلاَ صِحَـاحِ
وَلاَ نُرْوِي الفِصَالَ[3] إِذَا اجْتَمَعْنَا
عَلَى ذِيْ دَلْوِنَا والحَفْرُ طَاحِ»[4]

وضاق عمرو بن ثعلبة بهزء امرأته بشيبه، وصدودها

---

(١) كتاب المعمرين: ١٦، المعمرون والوصايا: ١٠.
(٢) كتاب المعمرين: ٣٧، المعمرون والوصايا: ٢٩.
(٣) في «المعمرون»: العضال.
(٤) كتاب المعمرين: ٣٩، المعمرون والوصايا: ٣٠، وطاح: مملوء.

عنه بسببه، وجفوتها له، ونبهها أن الشيب مثل الثوب المستعار، وكأنه يقول لها: إن شبابك هذا مؤقت، وأنك ستشيبين مثلي، وإنك صائرة إلى ما صرتُ إليه؛ يقول عمرو:

«تَهَزَّأَتْ عِرْسِي وَاسْتَنْكَرَتْ
شَيْبِي فَفِيْهَا جُنَفٌ وَازْدِرَاءُ
لاَ تُكْثِرِي هُزْءاً، وَلاَ تَعْجَبِي
فَلَيْسَ بِالشَّيْبِ عَلَى المَرْءِ عَارُ
عَمْرَكِ، هَلْ تَدْرِيْنَ أَنَّ الفَتَى
شَبَابُهُ ثَوْبٌ عَلَيْهِ مُعَارُ»[1]

ويصور أنس بن مدرك الخثعمي تغير عيش الكبير المعمر، فيعبر بالمرارة بعد الحلاوة، وأن العمر قد تقدم، وصاحبه هرم على وشك أن يولي، وينتهي من هذه الحياة، بعد أن انحطت قواه، وذهب شبابه فيقول:

«إِذَا مَا الْمَرْءُ عَاشَ الهُنَيْدَةَ سَالِماً
وَخَمْسِيْنَ عَاماً بعدَ ذَاكَ وَأَرْبَعَا

---

(١) كتاب المعمرين: ٥٠، المعمرون والوصايا: ٤٢.

تَبَدَّلَ مُرُّ العَيْشِ مِنْ بَعْدِ حُلْوِهِ
وَأَوْشَكَ أَنْ يَبْلَى وَأَنْ يَتَسَعْسَعَا»[1]

وعبدالله بن سبيع الحميري يرسم صورة مبتدعة، فهو يقارن بينه وبين الأيام، ويغبطها ضمناً على ما تمتع به مما هو محروم منه، فالأيام شبابها يتجدد، وشبابه يضمحل ولا يعوض، ويذهب فلا يعود، ويبلى ولا يتجدد، يقول:

«أَرَانِيْ كُلَّمَا هَرَّمْتُ يَوْمًا
أَتَى مِنْ بَعْدِهِ يَوْمٌ جَدِيْدُ
يَعُوْدُ شَبَابُهُ فِيْ كُلِّ فَجْرٍ
وَيَأْبَى لِيْ شَبَابِيْ، لَا يُعُوْدُ»[2]

ونفاجأ بصورة مرعبة لم نعهدها في محيط الصحراء العربية، وإنما سمعنا أنها كانت عادة ثابتة عند الاسكيمو، لهذا أصبحت سبة عند هذا الحي من العرب الذي أقدم عليها، فقد ارتحلوا، وتركوا أباهم

---

(١) كتاب المعمرين: ٥١، المعمرون والوصايا: ٤٢.
(٢) كتاب المعمرين: ٥٢، المعمرون والوصايا: ٤٣.

الهرم للسباع والطير؛ ينقل صاحب كتاب المعمرين فيقول ما معناه:

«عاش أوس بن حارثة مئتي سنة وعشرين سنة، حتى هرم، وذهب سمعه وعقله، وكان سيد قومه، وفي بيتهم، فبلغنا أن بنيه ارتحلوا، وتركوه في عرصتهم حتى هلك فيها ضيعة، وهم يسبون بذلك اليوم.

وفي ذلك يقول الأسحم بن الحارث من جديلة طيء:

أَتَانِي بِالْمَحَلَّةِ أَنَّ أَوْسًا
عَلَى شَظْنَانَ مَاتَ مِنَ الهُزَالِ
تَحَمَّلَ أَهْلُهُ وَاسْتَوْدَعُوهُ
خَسِيًّا مِنْ نَسِيْجِ الصُّوْفِ بَالِي
تَظَلُّ الطَّيْرُ تَعْفُوهُ وُقُوْعًا
أَلاَ يَا بُؤْسَ لِلشَّيخِ المُذَالِ»[1]

ومن الصور المؤلمة حقاً صورة وردت عن عدي ابن حاتم، بعد أن كبر سنه وعمر، ويقال إنه بلغ مئة

(١) كتاب المعمرين: ٥٤، المعمرون والوصايا: ٤٦.

وثمانين عاماً، ونتأت عظامه، فكان يبحث عن وطاء لين يتقي به قساوة الأرض، وشدتها على جسمه عندما يجلس في النادي مع قومه، وحيث إن الجلوس على شيء يعتبر تميزاً، فقد طلب الوطاء على استحياء، مؤكداً أن طلبه هو من داعي الحاجة، فهو يستأذن قومه، يقول صاحب كتاب المعمرين تمهيداً للأبيات التي كانت نفثة حرّى من عدي بن حاتم:

«فلما أسن (عدي بن حاتم) استأذن قومه في وطاء يجلس عليه في ناديهم، وقال:

إني أكره أن يظن أحدكم أني أرى عليه فضلاً، ولكني قد كبرت، ورق عظمي.

فقالوا: ننتظر.

فلما أبطؤا عليه أنشأ يقول:

أَجِيبُوا يَا بَنِيْ ثُعَلِ بْنِ عَمْرٍو
وَلاَ تَكِمُوا الجَوَابَ مِنَ الحَيَاءِ
فَإِنِّي قَدْ كَبُرْتُ وَرَقَّ عَظْمِيْ
وَقَلَّ اللَّحْمُ مِنْ بَعْدِ النَّقَاءِ

وَأَصْبَحْتُ الغَدَاةَ أُرِيْدُ شَيْئاً
يَقِيْنِي الأَرْضَ مِنْ بَرْدِ الشِّتَاءِ
وِطَاءاً يَا بَنِيْ ثُعَلَ بْنِ عَمْرٍو
ولَيْسَ لِشَيْخِكُمَ غَيْرُ الوِطَاءِ
فَإِنْ تَرْضَوا بِهِ فَسُرُوْرُ رَاضٍ
وَإِنْ تَأْبَوا فَإِنِّي ذُو إِبَاءِ
سَأَتْرُكُ مَا أَرَدْتُ لِمَا أَرَدْتُم
وَرَدُّكَ مَنْ عَصَاكَ مِنَ العَنَاءِ
لأَنِّي مِنْ مَسَاءَتِكُمْ بَعِيْدٌ
كَبُعْدِ الأَرْضِ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ
وَإِنِّي لاَ أَكُونُ بِغَيْرِ قَوْمِي
فَلَيْسَ الدَّلْوُ إِلاَّ بِالرِّشَاءِ

فأذنوا له أن يبسط في ناديهم، وطابت به أنفسهم، وقالوا:

أنت شيخنا، وابن سيدنا، وما فينا أحد يكره ذلك، ولا يدفعه». (١)

---

(١) كتاب المعمرين: ٥٥، المعمرون والوصايا: ٤٧.

هذه صورة فريدة معبرة، شيخ كبير، أمضه الكبر، أراد أمراً سهلاً، يريح بدنه البالي، دون أن يكون في هذا ضرر على أحد، فِراش يكون بين عَدِيٍّ الهَرِم والأرض.

جاء طلب الشيخ توسلاً، مما يدل على أنه قد لمس تبرم قومه به، ومللهم من بقائه، وصدودهم عنه، واستثقالهم له؛ ويؤكد هذا تلكؤهم في الاستجابة لطلبه التافه هذا، مما اضطره أن يقول أبياتاً يشرح لهم فيها حاله؛ ويتواضع تواضعاً مؤلماً، فيجعلهم في الخيار بين أن يستجيبوا أو يرفضوا، فهو لن يغضب إن لم يستجيبوا، فهم قومه، وهو مستعد أن يتنازل عن طلبه، لأنه غير قادر على غير ذلك، لأن فيه عناءًا؛ ثم يؤكد أنه لن يسوءهم رغم عدم إحسانهم إليه بالاستجابة لطلبه؛ لأنه بقومه، وبغيرهم لا قيمة له، مثل الدلو إذا جاء بدون رشاء، فلن يمتح ماءاً من البئر، ويصبح عديم الفائدة، قليل النفع، بل عبأ في الحمل والوضع.

ثم استجاب قومه لطلبه، تُرى هل كان هذا عطفاً منهم، وندماً على ما بدر منهم من تردد وتلكؤ، أم أنهم خافوا أن يزيد ألمه فيهجوهم، فيكون في ذلك سبة عليهم، وقد صار سبة عليهم بمجرد أن رسمت هذه الصورة المحزنة.

وعدي هذا يصور عجزه عما يريد إتيانه بسبب الهرم، فيقول عندما عجز عن الخروج على المختار عندما تغلب على الكوفة:

«أَصْبَحْتُ لَا أَنْفَعُ الصَّدِيْقَ وَلَا
أَمْلِكُ ضُرًّا لِلشَّانِيءِ الشَّرِسِ
وإِنْ جَرى بِيَ الجَوَادُ مُنْطَلِقاً
لَا يَمْلِكُ الكَفُّ رَجْعَةَ الفَرَسِ»(١)

حتى لو استطاع أن يستقر على ظهر الفرس، وعدا به، فإن يده لا تملك اللجام لضعفها، فلا يستطيع أن يدير الفرس يميناً أو يساراً، أو يعيدها إلى منطلقها، وهذا يشبه الصورة التي مرت بنا، وقد رسمها ربيع

(١) كتاب المعمرين: هامش ٥٥.

ابن ضبيع حيث يقول:

«لا أملك رأس البعير إن نفرا».

ويرسم عامر بن الظرب صورة لضعفه، وقد بلغ سن الهرم، فيلفت النظر إلى سرعة تنامي الشَّعَر الأبيض في حاجبيه، فلا تبيض شعرة إثر أخرى، وإنما ثنتان ثنتان؛ ويظنها كلاباً، تدور حوله، لضعف بصره، وأحياناً يظن أنهن أبقار وحش، ويتطلع إلى أنفه فيظنه شخصاً يسير أمامه، يقول:

«أَرَى شَعَرَاتٍ عَلَى حَاجِـ
ـبِيّ بِيْضًا نَبَتْنَ جَمِيْعاً تُؤَامَا
أَظَلُّ أُهَاهِيْ بِهِنَّ الكِلاَ
بَ أَحْسَبُهُنَّ صِوَاراً قِيَامَا
وَأَحْسَبُ أَنْفِيْ إِذَا مَا مَشَـ
ـيْتُ شَخْصًا أَمَامَي(١) فَقَامَا»(٢)

ومسعود بن مصاد بن حصن من كلب، ويقال

---

(١) في «المعمرون»: رآني فقاما.

(٢) كتاب المعمرين: ٦٥، المعمرون والوصايا: ٥٦.

إنه بلغ من العمر مئة وأربعين عاماً، وقد صور ضعفه بالصورة الآتية:

«أَصْبَحْتُ يَا أُمَّ بَكْرٍ قَدْ تَخَوَّنَنِيّ
رَيْبُ الزَّمَانِ وَقَدْ أَزْرَي بِيَ الكِبَرُ
لَا أَسْتَطِيْعُ نُهُوضاً بِالسَّلَاحِ وَلَا
أَمْضِي الهُمُوْمَ كَمَا كُنْتُ أَبْتَكِرُ
أَمْشِي عَلَى مِحْجَنٍ وَالرَّأْسُ مُشْتَعِلٌ
هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ طَالَ العَيْشُ والْعُمُرُ
قَدْ كُنْتُ فِيْ عُصُرٍ لَا شَيْءَ يَعْدِلُهُ
فَبَانَ مِنِّي وَهَذَا بَعْدَهُ عُصُرُ»(١)

صور صادقة للضعف الذي يصاحب الهرم، وتأتي مع المشيب، بعد أن يولي الشباب بِنَشَاطه، وحيويته، فمسعود لو لبس سلاحه عجز عن النهوض به من الأرض، لأن أعضاءه لضعفها لا تساعده على ذلك؛ والهموم أصبحت تتجمع عليه وتتراكم، ولم يعد يقدر أن يبددها بفكر الشباب، ووسائله المختلفة،

---

(١) كتاب المعمرين: ٧٨، المعمرون والوصايا: ٧١.

كما كان يفعل من قبل؛ وعند المشي يتوكأ على عصا، ورأسه مشتعل الشعر بالبياض الواضح من جراء العمر الطويل، والعصر المتتابع الفترات الذي مر به.

وعوف بن سبيع يقال إنه وصل في عمره إلى مئة وثمانين سنة، وقال عن شيخوخته:

«أَلا هَلْ لِمَنْ أَجْرَى ثَمَانِيْنَ حِجَّةً
إِلَى مِئَةٍ عَيْشٌ وَقَدْ بَلَغَ المَدَى
وَمَا زَالَتِ الأَيَّامُ تَرْمِي صِفَاتِه
وَتَغْتَالُهُ حَتَّى تَضَعْضَعَ وانْحَنَى»(١)

يعطي صورة تمثل الأيام وهي تقضي على مزايا الشباب فيه، واحدة تلو الأخرى، حتى استطاعت أن تأخذ منه ما عنده، وتتركه ضعيفاً مهدماً، قد طاح وانحنى.

وتأتي صورة بديعة، مبتكرة، أغرم بها الأدباء والكتاب، فنقلوها في كتبهم، وأبرزوها في أقوالهم، وتمثل بها الشيوخ، واقتبسها المتحدثون عن الشيب؛

---

(١) كتاب المعمرين: ٧٩، المعمرون والوصايا: ٧١.

ولهم الحق في ذلك، فهي صورة لتمثيلية متكاملة، فالشاعر يصور انحناءه بانحناء الصائد الذي يحني جذعه، أملاً في أن يختل الصيد، فلا يراه فيصطاده بمفاجأة منه؛ ويؤكد هذه الصورة بذكر قِصَر خطوته، حتى أن من يراه من بعد يظن أن قدميه مقيدتان بقيد، هذه الصورة البديعة رسمها المعمر أبو الطمحان القيني حنظلة حين يقول:

«حَنَتْنِي حَانِيَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى
كَأَنِّي خَاتِلٌ يَدْنُو لِصَيْدِ
قَرِيْبُ الخَطْوِ يَحْسَبُ مَنْ رَآنِي
ـ وَلَسْتُ مُقَيَّداً ـ أَنِّي بِقَيْدِ»(١)

وعبيد بن الأبرص الأسدي عمر حتى لم يبق من أقرانه أحد، ولم يبق له مسامر أو مصاحب في سهره وقلة نومه إلا بنات نعش، وغيرها من النجوم المضيئة، يتسلى برؤيتها حتى ينتهي ليله، يقول:

---

(١) الأمالي: ١/ ١١٠، عيون الأخبار: ٢/ ٣٢٣، كتاب المعمرين: ٨٠، محاضرات الأدباء: ٢/ ١٤٨، بهجة المجالس: ٣/ ٢٣١، ولأحمد بن يحيى النحوي قيد، انظره في الأمالي: ١/ ١٠٩، المعمرون والوصايا: ٧٢.

«فَنِيتُ وَأَفْنَانِي الزَّمَانُ وَأَصْبَحَتْ
لِدَاتِيْ بَنُو نَعْشٍ وَزُهْرِ الفَرَاقِدِ»[1]

ولبيد وقد عمر حتى قيل إنه بلغ مئة وعشرين عاماً يصف وصفاً وافياً ما آلت إليه حاله، وما أصبح عليه بعد أن جاء المشيب، وولّى عهد الشباب، فيقول بصورة بيانية بديعة: إن بنات الدهر، وهي الأيام والليالي، والأسابيع والأشهر، والسنون، رمته بسلاحها؛ ويرثي لحاله أنه لا يستطيع أن يرميها كما رمته؛ فهي بسلاح، وهو بدونه، وهو أعزل لا يتقي سلاحها، ولا يقابلها بمثله، هو مستسلم لسلطان الأيام تأكل حياته، ولو كانت ترميه بما يعرفه من نبال لاتقاها، ولكن سلاحها مختلف وهو من نوع لا يملك البشر مثله؛ والناس عندما يرون عدم حيلته يتعجبون منه، وهو الذي يعرفونه جلداً، شديد البطش، سريع النجدة، شجاع الهجمة؛ يقول لقد فنيت، وما أفنيت من الدهر شيئاً؛ وانتهى بي الأمر

---

(١) كتاب المعمرين: ٨٤، المعمرون والوصايا: ٧٦.

إلى الضعف، حتى صرت أمشي على الراحتين، أو أقوم عليهما، وعلى العصا، والنهوض من الأرض يأخذ مني ثلاث مراحل قبل أن أقف، وهذه هي الأبيات:

«كَأَنِّي وَقَدْ جَاوَزْتُ تِسْعِيْنَ حَجَّةً
خَلَعْتُ بِهَا عَنِّيْ عِذَارَ لِجَامِيْ
رَمَتْنِيْ بَنَاتُ الدَّهْرِ مِنْ حَيْثُ لاَ أَرَى
فَكَيْفَ بِمَنْ يُرْمَى وَلَيْسَ بِرَامِيْ
فَلَوْ أَنَّهَا نَبْلٌ إِذَنْ لاَ تَّقَيْتُهَا
وَلٰكِنَّنِي أُرْمَى بِغَيْرِ سِهَامِ
إِذَا مَا رَآنِي النَّاسُ قَالُوا: أَلَمْ يَكُنْ
جَلِيْداً شَدِيْدَ الْبَطْشِ غَيْرَ كَهَامِ
فَنِيْتُ وَلَمْ تَفْنَى مِنَ الدَّهْرِ لَيْلَةٌ
وَلَمْ يُفْنِ مَا أَفْنَيْتُ سِلْكَ نِظَامِ
عَلَى الرَّاحَتَيْنِ مَرَّةً وَعَلَى الْعَصَا
أَنُوْءُ ثَلاَثاً بَعْدَهُنَّ قِيَامِيْ»[1]

---

(١) كتاب المعمرين: ٨٦ و١٢٣، كتاب الاختيارين: ٤٦٥.

وقد سئم الحياة من طولها، وسئم سؤال الناس إياه عن حاله وما هو عليه، فقال:

«وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ الحَيَاةِ وَطُولِهَا
وَسُؤَالَ هَذَا النَّاسِ كَيْفَ لِبَيْدُ»(١)

والنمر بن تولب بن أقيش من المعمرين، وقال أبياتاً جميلة، يصور فيها نفسه، وما يعاني بأسباب الكِبر، وطول العمر، ويصف فيها علاقته بالناس، وبزوجه، وما لاحظه في نفسه، فيقول:

«لَعَمْرِي لَقَدْ أَنْكَرْتُ نَفْسِيْ وَرَابَنِيْ
مَعَ الشَّيْبِ أَبْدَالِيْ الَّذِيْ أَتَبَدَّلُ
وَتَسْمِيَتِي شَيْخاً وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ
لِيَ اسْمٌ فَلاَ أُدْعَى بِهِ وَهُوَ أَوَّلُ
وَزُهْدِي، فَيَكْفِيْنِي اليَسِيْرُ وَإِنَّنِيْ
أَنَامُ إِذَا أُمْسِيْ وَلاَ أَتَعَلَّلُ
وِظَلْعِيْ وَلَمْ أُكْسَرْ وَإِنَّ حَلِيْلَتِي
تَحُوزُ بَنِيْهَا فِي الفِرَاشِ وَأُعْزَلُ

(١) كتاب المعمرين: ٨٧، ديوان لبيد: ٣٥.

فُصُولٌ أَرَاهَا فِي أَدِيمِيْ بَعْدَمَا
يَكُونُ كَفَافَ اللَّحْمِ أَوْ هُوَ أَجْمَلُ
يُحِبُّ الفَتَى طُوْلَ السَّلامَةِ وَالغِنَى
فَكَيْفَ يَرَى طُوْلَ السَّلامَةِ يَفْعَلُ»[1]

وقد رسم صوراً مرت به، وجد أن عليه أن يظهرها، فقد تبدلت فيه أمور كثيرة، أنكرها إذْ لم تكن له إلفاً؛ فالناس اليوم ينادونه بالشيخ، ويشيرون إليه بذلك، وقد تركوا اسمه، وهو السابق والمفضل عنده؛ وكان شَرِهاً بِمُتع الحياة، ولذاتها، أما الآن فيكفيه القليل من المتع، ومن ضرورات الحياة؛ وكان يسهر ويسامر ويتعلل، أما الآن فإنه ينام مبكراً؛ واعتاد أن يرى الإنسان يعرج من كسر يصيب قدمه، ولكنه هو يعرج من غير ذلك الآن، فهو يظلع من الكِبَرِ، وامتداد العمر؛ وزوجته تتجنبه في الفراش، وتفضل أن تحتضن بنيها؛ ثم بدأت الأخاديد تغزو

(١) وزاد صاحب بهجة المجالس: ٢/ ٢٢٧.
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة ينوء إذا رام القيام ويُحمل
كتاب المعمرين: ٨٧، المعمرون والوصايا: ٧٩.

جلده، وترخي عضلاته ولحمه.

وبعد أن يُعدد ذلك، ويرسمه بلغة بليغة، وصور بيانية واضحة جميلة، يتعجب من الإنسان الذي يتمنى طول البقاء، والغِنى، وهذا ما يأتي به امتداد العمر من آلام ومنغصات.

وزهير يحمل تكاليف الحياة، وسأمه منها في قوله:

«سَئِمْتُ تكَالِيْفَ الْحَيَاةِ وَمنْ يَعِشْ
ثَمَانِيْنَ حَوْلاً، لاَ أَبَا لَكَ، يَسْأَمِ»[1]

ومن سئم وبقي متعلقاً في الحياة فلأن هناك آمالاً تشده إليها، وهي أقرب للخيال، وقد يكون عند بعضهم فَزَع من الموت؛ وثوب بن تلده الأسدي، وهو من قيل عنه أنه عاش مئتين وعشرين سنة، يذكر أن ما يلهي المعمر عن أحداث الزمن الموصلة إلى المنية هي الأماني الكاذبة، فيقول:

«وَإِنَّ أمْرءاً قَدْ عَاشَ عِشْرِيْنَ حَجَّةً
إِلَـى مِئَتَيْـنِ كُلُّهَـا هُـوَ دَائِـبُ

(١) كتاب المعمرين: ٩١، المعمرون والوصايا: ٨٣.

لَرَهْنٌ لأَحْدَاثِ المَنَايَا وَإِنَّمَا
يُلَهِّيْهِ فِي الدُّنْيَا مُنَاهُ الكَوَاذِبُ»(١)

وإذا كان لبيد فيما مر من أبياته ذكر ما رمته به بنَات الدهر، بمرورها المتوالي، وكرها عليه حتى أضعفته، فالمسجاح بن خالد بن الحارث يأتي في أبيات له على صورة مماثلة تُري مر الأيام المتعاقب، والكون عامر، فإذا كان هناك من ذهب فهناك من يأتي، يقول المسجاح:

«لَقَدْ طَوَّفْتُ فِي الآفَاقِ حَتَّى
بَلِيْتُ وَقَدْ أَنَى لِيَ لَوْ أَبِيْدُ
وَأَفْنَانِي وَمَا يَفْنَى نَهَارٌ
وَلَيْلٌ كُلَّمَا يَمْضِيْ يَعُوْدُ
وَشَهْرٌ مُسْتَهِلٌّ بَعْدَ شَهْرٍ
وَحَوْلٌ بَعْدَهُ حَوْلٌ جَدِيْدُ
وَمَفْقُوْدٌ عَزِيْزُ الفَقْدِ تَأْتِي
مَنِيَّتُهُ وَمَأْمُوْلٌ وَلِيْدُ»(٢)

(١) كتاب المعمرين: ٩٢، المعمرون والوصايا: ٨٤.
(٢) كتاب المعمرين: ١٠٣، المعمرون والوصايا: ٩٥، شرح الحماسة: ٣/ ٤٩.

ويتحسر الحارث بن حبيب الباهلي على شبابه بصراحه وحرقة، وقيل إنه عمر مئة وستين سنة، فيتمنى أن هناك شباباً يباع فيشتريه بأغلى الأثمان، يَسْوَدُّ منه شعره بعد أن أبيض، ويتقوم معه صلبه بعد أن أنحنى، وأصبح مشيه دبيباً، يقول الحارث بلوعة وحرقة:

«أَلَا هَلْ شَبَابٌ يُشْتَرَى بِرَغِيْبِ
يُدَلُّ عَلَيْهِ الحَارِثُ بْنِ حَبِيْبِ
فَمَنْ لِاسْوِدَادِ الرَّأْسِ بَعْدَ ابْيِضَاضِهِ[1]
وَمَنْ لِقَوَامِ الصُّلْبِ بَعْدَ دَبِيْبِ»[2]

وعندما يتحسر على شبابه، وقت كبره وضعفه، ففي ذهنه ما كان عليه أيام الشباب، من قوة وفتوة، يصفها بأبياته الآتية:

«كَمْ مِنْ أَسِيْرٍ تَائِهٍ فَدَيْتُهُ
وَمِنْ كَمِيٍّ مُعْلَمٍ أَرْدَيْتُهُ

---

(١) في كتاب المعمرين ورد هذا الشطر هكذا: فمن لا سِوداد بعد ابيضاضه.
(٢) كتاب المعمرين: ١٠٥، المعمرون والوصايا: ٩٧.

وَمُسْــرِعٍ بِسَــرْوِهِ جَــازَيْتُــهْ
وَمُبْطِــئٍ بِــرِفْــدِهِ كَفَيْتُــهْ
وَمُغْلِــنٍ بِضِغْنِــهِ كَــوَيْتُــهْ
لوْ كَانَ يُشْرَى المَوْتُ لاشْتَرَيْتُهْ»[1]

وكل هؤلاء المعمرين، وهم يشكون من الكبر، ويبدون سأمهم من طول السنين التي مرت بهم، يتذكرون ما كانوا عليه من شدة وبأس، وأهميتهم عند الناس؛ يحسب لهم حساب واعتبار في الحروب والأسفار، ويلهج ببطولاتهم ونجداتهم، ومواقف الشجاعة التي برزوا فيها؛ والمقارنة بين ما كانوا عليه، وما صاروا إليه تذكي نار الحسرة في قلوبهم؛ وبقدر ما يشعرون به من إهمال ممن حولهم، واستثقال لوجودهم، تكون درجة أساهم وحرقتهم.

يقول أحد المعمرين وهو كهمس بن شعيب الدوسي، عن سابق شبابه، وما اضمحل من قوته:

(١) كتاب المعمرين: ١٠٤، المعمرون والوصايا: ٩٦.

«أَلاَ رُبَّ نَهْبٍ يَخْطُرُ الْمُوْتُ دُوْنَهُ
حَوَيْتُ، وَقِرْنٍ قَدْ تَرَكْتُ مُجَدَّلاَ
وَخَيْلٍ كَأَسْرَابِ القَطَا قَدْ وَزَعْتُهَا
بِخَيْـلٍ تُسَـاقِيْهَـا ثُمَـالاً مُثَمَّـلاَ
وَلَذَّاتِ عَيْشٍ قَدْ لَقِيْتُ وَشِدَّةٍ
صَبَرْتُ لَهَا جَأْشِيْ وَلَمْ أَكُ أَعْزَلاَ
وَمُسْتَلْحِـمٍ فِيْـهِ الأَسِنَّـةُ شُـرَّعٌ
دعَانِي حَذَاراً أَنْ يُصَابَ وَيُقْتَلاَ
سَعَيْت إِلَيْهِ سَعْيَ لاَوَاهِنِ القُوَى
ولاَ عَاجِزٍ لاَ يَسْتَطِيْعُ التَّحَلْحُلاَ
فَنَفَّسْتُ عَنْهُ الخَيْلَ وَانْتَشْتُ نَفْسَهُ
وقَدْ عَايَنَ الأَبْطَالَ أَخْوَلَ أَخْوَلاَ
وَقَدْ عِشْتُ حَتَّى مَلِلْتُ مَعِيْشَتِيْ
وأَيْقَنْتُ حَقّاً أَنْ سَأَلْقَى المُوكَّلاَ
وَأَلاَّ نَجَـاةَ لاِمْـرِئٍ مِـنْ مَنِيَّـةٍ
ولَوْ حَلَّ فِيْ أَعْلَى شَمَارِيْخَ يَذْبُلاَ»(١)

(١) كتاب المعمرين: ٣٨، المعمرون والوصايا: ٢٩.

والأمثلة كثيرة على هذا النمط، وسأكتفي بهذا المثل، لأن بقية الأمثلة تشبهه، أو قريبة منه، ونعود إلى الصور المختلفة التي يبتدعها المسنون في وصف حالهم مع أنفسهم ومع من حولهم.

ونجد أن النعمان بن بَليّ قد عمر دهراً على ما قيل، وقد رأى في الكهولة صورة سجلها في بيتين، ذكر فيهما أن عينيه تهدلتا بعد أن كانتا مُشتدتين، وكان في أول أمره راضياً عن حالهما، ولكنه الآن أنكر من أمرهما أنهما لا يساعدانه على الرؤية الحقة، فيرى الشخص الواقف على الأرض، وكأنه راكب على بعير؛ ولاختلال رؤيته فإنه يضطر أن يبعد عما يريد أن ينظر إليه حتى يحققه، لأنه لا يميزه عن قرب، يقول النعمان بن بلي:

تَهَدَّلَتِ العَيْنَانِ بَعْدَ طَلاوَةٍ
وَبَعْدَ رِضًى فَأَحْسِبُ الشَّخْصَ رَاكِبَا
وَأُبْعِدُ مَا أَنْكَرْتُ كَيْ اسْتَبِيْنَهُ
فَأَعْرِفُهُ وَأُنْكِرُ المُتَقَارِبَا»[1]

---

(١) كتاب المعمرين: ١١٢.

وتهدل الحاجبين مظهر من مظاهر الهرم، وقد عانى منه أحد المعمرين فعالجه بعصابة تشد الحاجبين، ليتمكن صاحبهما من الرؤية، وهذا خبر الشاعر وحاجبيه:

«ذكر المبرد أن محمد بن عبدالله بن طاهر نظر إلى حاجب له[1]، قد رفع حاجبه عن عينيه بعصابة، من الكبر، فقال:

كم أتى لك من السنين، يا أبا المجد؟

فقال مجيباً له:

يَا ابْنَ الَّذِيْ دَانَ لَهُ المُشْرِقَا
نِ مِنْ بَعْدِ أَنْ دَانَ لَهُ المَغْرِبَانْ
إِنَّ الثَّمَانِيْنَ ـ وَبُلِّغْتَهَا ـ
قَدْ أَحْوَجَتْ سَمْعِي إِلَى تُرْجُمَانْ
وَبَدَّلَتْنِيْ بِالشَّطَاطِ[2] انْحِنَا
وَكُنْتُ كَالصَّعْدَةِ تَحْتَ السِّنَانْ

(١) في الأمالي للقالي: ١/ ٥١ «أن عوف بن ملحم الخزاعي (أبا المجد) دخل على عبدالله بن طاهر، فحياه عبدالله، فلم يسمع، فأعلم بذلك، فزعموا أنه ارتجلها.

(٢) الشطاط: حسن القوام، واعتدال الجسم.

وَقَارَبَتْ مِنِّي خُطًا لَمْ تكُنْ
مُقَارَبَاتٍ وَثَنَتْ مِنِّي العِنَانْ
وَأَنْشَأَتْ بَيْنِي وَبَيْنَ الوَرَى
عَيَابَةً[1] مِنْ غَيْرِ نَسْجِ العَيَانْ
لَمْ تُبْقِ لِي عَظْماً وَلَا مَفْصِلًا
إلا لِسَانِي وَكَفَانِي اللِّسَانْ
أَدْعُو بِهِ اللهَ وَأُثْنِي عَلَيْهِ
عَلَى الأَمِيرِ الطّاهِرِيّ الجَنَانْ»[2]

وإذا كان أبو المجد قد دعا لمحمد بن عبدالله بن طاهر بطول العمر، حتى يبلغ الثمانين، بقوله في جملة معترضة: «وبُلِّغتَهَا»، فإن شاعراً آخر، حنق على عائب عليه المشيب عندما آن أوان مجيئه، دعا على عائبه أن لا يبلغ السن التي بلغها، وبان عليه بسببها المشيب، فيقول:

وَعَائِبٍ عَابَنِي بِشَيْبٍ
لَمْ يَعْدُ لَمَّا أَلَمَّ وَقْتَهُ

(١) العيابة: السحابة الرقيقة.
(٢) الأمالي: ١/ ١١٠.

فَقُلْــتُ إِذْ عَــابَنِــيْ بِشَيْبِــيْ
يَا عَائِبَ الشَّيْبِ، لاَ بُلِّغْتَه!»[1]

ويصف المساور بن هند بن زهير حال المشيب، ويرسم بعض الصور التي رأى فيها تغير حاله بعد أن ولى الشباب، وحل محله المشيب، فيقول:

أَوْدَى الشَّبَـابُ فَمَـا لَـهُ مُتَقَفَّـرُ
وَفَقَدْتُ أَتْـرَابِي فَـأَيْـنَ المَغْبَرُ
وَأَرَى الغَوَانِيْ بَعْدَمَا أَوْجَهْنَنِيْ
أَعْرَضْنَ ثُمَّتَ قُلْنَ شَيْخٌ أَعْوَرُ
وَرَأَيْنَ رَأْسِيْ صَارَ وَجْهاً كُلَّهُ
إِلاَّ قَفَـايَ وَلِحْيَـةٌ مَـا تُضْفَـرُ
وَرَأَيْنَ شَيْخاً قَدْ تَحَنَّى ظَهْرُهُ
يَمْشِيْ فَيُقْعِسُ أَوْ يَكِبُّ فَيَعْثُرُ»[2]

والصلع من السمات التي تبدأ مع بدء مغادرة الشباب، وفيه ذعر للرجال، ولأنه نذير لما بعده من

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٢، الأمالي: ١/ ٥١.
(٢) شرح ديوان الحماسة: ٢/ ٣٠.

علامات المشيب، ومن الصور الساخرة التي ترسم للصلع ما قاله أحد الشعراء فيه، يقول:

«قَدْ تَرَكَ الدَّهْرُ صَفَاتِيْ صَفْصَفَا
فَصَارَ رَأْسِي جَبْهَةً إِلَى القَفَا
كَأَنَّهُ قَدْ كَانَ رَبْعاً فَعَفَا
أَمْسَى وَأَضْحَى لِلْمَنَايَا هَدَفَا»[1]

ومحمود الوراق من أصحاب الصور الناطقة؛ في شعره إبداع، وسلاسة؛ ولعل لمهنته أثراً على ما تحصل عليه من علم وملكة، وله أبيات عن بعض سمات المشيب، ومنها الصلع[2]؛ وجاء على عدد من العلامات التي قالها من سبقوه، يقول:

«أَلاَ رُبَّ ذِيْ أَمَلٍ كَاذِبٍ
بَعِيْدِ الرَّجَاءِ قَوِيِّ الطَّمَعْ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٢٩.
(٢) وعن الصلع يقول الشاعر:
إذا رأيت صلعاً في الهامة وحدباً بعد اعتدال القامة
وصار شعر الرأس كالثغامه فايأس من الصحة والسلامة
بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٦.

تَمَنَّى البَقَاءَ تَمَادَى بِهِ
أَجَابَ القَضَاءُ، فَمَاذَا صَنَعْ؟
تَجَرَّدَ أَكْثَرُ جُثْمَانِهِ
وفَرَّقَ مَا كَانَ مِنْهُ جَمَعْ
وَدَلَّ المَشِيبُ عَلَى رَأْسِهِ
وأَعْقَبَ مَا بَعْدَ شَيْبٍ صَلَعْ
وَقَوَّسَ مَتْنَيْهِ بَعْدَ اعْتِدالٍ
وأَثْبَتَ فِي الرِّجْلِ مِنْهُ ضَلَعْ
فَمَنْ يُسَرُّ بِطُوْلِ البَقَاءِ
إذَا كَانَ يُبْدِعُ هٰذِي البِدَعْ»[1]

ولبيد[2] من الذين يعتد بشعرهم، وله مشاركة في رسم صورة الكبر، وما يفعله المشيب بالإنسان، يقول فيها:

«المَرْءُ يَأْمُلُ أَنْ يَعِيْـ
ـشَ، وَطُوْلُ عَيْشٍ قَدْ يَضُرُّهْ

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣١.
(٢) ويقال: إن هذه الأبيات للنابغة الجعدي، الأمالي: ٢/ ٨.

تَفْنَــى بَشَـــاشَتُـــهُ وَيَبْقَـــى
بَعْــدَ حُلْــوِ العَيْــشِ مُــرُّهْ
وَتَخَـــوْنُـــهُ الأَيَّـــامُ حَتَّـــى
لاَ يَـــرَى شَيْئـــاً يَسُـــرُّهْ»[1]

ويعمد بعض شعراء العصور الإسلامية الأولى إلى صور البديع يحلون بها معانيهم، والشيب له نصيب وافٍ من ذلك، يقول محمد الوراق، ممثلاً ظهور الشيب، وهو أبيض، في شعر الشاب، وهو أسود:

«فَاجَاكَ مِنْ وَقْدِ المَشِيْبِ نَذِيْرُ
وَالـدَّهْـرُ مِـنْ أَخْـلاَقِـهِ التَّغْيِيْـرُ
فَسَوادُ رَأْسِكَ وَالْبَيَاضُ كَأَنَّهُ
لَيْـلٌ تَـدِبُّ نُجُـوْمُـهُ وَتَسِيْـرُ»[2]

وصورة بديع أخرى تنسب إلى داوود بن جهوة، وهي من أبيات خمسة، يقول منها، مشبهاً الشيب بالشمس، وملمحاً إلى أن شعره ليل، ثم يردف

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٣، والأمالي: ٢/ ٨.
(٢) الأمالي: ١/ ١٠٨.

البيت الأول بالثاني ويمثل للصبا والشيب تمثيلاً مبتدعاً، فيقول:

«وَأَنْكَرْتُ شَمْسَ الشَّيْبِ فِيْ لَيْلِ لِمَّتِيْ
لعَمْرِيْ لَلَيْلِيْ كَانَ أَحْسَنَ مِنْ شَمْسِيْ
كَأَنَّ الصِّبَا وَالشَّيْبُ يَطْمِسُ نُوْرَهُ
عرُوْسُ أُنَاسٍ مَاتَ فِيْ لَيْلَةِ العُرْسِ»(١)

ومن الصور الآخذة باللب صورة بديعية اقتنصها أبو دلف العجلي لأبيات قالها في بدء المشيب، وحوار له مع غادة وثالثهما المشيب، وأُعِدَّ لهذا الحوار مسرح فيه أخذ ورد، وللمشيب دور فاعل فيه، يقول أبو دلف:

نَظَرَتْ إِلَيَّ بِعَيْنِ مَنْ لاَ يَعْدِلُ
لمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي
لَمَّا تَبَسَّمَ بِالْمَشِيْبِ مَفَارِقِيْ
صدَّتْ صُدُوْدَ مُفَارِقٍ مُتَجَمِّلِ

---

(١) الأمالي: ١/١٠٩.

فَجَعَلْتُ أَطْلُبُ وَصْلَهَا بِتَعَطُّفٍ
وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بِأَنْ لاَ تَفْعَلِيْ»[1]

والإشعاع الباهر جاء من آخر شطر من آخر بيت، فقد جسم الشاعر الشيب، وجعله إنساناً يتصرف، وأوقفه ضد الشاعر، ومع المرأة التي حملت علم الفراق والجفوة، فجاء الشيب معيناً لها، وبقي الشاعر في الميدان وحيداً يعاني من الفقد من جميع الأمور.

ومن المعاني التي يكررها كبار السن، عندما يعددون معايب الشيب، وكبر السن، وما يعانونه من ذلك، شعورهم بالغربة بين أبناء زمنهم، فقد ذهب جيلهم، وقد يكون لحقه جيل ثان وثالث، فهم غرباء بين من حولهم.

يقول التيمي في هذا المعنى من أبيات:

«إِذَا مَا مَضَى القَرْنُ الَّذِيْ كُنْتَ فِيْهِمُ
وخُلِّفْتَ فِيْ قَرْنٍ فَأَنْتَ غَرِيْبُ»[2]

---

(١) الأمالي: ١/ ١٠٩.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٤.

ومحمود الوراق يقول من جُملة أبيات قالها عن المشيب:

«واسْتُحْصِدَ القَوْمُ الّذِيْ أَنَا مِنْهُمُ
وَكَفَى بِذَاك عَلامَةً لِحَصَادِي»[1]

ويقول النضر بن شميل من أبيات:

«وَأَصْبَحْتُ فِيْ قَوْمٍ كَأَنْ لَسْتُ مِنْهُمُ
وَبَانَتْ لِدَاتِيْ مِنْهُمُ وَضُرُوْبِيْ»[2]

وأسامة بن منقذ ممن كبر في السن، ولاحظ علامات الضعف بذهاب الشباب، ودبيب الكبر، وتقدم السن؛ وهو ممن فقد بذلك الكثير من صفات الشباب، وعلى رأسها الحركة الدائبة، والقوة المتناهية؛ فقد كان فارس ميدان، ومديم صيد، للسيف صديق، وللحصان خدن ورفيق؛ ولهذا جاء كلامه عن الشيب بديعاً، عصير ملاحظة متأنية، وتبصر عميق، يقدم لبعض الأبيات في الشيب

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٥.
(٢) بهجة المجالس: ٣/ ٢٣٧.

ومظاهره، وما جاءه منه، بقوله:

«لم أدر أن داء الكبر عام، يعدي كل من أغفله الحِمام، فلما توقّلت ذروة التسعين، وأبلاني مر الأيام والسنين، صرت كجواد العلاف، لا الجواد المتلاف، ولصقت من الضعف بالأرض، ودخل من الكبر بعضي في بعض، حتى أنكرت نفسي، وتحسرت على أمسي، وقلت في وصف حالي:

ثم يسوق أبياتاً في ذلك يدخل منها في بابنا هذا قوله:

ضَعُفَتْ قُوَايَ وَخَانَنِيْ الثِّقَتَانِ مِنْ
بَصَرِيْ وَسَمْعِي حِيْنَ شَارَفْتُ الْمَدَى
فَإِذَا نَهَضْتُ حَسِبْتُ أَنِّيْ حَامِلٌ
جَبَلًا وَأَمْشِي، إِنْ مَشَيْتُ مُقَيَّدَا
وَأَدِبُّ فِيْ كَفِّي العَصَا وَعَهِدْتُهَا
فِيْ الحَرْبِ تَحْمِلُ أَسْمَراً وَمُهَنَّدَا
وَأَبِيْتُ فِيْ لِيْنِ المِهَادِ مُسَهَّداً
قَلِقًا كَأَنِّيْ مَا افْتَرَشْتُ الجَلْمَدَا»[1]

وملله من الحياة يتبين في تكراره ملاحظته وشكواه نثراً وشعراً يقول في وصف حاله بعد الثمانين، وحاله في شبابه:

«فلا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر، ولا يؤخره شدة الحذر، ففي بقائي أوضح معتبر، فكم لقيت من الأهوال، وتقحمت المخاوف والأخطار؛ ولاقيت الفرسان، وقتلت الأسود، وضربت بالسيوف، وطعنت بالرماح، وجرحت بالسهام والجروخ، وأنا من الأجل في حصن حصين، إلى أن بلغت التسعين، فرأيت الصحة والبقاء كما قال ﷺ: «كفى بالصحة داءاً»، فأعقبت النجاة من تلك الأهوال ما هو أصعب من القتل والقتال، وكان الهلاك في كنه الجيش أسهل من تكاليف العيش؛ استرجعت مني الأيام بطول الحياة سائر محبوب اللذات، وشاب كدر النكد صفو العيش الرغد، فأنا كما قلت:

مَعَ الثَّمَانِيْنَ عَاثَ الدَّهْرُ فِيْ جَلَدِي
وَسَاءَنِي ضَعْفُ رِجْلِي وَاضْطِرَابُ يَدِي

إِذَا كَتَبْتُ فَخَطِّي جِدُّ مُضْطَرِبٌ
كَخَطِّ مُرْتَعِشِ الكَفَّيْنِ مُرْتَعِدِ
فَاعْجَبْ لِضَعْفِ يَدِي عَنْ حَمْلِهَا قَلَمًا
مِنْ بَعْدِ حَطْمِ القَنَا فِيْ لِبَّةِ الأَسَدِ
وَإِنْ مَشَيْتُ وَفِيْ كَفِّي العَصَا ثَقُلَتْ
رِجْلِي كَأَنِّي أَخُوْضُ الوَحْلَ فِيْ الجَلَدِ
فَقُلْ لِمَنْ يَتَمَنَّى طُوْلَ مُدَّتِهِ
هٰذِيْ عَوَاقِبُ طُوْلِ العُمْرِ وَالمُدَدِ»(1)

وأبيات ثالثة يسوقها عن تقدم سنه، يقدم لها بمقدمة يقول فيها:

«ضعفت القوة، ووهت، وتقضّت بلَهْنِيَة العيش، وانتهت، ونكّسني التعمير بين الأنام، وإلى الخمود تَسَعُّر الضِّرام، حتى أصبحت كما قلت:

تَنَاسَتْنِيَ الآجَالُ حَتَّى كَأَنَّنِيْ
رَذِيَّةُ سَفْرٍ بِالفَلاَةِ حَسِيْرُ

(1) الإعتبار: ١٨٢.

وَلَمَّا تَدَعْ مِنِّي الثَّمَانُوْنَ مُنَّةً
كَأَنِّي إِذَا رُمْتُ القِيَامَ كَسِيْرُ
أُؤَدِّيْ صَلاَتِي قَاعِداً وسُجُودُهَا
عَلَيَّ إِذَا رُمْتُ السُّجُودَ عَسِيْرُ»[١]

ويبدو أن أسامة بن منقذ همه الشيب، مثلما هم والده من قبل، فقد ذكر في كتابه «لباب الآداب» في باب سماه باب «الشيب» أبياتاً لوالده في الشيب، ومظهر اهتمامه يأتي عما قاله عن نفسه في الكتاب (ص: ٣٧٧)، من أنه ألف كتاباً في الشيب والكبر وفي الشباب، ولهذا اختصر ما اقتبسه منه هنا.

ولقد اقتربنا من نهاية حديثنا عن الشيب، ولعل من المناسب أن نأتي ببعض الصور على عجل، لما فيها من بريق إبداع، وتقرير دقيق لواقع بعض الشيوخ، وما يرونه في أنفسهم، وما يشبهونه به؛ ومن ذلك قول الشاعر يصف قيامه ومسيره، وما فيهما من خلل:

(١) الإعتبار: ١٨٢.

«وَقَدْ جَعَلْتُ إِذَا ما قُمْتُ يُوْجِعُنِي
ظَهْرِي، فَقُمْتُ قِيَامَ الشَّارِبِ السَّكِرِ
وَكُنْتُ أَمْشِيْ عَلَى رِجْلَيَّ مُعْتَدِلاً
فَصِرْتُ أَمْشِيْ عَلَى أُخْرَى مِنَ الشَّجَرِ»(١)

وقال آخر، والعصا إحدى مرتكزات حديثه:

«كَفَى حُزْنَاً أَنِّي أَدِبُّ عَلَى العَصَا
فَيَأْمَنُ أَعْدَائِي وَيُبْغِضُنِيْ أَهْلِي
وَيُوْصِيْ بِيَ الوَغْدُ الضَّعِيْفُ مَخَافَةً
عَلَيَّ وَمَا قَامَ الحَواضِنُ عَنْ مِثْلِيْ
أُقِيْمُ العَصَا بِالرِّجْلِ وَالرِّجْلَ بِالْعَصَا
فَمَا عَدَّلَتْ مَيْلِيْ عَصَايَ وَلاَ رِجْلِيْ»(٢)

وفي آخر بيت صورة جديدة مبتدعة، في مساعدة الرجل لنقل العصا، ومحاولة العصا مساعدة الرجل في الحركة والانتقال، ومع هذا فلم تأت واحدة منهما بعمل متقن، فميل الرجل وعرجه بقيا على ما هما عليه.

---

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٤٠.
(٢) ديوان المعاني: ٢/ ١٦٤.

والحديث عن الشيب يطول، لأن ما سجل عنه كثير، وفي بعضه من الإبداع ما يجعله جميلاً وجذاباً، وقد تفنن قائلوه فيه ما شاؤا، وجالوا في ميدانه ما وسعهم ذلك؛ وكان لهم في حقول البيان والبديع، خاصة الاستعارة، ما فسح لهم في الأفق، وأوسع في الميدان.

ولعل من المناسب أن يكون ختام هذا الباب هذه الأبيات التي تبين مراحل العمر، كما رآها ناظم الأبيات:

«ابْـنُ عَشْـرٍ مِـنَ السِّنِيْن غُـلاَمٌ
هَمُّـهُ اللَّعْـبُ مُـوْلَـعٌ بِـالْحَمَـامِ
وابنُ عِشْرِيْنَ مُوْلَعٌ بِالْغَوَانِي
لاَ يُبَـالِـيْ مَـلاَمَـةَ اللُّـوَّامِ
والَّـذِيْ يَبْلُـغُ الثَّـلاَثِيْـنَ عَـامًـا
فَضَرُوْبٌ لَدَى الوَغَى بِالْحُسَامِ
فَـإِذَا جَـازَهَـا بِعَشْـرِ سِنِيْـنَ
كَانَ أَقْوَى مِنْ كُلِّ قِرْنٍ مُسَامِ

وابْنُ خَمْسِينَ لِلنَّوائِبِ يُرْجَى
وَلِنَقْضِ الأُمُوْرِ وَالإِبْرَامِ

وابْنُ سِتِّيْنَ حَازِمُ الرَّأيِ طَبٌّ
كَامِلُ العَقْلِ ضَابِطٌ لِلْكَلَامِ

وابْنُ سَبْعِيْنَ قَدْ تَوَلَّى وَأَوْدَى
وَتَثَنَّى فَمَا لَهُ مِنْ قَوَامِ

وَالَّذِي يَبْلُغُ الثَّمَانِيْنَ عَاماً
ذَاهِبُ الذِّهْنِ دَائِبُ الأَسْقَامِ

وَابْنُ تِسْعِيْنَ تَائِهٌ قَدْ تَنَاهَى
إِنَّ تِسْعِيْنَ غَايَةُ الأَعْوَامِ

فَإِذَا جَازَهَا بِعَشْرٍ فَحَيٌّ
مِثْلُ مَيْتٍ مُوَدَّعٌ بِالسَّلَامِ»[1]

***

(١) بهجة المجالس: ٣/ ٢٤٢.

القبيلة

القبائل العربية تُكَوِّن المجتمع العربي في جزيرة العرب في عصر الجاهلية، مع عدد قليل جداً من غير العرب، إما مماليك أو أصحاب حِرَف؛ والقبائل العربية تفرعت من أصلين اثنين اتفق الكتاب والباحثون على أنهما مرجع جميع قبائل الجزيرة؛ والأصلان هما عدنان وقحطان، ومن هذين الأصلين تفرعت القبائل الكبرى، ومن القبائل الكبرى تفرعت أصغر منها، ثم أصغر، إلى أن يصل الأمر إلى العشيرة، ولا أصغر منها إلا العائلة.

والمجتمع حينئذ وفي عصر الإسلام الأول ينقسم إلى قسمين: قسم بدوي، وقسم حضري، وموطن البدوي الصحراء، وموطن الحضري المدن والقرى؛ ويسكن البدوي بيوت الشعر، ويسكن الحضري البيوت والعشش؛ ومهنة البدوي تربية الأنعام والرعي والغارة ورد الغارة؛ ومهنة الحضري التجارة

والزراعة، وبعض الحِرَف، وقد يقوم بِغَزْو أو يرد غزواً.

وحياة الرعي، والاعتماد على الأمطار، حكما حياة البادية، فالبدوي يتبع المطر، ومنابت العشب، ويتبع الخصب ومواطنه، ولكل قبيلة حِمًى لا يقترب منه أحد غيرها إذا كانت قوية، وقد يحدث اصطدام بين قبيلتين قويتين، بسبب المراعي وحمايتها، وبسبب ما يطرأ من جدب وقحط؛ وقد تستعين الضعيفة بحلفاء، فتقوى بهم، فيدخل مع هذه غيرها، ومع هذه غيرها، فتشتبك القبائل في صراع قد يدوم سنوات وسنوات، تفنى فيه الفرسان، وتنهب الأنعام، وتسبى النساء، ويؤسر الرجال، وتزرع الثارات.

وقد تقوم ملحمة حربية بسبب نظرة إعجاب أو غزل، أو بسبب مفاخرة أو منابزة، أو تسلل، أو سرقة؛ وصعاليك العرب من العناصر المقلقة في لصوصيتها، وفي حدوث نزاع ينشب، لسرقة بعير، أو حصان؛ والحاجة والعوز تدفع الشخص على

المجازفة، وعلى الاستماتة، وتدفع القبيلة إلى مثل ذلك، فتقدم على ما يدخل في باب الانتحار.

والمجاورة بين العشائر، أو القبائل، والمصاهرة تلعب دوراً كبيراً في إيجاد لحمة وتحالف بين فئتين، فقد تخرج قبيلة من حيز قومها، وتدخل حيز قبيلة أخرى، لأن هذه القبيلة أبدت استعدادها لحماية هذه القبيلة، التي لم تجد من أصلها من يوافق على حمايتها، وتَحَمُّل أخطائها، إذا ما أخطأت.

والعربي ابن القبيلة يفخر بأصله، ويفخر بأصل والدته، وقد يفخر بقبيلة والدته أكثر من فخره بقبيلته، لعزة تلك التي طبق ذكرها الآفاق في تلك الفترة، وللسمعة التي تحظى بها في تلك الحقبة، والشعراء تغنوا بذلك، ومدحوا به، وهجوا عليه، وكان مادة دسمة لهم، يستقون منها معانيهم، اعتماداً على ما تعارف عليه أهل زمنهم.

والفارس يبرز في قبيلة ما يكون له وزنه؛ ويساهم في اختيار مكان لامع لقبيلته؛ ويطير ذكره في الآفاق،

ويخشاه الفرسان، ويحسبون له حساباً، وتكتسب قبيلته نصراً قبل دخول المعركة، أو تحظى بصلح من عدوها مُجزٍ لها، خوفاً من قتال لا تضمن نتيجته؛ وما سيرة عنترة بن شداد إلاَّ مثل من أمثال الشجاعة، وبعد الصيت.

وتفخر القبيلة بالشاعر ينبغ فيها، ينشر مفاخرها، ويضخم إنجازاتها، ويمدحها، ويهجو أعداءها، يشجع مقاتليها، ويبرز حكماءها، وكرماءها، ويذب عنها بلسانه بما لا تذب عنه السيوف القاطعة، والرماح الطاعنة، والسهام المصوبة؛ والشاعر في القبيلة جيش لجب متحرك، وحارس يقظ، ورام لا يخطئ، ولادته كسب، ووفاته خسارة؛ وطالما تناطح شاعر من قبيلة مع شاعر من قبيلة أخرى، وجرى بينهما مما يؤلم أكثر من الدماء إذا جرت، وماتت بسببهما صفات، وأحييت صفات، بسبب مدح أو هجاء.

وخلاف ما يقوله بعض الكتاب من إهمال المرأة،

أو الاستهانة بها، أو استعبادها، أو اعتبارها من سقط المتاع، فالمرأة لها دور كبير بسبب الاعتبار والاحترام الذي تحظى به، أمّا، أو زوجة، أو أختا؛ أو خليلة، تسببن في خوض معارك، سالت فيها الدماء، لنخوة تجاههن، أو غسل عار، أو لتحميسهن الرجال على الإتيان بما لولاهن لما تم الإقدام على ما أُقدم عليه.

تجد النساء في مقام كريم، أو مقام مهم، في المواساة هن متواجدات، وفي الحروب هن المشجعات، والمضمدات، وفي مجال الكرم هن الحاثات، وفي مكارم الأخلاق هن الدافعات، وما شذ عن ذلك فلا يزيد عما يشذ اليوم من نساء العالم كله، خيانة أو غدراً، أو التسبب في فتنة؛ والصورة الحقة عن المرأة في الجاهلية صورة تشرف ذلك الزمن، وقد أقر الإسلام بعض ما كان سائراً في تلك الأيام، وعدل ما احتاج إلى تعديل، وأضاف إلى ما يحتاج إلى إضافة، وأزال ما يحتاج إلى إزالة.

وقد برزت نساء في الجاهلية بروزاً يدل على

ما ذكرناه مما للمرأة من مكانة متميزة؛ والخنساء مثل من الأمثلة التي يمكن أن يستشهد بها على الوفاء، وعلى نضارة الفكر، وقوة الشعر، مما أمكن لشعرها في رثاء أخيها أن يكون على الألسن إلى اليوم، بقوته، وحلاوته، وصدقه، والأنوار التي تشع فيه، مما يعكسه من عاطفة صادقة، ليست بدعاً في ذلك الزمن، ولا وقفاً على الخنساء.

ومجتمع الصحراء أوجب أموراً على الفرد والقبيلة، قوامها شظف العيش، والاعتماد على ما يكسبه الساعد، بالسيف والرمح والسهم، هجوماً، ودفاعاً، إذ لا حصون إلا ظهور الخيل، ولا بيوت إلا بيوت الشعر الهزيلة التي لا تقي من حر ولا برد؛ فساعدت على الخشونة في الجسم، والشدة في التصرف، والقسوة في الطبع؛ وهذا كله ما هو إلا انعكاس للمحيط حولهم، وطبيعة الصحراء التي تحتضنهم.

والعيش الكفاف، وندرة الزاد، والمبيت على الطوى، واللباس الخشن، وسطوة البرد دون وقاء،

والحرّ دُون ملجأ، ساهم في صياغة طبائع أهل البادية، وصبغ تصرفهم، فكانوا بهذا مثالاً لما هيأه الله لهم من بيئة صعبة، وحياة غير مستقرة، وبقائهم دائماً في خوف وأمل، خوفٍ من الجدب والقحط، وأمل في المطر والخصب، خوفٍ من الغارات والغزو، وأملٍ في النصر والنجاح، خوفٍ من العيب والفضيحة، وأمل في الفخر والاعتزاز، حتى الفرد في حياته المعتادة، إن خطب أَمَّلَ، وإن رُدَّ خاب، وإن أحب أَمَّل، وإن لم ينل مطلوبه قتله العشق، وقضى عليه الغرام، وما مجنون ليلى ببعيد.

البدوي في الصحراء يعتمد في قوته، ونجاح أمر حياته، ومعيشته على ركنين قويين: الحصان والبعير، هذا لغزوه مهاجماً أو مدافعاً، وهذا لرحيله وحمله، وغزوه أيضاً؛ ومن لم يكن له بعير أو حصان، فهو تبع لمن حاز أحد هذين الإثنين، وقت الرحيل أو الغزو، ومن لا حصان له أو لا بعير له يأتي في الصف الثاني في مجتمع البادية؛ ويرقى فجأة بعد غزوة أو

غارة لأنه كسب حصاناً يصول به ويجول ويباهي.

ولأهمية الخيل في الحفاظ على حياة القوم أصبح لأصالتها أهمية عندهم تعدل نسبهم هم، والأصالة تعني قوة البدن، وحسن العمل، وتمام الإدراك، وقوة الذكاء؛ فالحصان في داخل المعركة له تصور تتوقف عليه عندهم حياة صاحبه أو موته، سلامته أو جرحه؛ يحافظ الفارس عليه مثلما يحافظ على نفسه؛ بل أكثر، فهو يفضله في توفير الغذاء والراحة، والحماية من الحر والقر أكثر مما يوفر لنفسه وعياله، فقد يبيت الطوى، ليغذي حصانه، ويحرم عياله ونفسه من الحليب، ليسقيه إياه؛ نظرته إليه نظرة وجد، وتصرفه معه تصرف حنان.

عرف العربي ما يحتاجه حصانه، وما يحبه ويرضاه، وما يكرهه وما ينفر منه، فوفر له هذا، وجنبه هذا؛ عرف مآتي صحته، ومآتي مرضه، فحرص على هذا، وراقب هذا، عينه عليه لا تغفل، يبادره بالراحة والعلاج متى ما رأى حاجته إلى ذلك، عرف جسمه

بالتفصيل عضواً عضواً، وعرف متى يكون هذا العضو صحيحاً متميزاً، ومتى يكون ضعيفاً أو معيباً؛ وفر ظهره ليوم حاجته، فهو في الانتقال يُجْنَبُ بجانب البعير، مكرماً لا حمل عليه، ليبقى ظهره كريماً إلا من ركوب صاحبه عليه، وقت الحرب، حينئذ يؤخذ منه ما وُفر له، ويُعطي هو بقدر ما أخذ، ويبقى الحصنَ الذي يعتمد عليه صاحبه.

والجمل مثل الحصان في الأهمية، إلا أن مجال الاهتمام به مختلف، وحقل العمل له طبيعة أخرى، فإذا كان الحصان هو حامل الفارس يوم القتال؛ فالجمل حامِل الخيمة والزاد والعتاد، يركبه صاحبه، وتحمل عليه الضعينة، وعليه ينقل الماء؛ هو الأداة الأولى لانتقال الأعرابي من محلة إلى محلة، ومن منزلة إلى منزلة، ومن أرض إلى أرض، ومن بقعة إلى بقعة، ومن روضة إلى روضة، ومن أرض جدب إلى أرض خصبة.

خلق الله الجمل بحجمه وقوته، ليكون عوناً على

الحمل والنقل، يحمل ما لا يقدر عليه إلا هو في هذه الصحراء الواسعة، يتحمل البرد والحر، ويتحمل العناء والتعب، ويتحمل السهر والسير؛ وهو ثروة تدفع بصاحبها إلى الصفوف الأمامية بين أهل الغنى والوجد؛ والجمل هو موفي الكرم إذا جاء ضيف، وموفي الدية إذا قتل قتيل، وموفي العهد إذا تحملت حميلة، بسبب أو آخر؛ لحمه غذاء، وشحمه ادّهان، وجلده نفع كله؛ ملك العربي جملاً واحداً، وملك آلافاً، على صاحب الجمل الواحد حقوق لنفسه ولقبيلته، ولمن ملك آلافاً مثلها.

قوام الصحراء حصان وجمل، هما الحيوانان اللذان تتحملهما الصحراء، ويتحملان الصحراء؛ هما اللذان يخدمانها، وتخدمهما؛ من دونهما لا يكمل وصف الصحراء، وبدون الصحراء يبقيان يتيمين؛ والعربي ثالثهما، هو في الصحراء نبتة مزهرة، وخارج الصحراء زهرة ذابلة عطشى، تتلفت تبحث عن نسيم الصحراء، وهبوبها ورياحها؛ أعاصيرها

وأمطارها؛ رعودها وبروقها، وصواعقها؛ خصبها وجفافها؛ رمالها وجبالها ووهادها، دعوصها وحزونها.

في الأدب العربي، وفيما كتب في التاريخ، وصف وافٍ للقبيلة وحياتها، وقصص وأقوال لا تكاد تحصى عما يعطي فكرة عن حياة القبيلة وطبيعتها، وما كانت عليه؛ ومن هذه القصص يمكن أن تؤخذ الصور الصادقة عن كل ذلك، وكل قصة أو خبر هو لسان فصيح عن الجانب الذي يصفه، والزاوية التي يدخل منها إلى عالم فسيح في حياة العربي في صحرائه، وفي أحضان قبيلته.

والقبيلة، والتمسك بها، والمفاخرة بها، والدفاع عنها، والتعصب، تعصباً أعمى، لها، بقي على ما هو عليه عندما جاء الإسلام، ولم ينقطع أثره إلى يومنا هذا؛ فهو يلعب دوراً عاملاً في حياة الناس، وصلة بعضهم ببعض، ولعب دوراً مهماً في حياة الفتوح العربية، نفعاً أحياناً، وضرراً أحياناً أخرى؛ أوجد

لحمة قوية بين فرق الجيوش المجاهدة، والمرابطة في الثغور، وأوجد فرقة وتنافراً في بعض الأحيان، للمفاخرة بمفاخر القبيلة في الجاهلية، والتنابز بين ما كان منها متطاحناً، مما أثر في أجواء الغزوات، وسبب للقادة عرقلة، وهدد بإعاقة التقدم؛ وجاء في وقت من الأوقات بخروج عن طاعة السلطان، والعصيان على ما اتفقت عليه الأمة؛ وهذا أدى إلى تطاحن داخل الدولة الإسلامية، وتسبب في أن ضعفت دولة، وقامت أخرى، واستمر تأثير القبيلة يلعب دوراً مهماً في الدولة الإسلامية، حتى قضى التغلغل غير العربي في المجتمع الإسلامي في الحد من سلطة القبيلة المؤثر في الحكم، وانحصر الأمر في العلاقات بين الناس، إلا في الصحراء وحواشيها، فقد بقيت جذوة عصبية القبيلة جذعة، تعمل كما كانت تعمل من قبل إلى اليوم؛ لها فوائدها، ولها أضرارها، لعمق جذورها؛ وبقائها حية، لمراعاتها عند الزواج، وعند التكتل إذا ما حزب أمر، أو قام

خلاف، أو برزت فتنة، أو استوجب الأمر حقوقاً.

والقبيلة كانت سبباً في خدش صحة النص في الأدب العربي، إذ كثر الوضع للمفاخرة، ورسم صور غير حقيقية لبعض القبائل، زيادة في إبراز فضيلة، أو ابتداع فضيلة؛ أو محاولة هدم فضيلة أخرى، حتى لا ترجح كفتها على كفة قبيلة ناحل الخبر، ومخترع القصة، وانتحلت خطب، وزور شعر، وزيد في بعض الخطب ما يخدم هدف العصبية القبلية، وزيد في القصيدة أبيات تضفي حمداً، أو تثبت قدحاً.

والنحل أو التزوير لم يترك صاحبهما باباً من باب التأثير، أو وسيلة من وسائل الانتشار والإعلام، إلا استفاد منها لهذا الغرض، مما أصبح معه نخل المدون، لمعرفة الأصل من المضاف، من أصعب الأمور على الناقد؛ فحديث في مجلس قصد به الفكاهة لم يناقش، استفيد منه للثلب، أو قصد فيه وضع لبنة جديدة في صرح مجد قبيلة قائم.

والنصوص التي سوف نسوقها سوف تكون متنوعة، وسوف تكشف عن بعض الجوانب التي أشرنا إليها، وبعض ما لم نشر إليه؛ وسوف يكون تنوعها آت من اختلاف العصر الذي رويت عنه، أو قيلت فيه، والزاوية التي دخل عليه منها.

ويحاول كلبي أن يضفي على قبيلته مجداً يختاره من بين الأمجاد التي تفاخر بها العرب، فلم يقل قولاً ساذجاً، يقبل أو يرفض، يُلتفت إليه أو يصد عنه، يحترم أو يُهزأ به؛ لم يأت بقول قد تذروه الرياح، أو تجفوه الألسن، وتنبو عنه الكتب؛ وإنما اختار أسلوباً ختل به الأذهان، وتسلل خفية إلى العقول، وقبل القول فيه على عواهنه، لم يناقش، ولم يفحص؛ بل دخل بين مجموعة من الأحكام، بعضها مقبول من كثير من الناس، وبعضها مقبول من فئة؛ في القول رشوة مخفاة، وفيه مكر متقن؛ فهذا واحد من قبيلة كلب، لو مدح كلباً مدحاً مباشراً، لنقضه أعداؤه، ولهاجمه حاسدوه، ولهذا مدح كلباً، وقبائل أخرى

مع كلب، فأعطى كل قبيلة جانباً من المجد، وأعطى قبيلته ما اختاره لها منها، يقول النص:

«أخبر الحكم بن عوانة الكلبي عن أبيه، قال:

لم يؤيد الملك بمثل كلب، ولم تعل المنابر بمثل قريش، ولم يطلب التراث بمثل تميم، ولم ترع الرعايا بمثل ثقيف، ولم تسد الثغور بمثل قيس، ولم تهج الفتن بمثل ربيعة، ولم يجب الخراج بمثل اليمن». [1]

من هذا النص نستطيع أن نعرف بعض جوانب الفخر عند العرب، ولأن قائله أصبح من أهل المدن، وممن انصهروا في بوتقة الحكم الإسلامي، وخضع لحكم الخليفة، فقد جعل قمة الفخر بما يفتخر به حينئذ لقومه، هو الولاء للخليفة، فهي التي تعضد الملك، وهي التي تؤيد السلطة، وغيرها أخذ ما هو أقل من هذا في نظره، رغم أهمية ارتقاء المنابر، وسد الثغور؛ وقد قال عن ربيعة قولاً لعله أقرب إلى الهجو منه إلى المدح، فإذا كان هو وقومه من الموالين

---

(١) الإشراف: ٢١٠.

للسلطان، والمؤيدين للحاكم، فإن ربيعة أنفردت بالفتنة.

هذه مفاضلة بين قبائل متعددة، وصفات ألحقت لتكشف ما يمكن أن يستفاد منه للمقارنة؛ وهناك من أخذ قبيلة واحدة، وقارن بين أجزائها، مقارنة طريفة يمكن أن تستشف منها بعض المعاني، وما قد يكون خلف المعاني من أسباب، والنص الذي يكشف هذا الجانب يقول:

«قال عبدالله بن عوف القاري:

ناب مضر كنانة، وفرسان مضر قيس، ورجال مضر تميم، وألسنة مضر أَسَدٌ». [١]

ولابد أن وراء هذا التقسيم هدفاً، وأن هناك ما حكمه بهذه الأحكام؛ وقد يكون القائل اعتمد على ظاهرة محدودة، فعممها، وجازف بالحكم مقابل مساقط الفخر في مرامي القول، أو طرافته، أو جاذبيته؛ فقد تكون شجاعة عدد من الأشخاص في

---

(١) الإشـراف: ٢١٠.

قيس استوجبت عنده أن يحكم بأن فرسان مضر منها، وقد يكون تكرر الفصاحة في الخطب والشعر في أسد هي السبب في وصفها بالألسنة.

وعبدالله بن عوف يلمس مثل هذا القول من زاوية أخرى فيقول:

«كان يقال: يسود السيد من قيس بالفروسية، ويسود السيد من ربيعة بالجود، ويسود السيد من تميم بالحلم».[1]

في هذا النص تحديد مهم، يوضح ما تغليه كل قبيلة، وما تجعله سبباً لتقديم رجال منها عليها، وهذا يعني أن هناك قبيلة ترجح عندها فضيلة على فضيلة، وهذا ملفت للنظر، لأن الفضائل ترجح في أوقاتها، فالشجاعة وقت الحرب والنزال؛ والكرم وقت الضيافة، وتحمل الديات والحمالات المختلفة والحلم وقت الفتنة والاستفزاز؛ إلى آخر ما هناك من فضائل تبرز مضيئة في وقتها، وفي محيطها؛ ولكن

(١) الإشـراف: ٢١٠.

التعميم مرجح في بعض المجتمعات حسب درجتها في الحضارة، فالتعميم قد يكون لكسل عقلي مسيطر، وهروب من التفصيل والتبويب والتقسيم، وهذا ليس بفضيلة؛ وقد يكون هذا لتسهيل الأمر لفئة من الناس لا تحتمل التفصيل والتعديل؛ وهذه فضيلة.

والنص يظهر قيساً بأنها قبيلة عندما تريد أن تُرَئِّس عليها شخصاً تشترط أن يكون في المقام الأول فارساً شجاعاً؛ وربيعة ترجح الكرم والجود عندما تبحث عن صفة تتوفر فيمن تريد أن تنصبه رئيساً عليها؛ أما تميم فتبحث لدى المطلوب للتقديم عليها، عن الحلم؛ ترى هل لما اشتهر به قيس بن عاصم والأحنف ابن قيس دخل في إقناع القائل بإصدار هذا الحكم؟!

والصفة الخاصة تعمم على قبيلة بعينها، وكأنها تحصر فيها، ولا يتصف بها سواها، كثيرة في أقوال العرب، وقد يُجمع مع القبيلة أخرى وثالثة؛ وقد يكون أصل القول اقتصر على واحدة، ولكن الناقل جاء فيما بعد، فاستغل أهمية الراوي، وقوة روايته،

فأضاف قبيلة يريد لها أن تعلو، أو أراد أن يُقلل من شأن المنفردة بالصفة المضيئة، والقول القارح.

وبمثل هذه الإضافة قد يأتي النحل، أو قد يأتي ما لا يمكن الجزم به، لأن مدح قبيلة من غير من ينتسب إليها مما يوجب الشك أحْياناً، مثل أن يأتي من حاكم دون ما يوجب هذا المدح، أي أن يكون المدح منقطعاً، وقيل دون ذكر مناسبة قوله، وفي أمثلة ذلك النص الآتي:

«حدث عثمان اليقطري قال:

قال مسلمة بن محارب: كان معاوية يقول:

لو أن النجوم تناثرت لسقط قمرها في حجور بني يربوع بن حنظلة»[1].

والقبائل تفتخر بالفرد منها يأتي بعمل مجيد، عجز عنه غيره، فإقدام فرد من القبيلة على إزالة منكر، تعارف الناس عليه، وأصبح عادة متأصلة فيهم؛ أو أدخل أمراً مفيداً، زاد من سعادة القبيلة بأن أزال

---

(١) الإشـراف: ٢٥٠.

عسرة، وجلب رخاء، أو منفعة، يكون مصدر عزة لقبيلته، تتوارثه الأجيال، ويبقى حياً بالحث على الاقتداء به، وإشاعة ذلك في الأحاديث والخطب والشعر، وفي مقام المفاخرة والمساجلة، وفي عمل صعصعة جد الفرزدق خير مثل على ذلك؛ وعمله المجيد هو وقوفه في وجه وأْدِ البنت، وفي هذا يأتي النص التالي:

«قال المغيرة: لم يكن أحد من أشراف العرب بالبادية كان أحسن ديناً من صعصعة، جدّ الفرزدق، ولم يهاجر، وهو الذي أحيا الوئيد، وهو الذي افتخر به الفرزدق، فقال:

مِنَّا الَّذِيْ مَنَعَ الوَئِيْدَاتِ
فَأَحْيَا الوَئِيْدَ فَلَمْ تُوْأَدِ»[1]

ويأتي نص يمدح مضر، ويعطيها ميزة تعلو بها على غيرها، ومدح مضر بهذه الصيغة يمكن أن يشمل قبائل عدة هي فرع لمضر، وعلى هذا فالعشائر والأفراد

(١) الإشـراف: ٢٥٠.

الذين ينضوون تحت هذا المدح سوف يطربون لهذا، ويشيعونه.

«قال دغفل:

إذا اختلف الناس فالحق مع مضر».[1]

والمفاخرة تحدث بين فردين على أساس من الأسس، فيفخر واحد على الآخر بمزية من المزايا، وقد تكون المزية انتسابه إلى قبيلة ما، فإذا لم يصلا إلى تقارب في وجهات النظر، وهذا هو الغالب، فإنهما يلجآن إلى حَكم ثالث، يتفقان عليه، وحكمه نافذ عليهما؛ وعادة ما يختار الشخص اختياراً موزوناً، معتمداً على الثقة فيه بأنه غير متحيز، وليس هناك ما يجبره على مراعاة جانب على آخر، وفي النص التالي مثل على ذلك، قادته مفاخرة بين اثنين من قبيلتين مختلفتين:

«حدث إبراهيم بن خلف الوهبي: أن رجلاً من بني عجل، ورجلاً من بني حنيفة، افتخرا، فقاما إلى يحيى بن أبي كثير، ليقضي بينهما، فقال:

---

(١) الإشراف: ٢٧١.

إن مثلي لا يقضي في مثل هذه؛ ولكن لو خيرت قبائل العرب لاخترت أن أكون رجلًا من قريش، ولو حيل دون ذلك لاخترت أن أكون رجلًا من الأنصار، ولو حيل دون ذلك لاخترت أن أكون رجلًا من بني عجل.

فقال إبراهيم: ليتني سألته: لم اختار أن يكون من بني عجل؟

فلقيت بعدُ يزيد بن سيدان، فحدثته هذا الحديث، وقال:

ليتني علمت تفسيره، فقال:

أنا أخبرك: إن يحيى قال:

إن رسول الله ﷺ قال يوم ذي قار: هزمت الميمنة، هزمت الميسرة، هذه بنو عجل تقتل الأعاجم، أرى عجلَ قوم (كذا) ميامين، اللهم اجبر عظمهم» . [1]

هذا النص يحتاج إلى وقفة فيها تمعن، فهو في المقام الأول شاهد على ما ذكرناه من المفاخرة بين رجلين،

(١) الإشـــراف: ٢٨٤.

احتكما إلى ثالث رضياه، فلم يرد أن يقبل الحكم؛ ولكنه شعر إن صح الحديث أن هناك حقاً لابد أن يقوله، فجاء بالحكم عن طريق هذا الأسلوب غير المباشر، وحكم لبني عجل.

واحتار راوي القصة لِمَ حكم يحيى لبني عجل، وجاء بهم في المرتبة الثالثة بعد قريش والأنصار، وتمنى لو كان سأله عن السبب الكامن خلف هذا الاختيار، والهدف الداعي لهذا التفضيل؛ ثم يسر الله ليحيى أن يلتقي بزيد بن سيدان، فيكشف له السر الذي حيره، ويبين له السبب الذي أردف فيه بني عجل بقريش والأنصار؛ وبنو عجل استفادت من الحديث الذي رواه يزيد، سواء صح الحديث أو لم يصح؛ وأصبح مجال فخر واعتزاز لبني عجل، يطاولون به غيرهم من القبائل، ويملؤون أنفسهم ثقة بالميزة التي جاءتهم عن هذا الطريق، وأصبحوا يملؤون بها نفوس أبنائهم، ليتوارثوها، فلا ينقطع حبلها، ولا يبلى لها بت، أو يضعف نسج.

والصفات تحصر في قبيلة ما تحتاج إلى تمعن، وتأكد؛ فقد يخرج منها ببعض الأحكام المفيدة في رسم الصور لما يضيف إلى ما هو معروف عن صلة القبائل بعضها ببعض، فإذا كانت الصفة موجهة من عدو فيبحث عن مكسبه منها، وخسارة الموصوف، وإن كانت من عضو من القبيلة، أو من موال لها، فيبحث عن مرامي القول من النفع، ما هو مصرح به، وما هو ملمز إليه، والتأكد مما هو أصل في الخبر، وما هو إضافة، وهذا يصدق على النص التالي:

«قال بسطام بن قيس لقومه:

تردون على قوم آثارهم آثار نساء، وأصواتهم أصوات صردان، ولكنهم صُبرُ على الشر، يعني بني يربوع.

وفي هؤلاء يقول معاوية:

لو أن النجوم تناثرت لسقط قمرها في حجور بني يربوع».[1]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٥.

الجزم بتعضيد معاوية في مدح بني يربوع يحتاج إلى معرفة السبب الذي جعل معاوية يقول مثل هذا، فلو عرفت المناسبة لترجح صدق هذا من عدمه؛ ومع هذا فإذا وجد أحد من بني يربوع مثل هذا القول يدور على الألسن فإنه سوف يشيعه ويؤكده.

وليس هذان القولان وحدهما هما ما يمتدح به بنو يربوع، ففي النص الآتي مدح لأحد أفراد هذه القبيلة جاء عرضاً:

«قال الأصمعي: قلت لسليط:

أكان عتيبة بن الحارث ضخماً؟

قال: لا، ولا من قوم ضخام، يعني بني يربوع». [1]

والسؤال عن ضخامة عتبة يدل على أنه قام بعمل كبير يحتاج إلى قوة من رجل ضخم؛ والجواب لم ينف عن عتبة الضخامة، ويثبت الشجاعة، ولكن من طرف خفي أثبتها لبني يربوع كلهم.

والشجاعة تثبت لقبيلة ما، ويتواتر الخبر عنها،

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٥.

تبقى على مر العصور، وتكون محل الإعجاب والتقدير، ويتساءل الناس عن السر يكمن خلفها؛ فإذا ما رأوا بارقة أمل في معرفة ذلك سارعوا إليها يتحرون عنها، ويلحون؛ وكانت شجاعة بعض القبائل، وانتصارها المتكرر، محل الإعجاب في العصر الأول للإسلام، إذ المسلمون في حاجة إلى معرفة أي سر خلف شجاعة، وما يفيدهم في جهادهم في الثغور، وعلى أطراف البلدان المفتوحة؛ والخلفاء كانوا على رأس من يهمه مثل هذا الأمر، وعلى رأس هؤلاء الخلفاء عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهذا ملمح من ملامح بحثه عن سر انتصار قبيلة عبس، وبروز الأبطال فيها، والقصة كمايلي:

«قال عمر بن الخطاب لبني عبس: كم كنتم يوم الهباءة؟

فقالوا: كنا كالذهب، لم نكثر، فنتواكل، ولم نقل، فنذل.

قال: فكيف كنتم تقهرون من ناوأكم، ولستم

بأكثر منهم عدداً، ولا مالاً؟

قالوا: كنا نصبر بعد اللقاء هنيهة.

قال: فلذلك إذاً». [1]

واستطلاع عمر جاءه بالعلم اليقين عما سأل عنه، مما كان حائراً في صدره، وقد ألحف في السؤال، وتابع تقصي أطراف الحقيقة، حتى تبين له ما كان خافياً.

وتأتي رواية مماثلة لهذه الرواية، ولكن المسؤول هو عنترة بن شداد، الشجاع المعروف، ومن هو أقرب أن يسأل عن سر نجاحه وقومه في حروبهم؟ وخاصة في إحدى المعارك التي خاضها مع قومه يوم الفروق، وهو يوم عصيب، كانت نهاية المعركة في صف عبس، وكانت الموقعة بين عبس وذبيان، في ديار بني سعد:

قيل لعنترة العبسي: كم كنتم يوم الفروق؟

قال: كنا مئة، لم نكثر فنفشل، ولم نقل فنذل». [2]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٥.

(٢) عيون الأخبار: ١/ ٢٠٦.

ومن أبرز رموز المدح عن بعض القبائل القول الآتي:

«قال الهيثم: قال ابن عياش:
لا تشترِ خمسة من خمسة: لا تشتر فرساً من أسدي، ولا جملاً من نهدي، ولا عيراً من تميمي، ولا عبداً من بجلي، ونسي الهيثم الخامس؛ يريد أن أهل هذه القبائل عظام الجدود في هذه الأشياء»[1].

يمدح تلك القبائل أن حظها في الأشياء المذكورة يجعل من يشتري منها مغلوباً، لأن حظها يعطيها في النهاية الكفة الراجحة، وهذه وثيقة يحملها الأسدي، والنهدي، والتميمي، والبجلي بيده عالياً؛ وهي ميزة ليس كل من تمناها يحصل عليها.

وتقسم الميزات بين عشائر القبيلة وفروعها، فتُعطى بما يوحي أنه قسمة عادلة؛ وثقة قائلها في قولها، والصياغة التي اختارها، تأتي وكأنها أمر مسلم به؛ ومادام أُعطي كل ذي حق حقاً، فالرضى

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ١٥١.

متوقع، والسخط مستبعد، وهذا نص فيه هذه الطبيعة:

«قال أبو عبيدة عن عوانة، أنه قال:

إذا كنت من مضر، ففاخر بكنانة، وكاثر بتميم، وألقَ بقيس؛ وإذا كنت من قحطان، فكاثر بقضاعة، وفاخر بمذجح، والق بكلب؛ وإذا كنت من ربيعة، ففاخر بشيبان، والق بشيبان، وكاثر بشيبان»[1].

هذه أحكام مقسمة على فروع من القبائل حسب أصولها، والصفات حصرت في المفاخرة، والمكاثرة واللقاء، والقبائل وإن كان يرضيها أن تُعطَى ميزة من الميزات، إلا أني متأكد أن أي قبيلة من القبائل المذكورة ساخطة لأنها لم تعط كل الميزات، إلا قبيلة شيبان التي قد يكون القائل منها، أو على صلة طيبة بها.

وهناك رجال شهروا بفضيلة من الفضائل، عادت بالفضل على أنفسهم، وعلى قبائلهم؛ ومتى

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٠٩.

ما أعجب الناس بأحد أضافوا للفضل المؤكد المعروف أفضالاً فوق أفضال، حتى تتكدس الفضائل؛ ويدخل الشخص حيز الخرافة، وحاتم الطائي أحد هؤلاء الذين عرفوا بالجود والكرم، ورويت عنهم قصص هي أشبه بالخيال منها بالحقيقة، ووضعوا فيه من الصفات الحميدة، ما يكفي لقبيلة؛ واعتقدوا أنه صاحب حظ أينما يتوجه بجهده ينجح، وهذا نص يمثل هذا:

«عن ابن الكلبي عن أبيه عن رجالات طيء قالوا:

كان حاتم جواداً شاعراً، وكان حيثما نزل عُرف منزله، وكان ظَفِراً، إذا قاتل غلب، وإذا غنم أنهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقِداح سبق، وإذا أَسَرَ أطلق، وكان أقسم بالله: لا يقتل واحد أمه». [1]

لقد عرف حاتم كيف يُبَرِّح لنفسه مكاناً في صدور العرب، وكيف يتسلل إلى قلوبهم، فيحتل الجزء بعد الآخر، بما يعرف أنهم يقدرونه؛ فهم

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٥٩.

يقدرون الكرم وصاحبه، ويُعلون مكان الشاعر، ويرفعون منزلة الشجاع؛ ؛ وقليل من الغزاة من إذا غنم ترك الغنيمة لغيره، ومن فعل فإن فعله متميز، ويضمن مكاناً في القلب؛ والذي لا يخيب السائل إذا سأل، يجد الباب إلى القلب مفتوحاً؛ وفك الأسير مِنَّة، لا يتصورها الإنسان إلا إذا تصور الشعور بالعبودية بعد الحرية، واليد العليا تصبح سفلى، والرأس المرفوع يصبح مطأطأ، واليد الممتدة بالضرب والطعن تصبح مشلولة مقيدة؛ والنُّبل يتمثل في النظرة الإنسانية تبرق بنورها الساطع في وسط ظلماء القتال والحرب، وتوفير وحيد أمه يأتي لصاحبه بالمدح المؤثل، والمجد الأصيل، ولا يأتي من فرد، بل إن المنة تلحق عدداً من الناس.

والقوم مختلفون حول الاستئسار، فبعضهم يرى أن من الحكمة أن يستأسر المرء إذا رأى أنه لا سبيل إلا الموت؛ واستئساره يعطيه فرصة للعودة لأخذ الثأر، ومحو العار؛ أما موته ففيه فقد لقوة العشيرة؛

وبعضهم يرى أنه من العار أن يستأسر الشجاع، وأن الموت أشرف له؛ وأن ما يقال غير ذلك، من ترجيح الاستئسار، ما هو إلا أعذار مرفوضة، وحجج واهية، لا تتناسب مع طبيعة العرب، وما تعارفوا عليه؛ والأدب وتاريخه فيه ذكر عن من استأسروا وذكر لمن لم يستأسروا، ومن القصص الطريفة التي تروى في عدم الاستئسار، وتفضيل الموت على ذلك، القصة الآتية:

«عن أبي إسحاق الزيادي، قال: حدثني رجل من العرب قال:

كان بيننا وبين قوم حرب، فلقونا، فهزمناهم، فإذا فتى منهم قد صبر لنا، فجعل لا يحمل على ناحية من معسكرنا إلا كشفها وهزمها، ثم احتويناه بأرماحنا، فأشفقنا عليه، فعرضنا عليه الأمان، فقال:

أَذُلُّ الحَيَــاةِ وَذُلُّ المَمَــاتِ
وكُــلاًّ أَرَاهُ طَعَــامًــا دَبِيْــلاَ

فَـإِنْ كَـانَ لابُـدَّ مِـنْ وَاحِـدٍ
فَسِيْرِي إِلَى المَوْتِ سَيراً جَمِيْلاً

ثم حملنا عليه، فقتلناه، فإذا هي امرأة!». [1]

هذه البطلة من المؤكد أنها من الفريق الذي يرى الاستئسار عيباً، إما لذات الأمر، أو لأنها لو استأسرت لاكتشف أمرها، وكانت فضيحة كبرى على قومها، وعلى أهلها بالذات، لأنها سوف تصبح سبيّة، وليس أسيرة.

وتأخذ المفاخرة بالعشيرة مجرى يمثل جانباً من جوانب نظرتهم إلى تفوق قبائلهم بعضها على بعض، وثقة كل واحد بقبيلته، والقصص أحياناً لا تكون أصيلة، أو حدثت، وإنما هي صورة في أذهان معاصريهم، أو أنصارهم في جيْل لاحق؛ والقصة الآتية تمثل هذا الجانب:

«عن حميد بن هلال، قال:

تفاخر رجلان، رجل من قريش، ورجل من بني

---

(١) الجليس الصالح: ١/ ٢٢٨.

أمية، فقال هذا: قومي أسخى من قومك.

وقال هذا: لا، قومي أسخى من قومك.

فقال: : سل في قومك حتى أسل في قومي.

فافترقا على ذلك، فسأل الأموي عشرة من قومه، فأعطوه مئة ألف، عشرة آلاف عشرة آلاف.

قال: وجاء الهاشمي إلى عبيد الله بن عباس، فسأله، فأعطاه مئة ألف، ثم أتى الحسن بن علي، فسأله، فقال له:

هل أتيت أحداً قبلي؟

قال: نعم، عبيدالله بن عباس، فأعطاني مئة ألف، فأعطاه الحسن مئة ألف، وثلاثين ألفاً.

ثم أتى الحسين بن علي، فسأله، فقال:
هل سألت أحداً قبل أن تأتيني؟

قال: نعم، أخاك الحسن، فأعطاني مئة ألف، وثلاثين ألفاً.

فقال: لو أتيتني قبل أن تأتيه أعطيتك أكثر من ذلك، ولكن لم أكن لأزيد على سيدي، فأعطاه مئة

ألف، وثلاثين ألفاً.

قال: فجاء الأموي بمئة ألف من عشرة؛ وجاء الهاشمي بثلاثة مئة وستين ألفاً من ثلاثة، فقال الأموي:

سألت عشرة من قومي، فأعطوني مئة ألف.

وقال الهاشمي: سألت ثلاثة من قومي، فأعطوني ثلاث مئة ألف، وستين ألفاً.

قال: ففخر الهاشميُّ الأمويَّ، فرجع الأموي إلى قومه، فأخبرهم الخبر، فرد عليهم المال، فقبلوه؛ ورجع الهاشمي إلى قومه، فأخبرهم الخبر، فرد عليهم المال، فأبوا أن يقبلوه، وقالوا:

لن نكن لنرتجع شيئاً قد أعطيناه». [1]

هذه قصة طريفة، محبّرة تحبيراً متقناً، لابد أن من أخترعها قد فكر فيها وقدّر، ولابد أن من صاغها محا وأثبت، حتى جاءت بهذا التناسق، المتناسب الأجزاء، الوافي الجوانب؛ وقد هندسها هندسة جيدة، كأنها قيست فيها الأجزاء بالمسطرة، فالعشرة

(١) الجليس الصالح: ١/ ٣٦٢.

جاء منهم مئة ألف، وكأنهم على اتفاق، وهذا توافق لا يسمح به الأمر، ولا تتحمله الصدف؛ والهاشمي بدأ بمبلغ يساوي مجموع ما جادت به يد الأمويين العشرة؛ ثم جاءت الزيادة مبررة في جانبيها، الجانب الذي يخص الحسن، والجانب الذي يخص الحسين؛ ولم يكتف واضع القصة بهذا الرجحان؛ وراح يضع في الكفة ما يثقلها، فهؤلاء قبلوا رد المال، وهؤلاء لم يقبلوه.

ومن المؤكد أن وراء تأليف هذه القصة غرضا سياسيا، وهو ترجيح كفة بني هاشم على بني أمية، ويمكن أن يرجح أيضاً أن هذه القصة ألفت في زمن الأمويين، عندما كانت المقارنة في تلك الفترة بينهم وبين الهاشميين، وليس كما حدث فيما بعد، عندما أصبحت المقارنة بين العباسيين والأمويين؛ وفي هذه القصة عبدالله بن عباس دفع أقل مما دفعه الحسن والحسين ـ رضي الله عنهما ـ.

والمسلمون من أصول عربية لم يتركوا المفاخرة،

وكانوا سريعين إليها عند كل فرصة تسنح لهم؛ وأحياناً يأتي من يؤلف مفاخرة، يضع فيها من الحجج ما يقبل؛ لأنه مأخوذ مما هو شائع بين الناس، ولكنه مفرق، ومبعثر، فيجمعه، ويأتي به على صيغة مجادلة وحوار، والإتقان الذي يتصف به مثل هذا العمل يجعل من الصعب الجزم بما هو أصل، وما هو مفتعل.

ومن أمثلة مواقف المفاخرة، وما قيل أنها وقعت في مجلس أحد الخلفاء، وهي تمثل أسلوب الجدل في المفاخرة، والغوص إلى أعماق التاريخ ونبش الميزات، أو العيوب، والاستفادة منها حجة، قد يغلب صاحبها؛ المثل الآتي:

«فخر بعض أولاد قحطان في مجلس السفاح بمناقب قحطان من حمير وكهلان على ولد نزار؛ وخالد بن صفوان، وغيره من نزار بن معد منصتون، هيبةً للسفاح؛ لأن أخواله من قحطان، فقال السفاح لخالد بن صفوان:

ألا تنطق، وقد غمرتكم قحطان بشرفها، وعلت

عليكم بقديم مناقبها؟

فقال خالد: ماذا أقول لقوم ليس فيهم إلا دابغ جلد، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عَرد؛ أغرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد.

ثم مر في ذمهم إلى أن انتهى إلى ما كان من قصتهم، وتملك الحبشة، وما كان من استنقاذ الفرس إياهم». [1]

هذه مفاخرة بين متسلسلين من قحطان وعدنان، أصلي العرب، أعيدت العصبية بينهما جذعة، في مجلس أول خليفة عباسي، فإذا كان هذا واقع، فإن خالداً كان جريئاً في رده، موجعاً في تعداد عيوب قحطان، من مهانة المهن التي كانوا يزاولونها، ومن خضوعهم لحكم امرأة، وهذا أمر مستهجن عند العرب، وروي فيه حديث، وقد يكون صحيحاً، وهو قول الرسول ﷺ: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة؛ أو ما في معنى هذا.

وعلى ذكر هذا القول، لقد كان على ألسنة الناس،

---

(١) مروج الذهب: ٢/ ١٨٣.

حتى في الهزل، وهناك قصة تُروى، تتناقلها كتب الأدب، ونصها:

«دخل أحد البخلاء على الحسن بن زيد، وهو أمير المدينة، فقال:

جعلت فداك! إني عصيت الله ورسوله.

قال: بئس ما صنعت؛ وكيف ذاك؟

قال: لأن الله ـ عز وجل ـ يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [1].

وقد قال رسول الله ﷺ: لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة.

وأنا أطعت امرأتي، فاشتريت غلاماً، فهرب.

فقال أمير المدينة: أختر واحدة من ثلاث: إن شئت ثمن الغلام.

فقال البخيل: بأبي أنت، قف عند هذه، فلا تجاوزها.

قال: أعرض عليك الخصلتين.

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٧.

قال: حسبي هذه!».[1]

وعرّج خالد على جانب آخر في تدنيهم في أمور السياسة، فذكر استيلاء الحبشة عليهم، وزاد في الثلب، فذكر أن منقذيهم عجم، وهم الفرس؛ ولم يأبه خالد بما يعرفه، هو وغيره، من أن قحطان أخوال السفاح، ولم يأبه لما قاله السفاح، مستثيراً الرد.

فإن كان هذا حصل في مجلس الخليفة، وبالصورة المذكورة فلا شك أن خالداً جازف بالشيء الكثير، بما في ذلك حياته، لأن حكم العباسيين في أوله، وأي طعن في نسب الخليفة، يوحي بالضعف، أو يفتح باباً لغمز جانبه، لن يتساهل فيه الخليفة؛ فإن كان خالد جازف، فلشدة مقام القبيلة، في تلك الفترة، وهي نهاية حكم الأمويين، وهم من عرفوا بنصرة العرب؛ أما الدولة العباسية في هذه المرحلة فلم يتبين بعد ميلهم مع الفرس.

---

(١) طرائف وملح: ٣٤.

وخالد يعرف أنه لو سكت أمام الاستنهاض الذي بادره به الخليفة، فإنه يوصم من قومه بالتخاذل، وعدم حماسه لأصله الأساس، وفقدانه الثقة به، وإقراره بما قيل عن قحطان؛ والتراخي إذا بدأ في هذا الجانب فإنه لا يعرف المدى الذي يمكن أن يصل إليه مع الزمن.

لكنّ نَحْلَ هذه القصة وارد؛ لأنه رغم ما عرف عن خالد من فصاحة، وطلاقة لسان، إلا أن السجع في قوله، وترتيب المعاني، يرجح جانب تزوير القول في ذهن أديب، أخذ وقته في التحبير، واختيار الكلمات، وجمع المعاني، والانتقال بأفكاره من جانب في الثلب إلى جانب؛ والسفاح كان في حالة تحفز عندما أظهر جانب تحد، لا يتوقع أن أحداً يسامقه فيه؛ والعصبية القبلية تدفع الأدباء إلى عمل أكثر من هذا، سواء كانوا هم من القبيلة، أو أن حرفة الأدب تغريهم بوضع مثل هذا، لأنهم يعرفون العناصر التي يمكن أن يتكون منها موضوع قصة

ممتع، ومقبول.

والقبائل لا تتوانى في أن يكون فيها من الميزات ما يمكن أن تفخر به بحق، ولا تغفل عن عمل كل شيء تضمن به أن مستواها يعلو، ولا يهبط، وهذا لا يتم إلا إذا راعت أن تكون في داخلها قوية؛ وقوتها تأتي من وضع أسس وقواعد، يلزم جميع أفراد القبيلة مراعاتها، وحمايتها، والحرص عليها، حتى لا تؤتى من داخلها؛ مثل احترام الكبير، ورعاية الصغير، والغيرة على العرض، ونصرة الفرد، وتحمل الخطأ من جميع أفراد القبيلة؛ والاتصاف بالكرم، والشجاعة، والذكاء، والعلم، الذي يأتي عن إرضاع الصغير لبان الخلق السائد، وتاريخ الآباء، وحفظ الشعر، والتمرين على الخطب.

ورئاسة القبيلة من الأمور التي وضعوا قواعدها بدقة، ليستحق الرئيس السؤدد الذي يميزه عن غيره، ليقود القبيلة قيادة حكيمة، يحثها على الصبر إذا ما أحوج الأمر ذلك، ويدفعها إلى الإقدام عندما

يستوجب الأمر ذلك، يستشير كبارها، ويأخذ القرار الذي يجد أن من الصالح السير في ظله، وطاعته واجبة، فطاعته على الخطأ خير من عصيانه، والانصياع إلى رأيه دون النظر إلى أي رأي آخر، فرض محتم.

ولا يسود الشيخ فيهم إلا بشروط تعارفوا عليها، وقد ذكرت كتبٌ بعضَ ما روي في هذا المجال، ومن ذلك القول الآتي:

«قال بعضهم لرجل من بني شيبان:

بلغني أن السؤدد فيكم رخيص:

فقال: ؛ أما نحن فلا نسوّد إلا من أوطأنا رحله، وأفرشنا عرضه، وأخذ منا نفسه، وبذل لنا ماله.

فقال: وأبيك إذاً فهو فيكم غال». [1]

ويسوق صاحب محاضرات الأدباء أقوالاً في السؤدد مؤداها أن السؤدد هو حمل المكاره، وابتناء المكارم، وبذل الندى، وكف الأذى، ونصرة

---

(١) محاضرات الأدباء: ٦٣.

المولى، وتعجيل القرى.[1]

«وقال: السيد من حمق في حاله، وذل في نفسه، وعني بأمر عشيرته؛ وقيل السيد من إذا حضر هابوه، وإذا غاب ما اغتابوه، ومن أورى ناره، وحمى ذماره، ومنع جاره، وأدرك ثاره».[2]

هذه الصفات التي إذا توافرت في شيخ القبيلة، فاخرت القبيلة بنفسها، لأن انعكاس هذه الصفات تكون في صالحها، تبرزها أمام الصفوف، وتجعل لها المكان الأعلى، والنصيب الأوفى، على القبائل الأخرى.

والحكام والخلفاء كانوا في كثير من المواقف يبحثون عن أسباب بروز قبيلة في الجاهلية، أو في الإسلام، ويسألون عنها، ويحددون الجانب الذي يهمهم، ولعلهم يريدون، وهم قادة مجتمع، أن يتخلقوا بالأخلاق التي جُرب نفعها، ونجحت

---

(١) محاضرات الأدباء: ٦٣.

(٢) محاضرات الأدباء: ٦٣.

نتائجها، وكانوا يحرصون على نبش الأسباب التي تكمن خلف النجاح، وقد يخمنون الأسباب، ولكنهم يحبون أن يسمعوها من أصحابها، وهذا مثل لأحد الخلفاء، مع كبار رجال القبائل:

«قال معاوية لعرابة الأوسي: بم سدت قومك؟

فقال: لَسْتُ بسيدهم، ولكني رجل أعطيت في نائبتهم، وحملت عن سفيههم، وشددت على يد حليمهم، وعطفت على ذي الخله منهم؛ فمن فعل فعلي، فهو مثلي، ومن قصر عني فأنا أفضل منه؛ ومن تجاوزني فهو أفضل مني»[1].

كلامه يدل على أنه سيد يستحق السيادة، لأن جوامع السؤدد، قد اجتمعت له، ومكارم الأخلاق قد توافرت فيه، والإجابة الرصينة تدل على عقل؛ فقد تواضع في نفي السيادة، وعدد جوانب منهجه مع قومه، وما يفعله تجاه كل فئة، المحسنة لها معاملة، والمسيئة لها معاملة، وليس في الأولى أو

---

(١) محاضرات الأدباء: ٦٣، الجليس الصالح ٢/ ٢٤٨.

الثانية إلا الخير، والحنو، وتلمس المفيد؛ وختم الدرر التي تناثرت من كلامه بقول فيه جماع المنطق والعقل؛ فقد أبان أنه عمل جهده، وأنه لا يظن أنه خير الناس، ولا أسوأ الناس؛ ويتوقع أنه قد يأتي من هو أقل منه، ومن هو أحسن منه.

والرئاسة ليست أمر سهلاً، فمعها تعب الجسم، وتعب النفس، جُهدٌ وهمٌّ، ذهن ينشغل، ونوم غير هنيء، وأكل لا يستمرأ، لأن المشاكل تطغى على خلافها؛ والمشكلة الصغيرة إذا انفردت تأخذ حيز الكبيرة، تُسهر بالليل، وتشغل بالنهار؛ والحمد لا يأتي من الناس بقدر الجهد والنجاح في أمورهم، فعتبهم أكثر من عذرهم، وحسابهم أقل من شكرهم؛ ولم يفت الأوائل مثل هذا فقد قال أحدهم:

«من أحب الرئاسة صبر على مضض السياسة». [1]

وكانت القبائل تحرص على تسويد الكبار، لإدراكهم لفائدة التجربة، ولأن الإنسان المسن

(١) محاضرات الأدباء: ٦٣.

أنضج من غيره إذا كان سوياً؛ ؛ واتخاذ هذه القاعدة يزيل الجدل، ويقضي على الفوضى في الاختيار، وهذا ما قاله أحد كبار رجال القبائل، وهو معروف بحلمه وسؤدده.

«قال قيس بن عاصم لبنيه:

إذا مت فسودوا كباركم، ولا تسودوا صغاركم، فيحقر الناس كباركم، فتُهانوا».[1]

لقد نصحهم قيس، وأكد في النصيحة، وعلل لما قاله.

والمفاخرة بالقبائل، وما تحوزه من سؤدد، لم ينقطع بالإسلام، رغم حث الإسلام على أن يحل الدِّين محل العنصرية، والتقوى فوق كل اعتبار دنيوي؛ ورغم ورود مدلول ذلك بصيغ مختلفة؛ وكانت المفاخرة تأتي من أعلى الناس مقاماً، ويحركها أقل سبب؛ ولا يستطيع من يظن أنه يكسب المفاخرة مقاومة ضغطها وإلحاحها، وهذا عبدالملك يستثيره

(١) محاضرات الأدباء: ٦٤.

منظر بعض من ظن أن فيه مجال مفاخرة، فيفاخره، ولكنه ما غَلَب إلا عندما لوح بغصن الدين الوارف، إذ أنه يعرف أن من يفاخرهما أسسهما القبلية غير مجهولة الفضل، والقصة هكذا:

«خرج عبدالملك بن مروان من الصخرة، فأدرك سليمان بن قيس الغساني، وابن هبيرة الكندي، وهما يمشيان في صحن بيت المقدس.

فما علما حتى وضع يده اليمنى على منكب سليمان، ويده اليسرى على منكب ابن هبيرة الكندي، ثم قال:

أفرجا الملك، ليس كملك غسان ولا كندة.

فالتفتا، فإذا أمير المؤمنين؛ فأراد أن يفخرا بملكهما، فقال: على رسلكما، أليس ما كان في الإسلام خيراً مما كان في الجاهلية؟

قالا: بلى.

قال: فملكي خير من ملككم.

ثم مشيا معه، حتى أتيا منزله، فدخل، فأذن

لهما، فقال لهما: إن الشاعر يقول:

جَاءَتْ لِتَصْرَعَنِي، فَقُلْتُ لَهَا: ارْفُقِي
وَعَلَى الرَّفِيْقِ مِنَ الرَّفِيْقِ ذِمَامُ

وقد صحبتماني من حيث رأيتما، ولكما بذلك عليّ حق، وذمام، فإن أحببتما أن ترفعا ما كانت لكما من حاجةٍ الساعة، وإن أحببتما أن تنصرفا فتذكرا على مهلكما فعلتما.

فما رفعا إليه حاجة إلا قضاها». [(١)]

لقد شعر عبدالملك أنه فخر عليهما، وأغلق الباب عليهما باب الرد، ووضع على هذا الباب رتاجاً قوياً؛ فأسكتهما، وأراد أن يخفف من الموقف، فحياهما بإدخالهما بيته، وأفهمهما أنهما بهذا، وفي ضوء مدلول البيت الذي ساقه، أصبح لهما عليه حق، هو قاضيه، إن أرادا أخذه الآن، أو إن رأيا أن يتريثا، حتى يفكرا متمهلين فيما يختارانه، وقد وفى لهما بوعده؛ فهو إن كان أوصد عليهما باب الرد،

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٩٤.

فقد فتح لهما روض الجود والكرم، وحباهما بالاستجابة لما جاء منهما فيما بعد.

ولعل عبدالملك بعد أن فخر عليهما أدرك أن الإسلام قد أوقف نعرة الجاهلية، في العصبية القبلية، وهذا الإيقاف هو الذي نفعه في الحجة الدامغة التي قفل بها الباب؛ ولكن مجرد أن فكرة المفاخرة مرت بذهنه فيه دليل على أن الأمر لايزال ماثلاً في الأذهان، في ذلك الزمان.

ونعود إلى قيادة القبيلة، ورئاستها، لنعطي صورة من الصور التي يظهر بها الرئيس، وما استحقه ليكون رئيساً؛ فالعقل والحكمة والشجاعة، والاستفادة من التجارب، والكرم، والتسامح، والمبادرة إلى عمل الخير؛ وحسن التصرف، صفات تقرب الرئيس مما يؤمل أن يتحلى به، ويكتمل فيه؛ ولسنه، ولما مر عليه، ولهذه الصفات يكون أغزر علماً من قومه في أمور الحياة، وأكثرهم فهماً وإدراكاً، وفي القول الآتي للأحنف، وهو رئيس قومه، المطاع، ما يكشف

جانباً مما هو في ذهنه:

«قال رجل من تميم: حضرت مجلس الأحنف بن قيس، وعنده قوم مجتمعون في أمر لهم، فحمد الله تعالى، وأثنى عليه، ثم قال:

إن من الكرم منع الحُرَم؛ ما أقرب النقمة من أهل البغي؛ لا خير في لذة تُعقِب ندماً؛ ولن يهلك، ولن يفتقر من زهد؛ رب هَزْل قد عاد جدّاً؛ ومن أمن الزمان خانه؛ ومن تعظم عليه هانه؛ دعوا المزاح، فإنه يورث الضغائن؛ خير القول ما صدقه الفعل؛ واحتملوا لمن أدل عليكم؛ واقبلوا عذر من اعتذر إليكم؛ أطع أخاك وإن عصاك؛ وصله وإن جفاك؛ أنصف من نفسك قبل أن ينتصف منك؛ وإياك ومشاورة النساء؛ واعلم أن كفر النعمة لؤم؛ وصحبة الجاهل شؤم؛ ومن الكرم الوفاء بالذمم؛ ما أقبح القطيعة بعد الصلة، والجفاء بعد اللطف، وأقبح العداوة بعد الود؛ لا تكونن على الإساءة أقوى منك على الإحسان، ولا إلى البخل أسرع إلى البذل؛

واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك؛ فأنفق في حق؛ ولا تكونن خازناً لغيرك؛ وإذا كان الغدر في الناس موجوداً فالثقة بكل أحد عجز؛ إعرف الحق لمن عرفه لك؛ واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل.

قال: فما رأيت كلاماً أبلغ منه، فقمت وقد حفظته»[1].

هذه درر تتالت، تحت كل درة معان مضيئة؛ من اتبعها ربح، ومن حاد عنها خسر؛ مدلولها واضح، وحقيقتها واقعة، لا تأتي إلا من رجل عرك الحياة، وجربها، وعرف مرها وحلوها؛ عرف الناس بأنواعهم، وعلى أحوالهم، فجاء بهذه الزبدة من القول، يصبها في أذهان قوم من قومه، جاؤوه في أمر من أمورهم، لعل في بعض ما قاله ما يصلح حالهم التي جاؤا من أجلها.

وإن كان الراوي حفظ بإتقان ما قاله الأحنف،

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٢٤٧.

فقد أحسن وأجاد؛ وإن كان تحرى أو زاد، فقد نقل روح المجلس، وما قيل فيه. ولابد أن القوم وقد سمعوا من كبيرهم هذه الأقوال المضيئة رضوا عنه، ورضوا عن أنفسهم في حسن اختيارهم لمثل هذا الرجل الحكيم. والأحنف اشتهر بالحلم، وقد ذكر أنه أخذه من عاصم بن قيس، زعيم تميم قبل الأحنف؛ وعاصم بذر بذرة نبيلة في أرض خصبة آتت أكلها كما تمنى زارعها.

والمتمعن فيما قاله الأحنف يجد أنه منهج عمل متكامل، تطبيقه يأتي بمجتمع سليم؛ والأحنف وضع إطاراً عاماً للسياسة التي يسير عليها هو، وكل رئيس ناجح، ثم فصل في بعض المواضع، وأخذ يلمس الجوانب العملية في الحياة، ويرسم في بعضها الجانب المضيء، فيدعو إليه، والجانب المظلم، فيحذر منه، وقد انتهز الأحنف فرصة اجتماع القوم عنده، ليجدد لهم ما لابد أنهم يعرفونه عنه، ولكن وضعه في هذا المجلس، وبهذا الصفة الشاملة المتكاملة،

له أثره في القبول .

وقد علق صاحب كتاب «الجليس الصالح» بقوله واصفاً هذه الحكم :

«هذا لعمري[1] من أشرف الكلام ، وأبلغه وأحسنه ، وأبلغ الخطاب ، وأبينه ، فرحم الله أبا بحر كيف أشار بالرشد ، وهدى إلى القصد ، وما فصل من فصول خطبته هذه إلا وقد وردت الآثار بما يؤيده ، مع ما في العقول مما يدعو إليه ، ويؤكده» .[2]

والتربية يتلقاها ابن القبيلة من أبويه وأهله ، ومن أفراد عشيرته ، توصله إلى ما وصل إليه الأحنف ، فإذا وفقه الله إلى من يحسن تربيته صغيراً ، ويرضعه لبان الحكمة ، ومعين الفضيلة ، وأضاف فيما بعد ، عندما يكبر ، عصارة التجارب ، وما يصل إليه بالتدبر والتبصر فيما يمر به ، ويجرى عليه ، كمل له ما كمل للأحنف .

---

(١) هذا حلف تعود عليه القوم ، وهو يخالف الشرع ، لأن الحلف بغير الله شرك .
(٢) الجليس الصالح : ٢/ ٢٤٨ .

وقد يكون الأحنف في أول أمره تلقى توجيهاً من أحد أبويه يماثل ما وجده أعرابي في توجيه أمه، والتوجيه هذا جاء في صيغة نصيحة من أم لابنها، وقد عزم على سفر، وهذا نصها:

«قال أبان بن تغلب، وكان عابداً من عباد البصرة:

شهدت أعرابية، وهي توصي ولداً لها يريد سفراً، وهي تقول له:

أي بني! اجلس أمنحك وصيتي، وبالله تعالى توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك.

قال إبان: فوقفت مستمعاً لكلامها، مستحسنا لوصيتها، فإذا هي تقول:

أي بني! إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين؛ وإياك والتعرض للعيوب، فتتخذ غرضاً؛ وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام، وقل ما اعتورت السهام هدفاً إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته؛ وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريماً، يلين لهزتك؛

ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة، لا يتفجر ماؤها؛ ومثل لنفسك أمثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به؛ وما استقبحت من غيرك فاجتنبه؛ فإن المرء لا يرى عيب نفسه، ومن كانت مودته بِشْرَهُ، وخالف ذلك فعله، كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها.

ثم أمسكت، فدنوت منها، فقلت:

بالله يا أعرابية إلا زدتيه في الوصية!

قالت: أوقد أعجبك كلام الأعراب، يا عراقي؟

قلت: نعم.

قالت: والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم، ومن جمع الحلم والسخاء، فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها». [1]

هذه تعاليم ناجحة لأحدى مراحل الدراسة في حياة ابن البادية، وقد جمعت هذه الدروس فأوعت، وهدت فشملت، واختيرت بعناية وإتقان، يكمن وراءها عمق التجربة، ويحدوها العطف والحنان،

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٣٢٣.

من أم في موقف يبتعد عنها ابنها، وكانت وهو معها تسقيه النصائح نصيحة نصيحة، حسب الحال؛ أما الآن فلن تكون معه، فأعطته المخزون كله دفعة واحدة، ورجت أن يستوعب الدرس؛ أما إذا كان مثل الأحنف فقد استوعبه.

وهذه روح حضارية عالية، إذا غذيت بلبان التعهد، وسقيت بماء المتابعة، فإن بقاءها أقرب إلى المتوقع، وتطورها أقرب إلى المعقول؛ ويبدو أنها نزلت مع القرون إلى مجتمع المدن، ودخلت الحياة في أوجهها المتعددة، ولم تعد تقتصر على أم توصي ابنها عند سفره، أو رئيس قبيلة يرشد قومه، ويدل على طرق النجاح في الحياة، ولا إلى ما يبعدهم عن ما يجلب الشقاء، ويقلقهم في حياتهم، وينكد عليهم عيشهم؛ ولكنها تعدت، ولعلها دخلت كل ميدان، والميدان الآتي أحد المجالات التي صالت فيها وجالت؛ وهذه قصة تري حاجة أحد البارزين في المجتمع إلى رجل قدير على القيام بالعمل الذي أراد أن يسنده

إليه، والصفات التي يريد أن تجتمع فيه، وهي صفات منتقاة، وسوف لا يكون من السهل أن تتوافر في رجل واحد؛ وإذا كانت وصية الأم، ونصيحة رئيس القبيلة تأتي منجمة حسب ما يمر بالإنسان من ظروف، وملبسة على الوقائع عند حدوثها، فهذه بخلافها جواهر منتقاة، جمعت في سفط يقال له رجل، وأين ذاك الرجل؛ ولكنه الطموح الذي فتحت الحضارة إليه الأعين، ووسعت الطموح، وهذه هي القصة:

«كتب الحسن بن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي:

أما بعد، فإني قد احتجت في أموري إلى رجل جامع لخصال الخير، ذي عفة ونزاهةِ طعمة؛ قد هذبته الآداب، وأحكمته التجارب؛ ليس بظنين في رأيه، ولا بمطعون في حسبه؛ إن أؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قلد مهما من الأمور أدى قبوله؛ له سِنّ، مع أدب ولسان؛ تقعده الرزانة، ويسكته الحلم؛ قد فر عن ذكاء وفطنة، وعض على قارحة

من الكمال؛ تكفيه اللحظة، وترشده السكتة؛ قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها، وقام بأمورهم فحذقها؛ له أناة الوزراء، وصولة الأمراء، وتواضع العلماء، وفهم الفقهاء، وجواب الحكماء؛ لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده؛ يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه، وحسن لفظه، دلائل الفضل عليه لائحة، وأمارات العلم له شاهدة؛ مضطلع بما استنهض، مستقلاً (كذا) بما حُمّل.

وقد آثرتك بطلبه، وحبوتك بارتياده؛ ثقة بفضل اختيارك، ومعرفة بحسن تأتِّيك.

فكتب إليه:

إني عازم على أن أرغب إلى الله حولاً كاملاً في ارتياد هذه الصفة، وأفرق الرسل الثقات إلى الآفاق لالتماسه، وأرجو أن يمن الله تعالى بالإجابة، وأفوز لديك بقضاء حاجتك ـ إن شاء الله». (١)

هذه الصفات دخل بعضها مع بعض، بسبب

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٤٣٩.

قصد كاتبها التمعن في أسلوب الكتابة، وتحسين الألفاظ، وتجميل الأسلوب، وهذا أدى إلى تراكب المعاني، وتحاسدها في الجواد التي سارت عليها؛ ولم تأت بصفاء جمل الأعراب.

هذا أمر، والأمر الثاني، تُرى هل هذه الصفات تتوافر في القاضي محمد بن سماعة نفسه! ومن هم الثقات الذين سيعرفون من تتجمع فيه هذه الصفات؟ وإذا كان فيهم أحد يعرفها فاخْرِ به أن يتصف بها! أو لعل الأمر أمر تعجيز!

وإذا كان انتقال النصيحة من البادية إلى الحاضرة أخذ هذه الصفة، وبرز علماً حضارياً تنقل الصفات فيه من أسلوب إلى أسلوب، ومن حقل إلى حقل، ومن غرض إلى غرض، فالمفاخرة بالقبيلة وأعمالها انتقل من البادية إلى الحاضرة، وحل في المدن، لتكون المدينة رمزاً للقبيلة، لغالبية من سكن تلك المدينة من القبائل، وسكن تلك المدينة الأخرى من القبائل، ولعل البصرة والكوفة خير مثل على ذلك،

فلم تقتصر المفاخرة، على الجانب القبلي، ولكنها تعدت إلى ضلع آخر من العنصرية، تعدت إلى الفقه، والنحو، وصار لهؤلاء رأي في بعض الأحكام، اعتماداً على نص، ولهؤلاء رأي، اعتماداً على نص آخر.

أما التعصب القبلي، واتخاذه المدن منطلقاً للمفاخرة فيمثله النص التالي، وقد خلط فيه جانب الحرب بجانب السياسة، مما قد يوحي بأن في الأمر تأليفاً، خاصاً وأن هذا الدرب فيه من الانزلاق، وتوقع العثور، ما يكاد يلازم كل فقرة فيه:

«قال أبو بكر عبدالله بن سلمي الهذلي:

كنت بباب أبي العباس حين ولي الخلافة، فخرج آذنه فأدخل من كان بالباب من أهل الكوفة؛ فدخل عليه محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى، والحجاج بن أرطأة، والحسن بن زياد؛ وأدخل من كان من أهل البصرة.

فقال محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى: نحن أكثر

من أهل البصرة خراجاً، وأوسع منهم أنهاراً.

فقال لي: ما تقول يا أبا بكر؟

قال: قلت: معاذ الله من ذلك، يا أمير المؤمنين، وكيف يكونون كذلك، ولنا كرمان، ومُكران، وفارس، والأهواز، والسند، والهند، والقَرْص، والقُرْص؛ افتتحناها بالبيض القواضب، حتى ربطنا أعنة الخيل بأصول القنا بأرض الفلفل.

قال: فقال محمد بن عبدالرحمن: نحن أكثر علماً وفقهاً.

قال: فما تقول يا أبا بكر؟

قال: قلت: بل هم أعظم كبرياءاً، وأقل أتقياءاً، وأكثر أنبياءاً؛ كان منهم المغيرة، الخبيث السريرة، وبيان بيّان؛ والله! يا أمير المؤمنين، ما رأيت شيئاً قط أكثر بدناً مصلوباً، ولا رأساً منصوباً من أهل الكوفة؛ وما لنا إلا نبي واحد ﷺ.

قال: فتبسم أبو العباس.

فقال الحسن بن زياد: أتشتم أصحاب علي؟ وقد

سرتم إليه، لتقتلوه؛ فإن قلت: نحن والله أصحاب علي، سرنا إليه لنقتله، فكفَّ الله تعالى شوكتنا، وسلاحنا، عنه، حتى أخرجه من بين أظهرنا، فقتله أهل الكوفة من بين أظهركم؛ فأينا أعظم ذنباً؟

فقال الحجاج بن أرطأة: بلغني أن أهل البصرة كانوا يومئذ ثلاثين ألفاً، وأهل الكوفة تسعة آلاف، فلما التقت حلقتا البطان، وتناهد النهدان؛ وأخذت الرجال أقرانها، ما كانوا إلا كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف.

قال: ما تقول يا أبا بكر؟

قلت: معاذ الله ـ تعالى ـ من ذلك يا أمير المؤمنين، ومن أين كنا ثلاثين ألفاً، وقد خرجت ربيعة تعين علينا، وخرج الأحنف بن قيس في سعد والرباب، وهم الشام الأعظم، والجمهور الأكبر؛ ولكن سلهم كم كان عددنا يوم استغاثوا بنا؟ فلما التقت حلقتا البطان، وتناهد النهدان، وأَخَذت الرجال أقرانها، شدخ منهم في صعيد واحد تسعة آلاف،

وذبحوا ذبح الحملان.

قال: فقال محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى:

يا أمير المؤمنين نحن أكثر منهم أشرافاً، وأكرم منهم أسلافاً.

قال: ما تقول يا أبا بكر؟

قلت: معاذا الله! يا أمير المؤمنين، هل كان في تميم الكوفة مثل الأحنف بن قيس؟ يقول فيه الشاعر:

إِذَا الأَبْصَارُ أَبْصَرَتِ ابنَ قَيْسٍ
ظَلَلْـنَ مَهَـابَـةً مِنْـهُ خُشُـوعَـا

وهل كان في قيس عيلان الكوفة مثل قتيبة بن مسلم؟ الذي يقول فيه الشاعر:

كُـلُّ يَـوْمٍ يَحْـوِي قُتَيْبَـةُ نهبـاً
وَيَـزِيْـدُ الأَمْـوَالَ مَـالاً جَـدِيـداً
بَاهِلِيٌّ قَدْ عَصَبَ التَّاجَ حَتَّى
شَـابَ مِنْـهُ مَفَـارِقُ كُـنَّ سُـودَا

وهل كان في بكر بن وائل الكوفة، مثل مالك بن مسمع؟ الذي يقول له الشاعر:

إِذَا مَا خَشِيْنَا مِنْ أَمِيْرٍ ظُلاَمَةً
دَعَوْنَا أَبَا الأَيْتَامِ يَوْماً فَعَسْكَرَا

وهل كان في أزد الكوفة مثل المهلب بن أبي صفرة؟ الذي يقول له الشاعر:

إِذَا كَـانَ المُهَلَّـبُ مِـنْ وَرَائِـي
هَـدَا لَيْلِـيْ وَقَـرَّ لَـهُ فُـؤَادِيْ
وَلَـمْ أَخْشَ الـدَّنِيَّةَ مِـنْ أُنَـاسٍ
وَلَـوْ صَـالُـوا بِقُـوَّةِ قَـوْمِ عَـادِ

وهل كان في عبد قيس الكوفة مثل الحكم بن المنذر بن الجارود؟ الذي يقول له الشاعر:

يَا حَكَمَ بْنَ المُنْذِرِ بْنِ الجَارُوْدْ
أَنْتَ الجَوَادُ ابْنُ الجَوَادِ المَحْمُوْدْ
سُرَادِقُ المَجْدِ عَلَيْكَ مَمْدُوْدْ»[1]

هذه صورة من صور التعصب القبلي، وربطه بالمدن بعد أن تحضر أبناء البادية، وسكنوا المدن، أو

---

(١) الجليس الصالح: ٢/ ٤٤٣.

أنشؤوها؛ وقد أتقن الحوار الذي لابد أنه حبر وتعب عليه؛ وأبو العباس ليس له دور يذكر إلا إدارة المفاخرة، والابتسامة هنا وهناك؛ لأنه من الأساس لم يكن له دور في هذا المجلس الذي أقامه الراوي المؤلف؛ والمقصود هي الصورة التي رسمها، وحزبه كما هو واضح هو الفريق الذي رجحت كفته في الجدل.

هذه لمحة لبعض جوانب حياة القبيلة عموماً، والحديث عن القبيلة له شعب مختلفة، ويستحق أن يدرس وضع القبيلة حسب الأزمان والعصور، وما دخل عليها من تطور، والقبيلة مجتمع متكامل، له انفراده في كل جانب من جوانب الحياة، ومن الممتع أيضاً تتبع القبيلة، وما طرأ عليها عندما اقتربت من المدن، واختلطت بأهلها، وجاء منها ما جاء، ودخلها ما دخلها؛ ومن المناسب الاكتفاء بهذه النماذج.

❋ ❋ ❋

ظلمة الزلة

الإنسان في هذه الحياة معرض للزلل، لأن الإنسان غير معصوم؛ ولكن الزلات تختلف، ويختلف أصحابها: مرتكبوها، والمرتكبة في حقهم؛ فبعض الناس كثيرة زلاته، متناهية هفواته، لا يستفيد من التجربة في هذا المجال، ولا يأخذ درساً مما يمر به من أخطائه؛ والأخطاء قد تأتي قسراً، لا يتعمدها الشخص، وقد يكون هو المتسبب لها بما يشبه العمد، لخفة عقل، وسماجة طبع.

والزلات درجات، فمن الزلات ما هو حاد، ومنها ما هو طفيف؛ والحاد قد تقوم عليه نتائج، فيها أخطار قد تصغر وقد تكبر، وقد تكون على السطح، وقد تكون عميقة متغلغلة، فتسبب لصاحبها من الشقاء ما لم يكن بالحسبان، أما الطفيف فقد لا يتنبه له، أو لا يؤبه به إن لوحظ، وقد يكون مصدر ظُرف وطرافة.

وبعض الناس يكون فَكِهاً فتقبل منه كل زلة، ما لم تسبب أذى، أو عنتاً، وبعض الناس يكون قبوله عن طريق فلتات اللسان، وسوء التصرف، حيث إن هذا متوقع منه، ويدخل ضمن طبعه، فهو ليس فقط لا يؤاخذ، ولكن يتعجب منه إذا لم يزل زلة كبرى ويغلط غلطاً كبيراً؛ وقد يكون بعض ناقصي العقل، أو من يتظاهرون بهذا، محل تسلية للناس؛ ولو توقفوا عن هذه السجية لملهم الناس، واستثقلوا مجالسهم، وربما نبذوهم، ليحلوا غيرهم محلهم.

والإنسان في حياته الطويلة، وفي أطوار عمره المختلفة، معرض لأن يزل، وهذا الزلل يؤلم صاحبه إذا كان رقيق الشعور، ولا يفيده إلا نعمة النسيان التي حبا الله بها الإنسان، ولو لم ينس الإنسان ما يمر به من منغصات، لكانت حياته شقاء، بسبب ما يتراكم عليها من الهموم. ولكن الزلل عند العاقل درس يستفيد منه في حياته، يصبح معه حذراً لا يقترب من مواقع الزلل.

وقد يتحمس الإنسان لفكرة فيقول ما يُعتبر زلة تقام عليه الحجة بسببها، وهذا ما حدث لعمرو بن العاص مع معاوية عندما أبدى رأياً شاذاً تجاه البنات، فرد عليه معاوية رداً رصيناً، هذا إذا صح الخبر:

«دخل عمرو بن العاص على معاوية، وعنده ابنته عائشة، فقال:

من هذه، يا أمير المؤمنين؟

فقال: هذه تفاحة القلب.

فقال: انبذها عنك.

قال: ولم؟

قال: لأنهن يلدن الأعداء، ويقربن البعداء، ويورثن الضغائن.

فقال: لا تقل ذاك يا عمرو، فوالله ما مرّض المرضى، ولا ندب الموتى، ولا أعان على الأحزان، مثلهن؛ وإنك لواجد خالاً قد نفعه بنو أخته.

فقال له عمرو: ما أعلمك إلا حببتهن إليّ».[1]

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١١٣.

إذا كان عمرو بن العاص قد قال ذلك فقد زل زلة كبرى، يبين جسامتها ما رد به معاوية، من ذكر المحاسن مقابل المساوئ، التي عددها عمرو؛ وإن صح أن عمرو قال ما قال فإن في ذهنه، وهو يفكر بالأمر، بقية من أيام الجاهلية، المغرقة في الجهل؛ أو أنه قد لدغ من امرأة لونت فكره بهذا اللون القاتم؛ أو أن أحداً ممن يجله قد تعرض لمثل ذلك؛ أو لعله قال ما قاله استفزازاً، ليرى ما لدى معاوية، وقد جاءه منه ما أقنعه، وزحزحه عن الموقف الراسي الذي كان وقفه.

ولقد صدق معاوية ـ رضي الله عنه ـ فيما قاله، فالإبنة تأتي لأهلها بابن، فهي تضيف إلى العائلة عضواً نافعاً إذا صاحبها وزوجها التوفيق، أما الابن فعند زواجه يؤخذ من أهله، ويضاف إلى عائلة أهل زوجته، ويفقده نوعاً ما أهله؛ وجملة عمرو، التي يقول فيها «إنهن يلدن الأعداء» مدلولها مقتسر، فإذا صح هذا في الجاهلية فلا يصح في الإسلام، وإذا

كانت الصحراء سمحت الحياة فيها بحالات من ذلك، فحياة المدن خلافها، ومثل هذه الجملة جملة «يقربن البعداء» فهذه كلمة خادعة في مظهرها، ويمهد لقبولها أنها جاءت في سياق الذم، ولو لم تكن كذلك لكانت مدحاً، فتقريب البعيد لا يعدو أن يكون قلباً للعدو ليصبح صديقاً؛ والجملة الثالثة «يورثن الضغائن»، ومن الصعب تصور حصول ذلك.

وإذا ما وزن قول عمرو بقول معاوية من ناحية الواقع، وصحة الحدوث، فإن قول معاوية يرجح كثيراً، أما قول عمرو فتشيل كفة ميزانه في السماء؛ ويشهد على تمريضهن المرضى رقتهن، في تضميد الجراح، وتخفيف الآلام، وصبرهن على ذلك، ولا أدل على هذا من أنه عبر العصور كن خلف الصفوف في الحروب يقمن بهذا العمل، بل إنهن في زمننا قد اصبحن الممرضات الطبعيات، وهن الماء وغيرهن التيمم.

وصدق معاوية عن بنات الأخت لخالهن، والحياة

تؤكد هذا، وفي كتب التاريخ ما يدل عليه، فقد جاء في هذا أمثلة كثيرة، واعتزاز أبناء الأخت بأخوالهم فيه حماس يؤكد الشعور الداخلي للمحبة، وقوة الرابطة.

وزل قائد مع رئيسه زلة كبرى، تحملها منه، وندم صاحب الهفوة، واعتذر، والغلطة كبيرة، ولكنها كانت بين كبيرين، تصرفا تصرفاً يليق بهما، وبمقامهما:

«وقع بين أبي مسلم وبين قائد له كلام، فأربى عليه القائد، إلى أن قال له: يا لقيط.

فأطرق أبو مسلم.

فلما سكنت عنه فورة الغضب ندم، وعلم أنه قد أخطأ، واعتذر، وقال:

أيها الأمير، والله ما انبسطت حتى بسطتني، ولا نطقت حتى أنطقتني، فاغفر لي.

قال: قد فعلتُ.

فقال: إني أحب أن أستوثق لنفسي.

فقال أبو مسلم: سبحان الله! كنتَ تسيء وأحسنُ،

فلما أحسنتَ أسيءُ!». [1]

هذا القائد زل لسانه وقت الغضب، فقال ما قال من شتيمة تعدت الحدود، يتنزه المرء أن يقولها لمن هو أدنى منه، فما بالك بمن هو أعلى علواً كثيراً؛ فلما سكن عنه الغضب، راجع ما قاله، فوجده خطأ عظيماً، وزلة لا يغفرها إلا من أوتي الفضل من الناس؛ فجعل الدالة التي أتاحها له أبو مسلم سبباً للاعتذار إليه، وكأنه يحمله بعض الخطأ في أنه قربه من نفسه، فتجرأ عليه، وقال ما قال، ولو لم يتباسط معه، ويأخذ معه في الكلام ويعطي، لما حدث من ذلك شيء.

وقد غفر أبو مسلم زلته، وقبل عذره، ولعله في داخل نفسه اقتنع بأن له شركة في الزلة كما قال القائد، ولكن هذا القائد، وقد أدرك عظم الزلة رأى أن قبول العذر بهذه الصفة لا يكفي، وأراد أن يوثق قبول العذر بتأكيد من أبى مسلم، فجاء التأكيد، ومعه

---

(١) عيون الأخبار: ٣/ ١٢١.

سبب مبتدع، مضيء بالصدق، غني بالحق، في جملة جميلة المظهر، ناصعة المخبر؛ تحمل رأياً حصيفاً، وفكراً نيراً؛ لم يكتف أبو مسلم بتكرار القول في طمأنة الرجل، أو حلف يمين من السهل أن يتأول فيه، بل قال قولاً الطمأنةُ الدامغة فيه جاءت من عمق فكرته، وابتداع معناه، وفيه عتب على القائد في أنه لم يلحظ الأمر كما أراده أبو مسلم في رده غير المتقعر، أو المتكلف.

وهذه زلة فرد مع فرد، وربما تتكرر من القائد إذا كان غضبه قريباً من السطح، ويُغلي قدره عود ثقاب؛ ولكن مهما كان الموقف في المستقبل فإن هذا القائد سوف لا ينسى هذه الزلة، إذا لم يكن لعظمها، فللرد المعلل المقنع.

وهناك زلة إذا صحت، فإنها كبرى، ولكن نرجو الا تكون قد حدثت، وإنما هي فكرة طرأت على ذهن راويها، فأراد أن يستفيد من سليمان بن عبدالملك ابن مروان ليعلقها عليه مشجباً، عن طريقه يعرض فكرة له عن القضاء والقدر، لا يجرؤ أن ينسبها

لنفسه، أو أنه غاضب على عبدالملك، فأراد أن يشوه سمعته بمثل هذه القصة، والقصة تقول:

«قال أبو الحسن:

مر سليمان بن عبدالملك بالمجذومين، في طريق مكة، فأمر بإحراقهم؛ وقال:

لو كان الله يريد بهؤلاء خيراً ما ابتلاهم بهذا الداء»[1].

لو صح الخبر، ولا أراه صحيحاً، لكانت هذه زلة عظمى من سليمان؛ إذ أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلي عبده لأسباب قد تخفى على العبد، وقد يكون منها الاختبار، لمعرفة مدى صبر العبد، أو لعلها تكفير له في الدنيا قبل الآخرة عن ذنب اقترفه، يتساوى فيه العقاب مع الذنب؛ والله سبحانه قادر على أن يشفي المريض، مهما بلغت شدة مرضه، ولهذا حرم الله على المرء أن يقتل نفسه عند نزول الكارثة به، أو عند حلول المصيبة به، من فقد حبيب، أو

---

(١) عيون الأخبار: ٤/ ٦٨.

فقد ثمين، أو نزول مرض؛ فإذا كان المرء حرم عليه قتل نفسه، وهو مالكها، فمن باب أولى الا يحل ذلك لغيره، إلا لحكم اقتضاه الشرع، وأوجبه الدين؛ ويقوم به الحاكم تنفيذاً، بعد أن يكون مر بالقنوات الشرعية، الموصلة إلى النتيجة.

وإذا صح أن سليمان أراد بعمله هذا رحمة هؤلاء مما هم فيه، فليس الأمر إليه، إذ لا شرع يجيزه، وهو المسلم القريب من عهد الرسول ﷺ، وعهد الصحابة؛ وقد جاء بعد هذا بقرون طبيب في عصرنا هذا، يعمل في الهند، وفي مستشفى للجذام؛ وأخذته الرحمة بهم، فأخذ يخلط مع الدواء زرنيخاً، أَمَّل أن يقضي به على حياتهم، براحة، إذ أن الكميات التي كان يعطيهم إياها كانت صغيرة، لا يلاحظها أحد، ولا يشعر بأذاها المريض؛ ولدهشته ودهشة من حوله، بدأت حال المرضى تتحسن، وبدأ المرض يختفي، فتبين أن في الزرنيخ إذا أعطي بمقدار، سبباً بإذن الله لارتفاع المرض؛ وكأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ

بهذا يؤكد للبشر أنه صاحب الأمر في الحياة والموت، وأنه لا يسمح لأحد أن يتخطى الحد هذا؛ وأن حكم الفرد، مهما كان سببه، ومهما كان الباعث إليه، حتى لو كانت الرحمة، وتخفيف الآلام، هو غير سليم، وناقص؛ لأنه لم يبن على حكم شرعي، والعقل والمنطق إذا خالفا الدين ضلا.

الذي يطمئن النفس أن هذه الزلة لم تقع من سليمان ـ رحمه الله ـ وإنما ركبت عليه، ولعل الله أن يكتب له بهذه التهمة أجراً.

وزلة كبرى، مركبة الأجزاء، متداخلة المراحل، لعل في بعضها شيئاً من الخيال، تُري إلى أي مدى يمكن أن يؤدي الخطأ بصاحبه، أو صاحبته، والمآل القاتل للزلة، التي يمكن أن ينزلق فيها الإنسان، وهو يظن أن يهيء لنفسه بها موقعاً حسناً، في حين أنه يرصد لنفسه حتفها، وينصب لها شباك الموت، وهذه هي القصة.

يقول صاحب «عيون الأخبار»:

«وقرأت في سير العجم أن أردشير سار إلى «الحضْر»، وكان ملك السواد متحصنا فيها، وكان من أعظم ملوك الطوائف، فحاصره فيها زماناً لا يجد إليه سبيلاً، حتى رقيت ابنة ملك السواد يوماً، فرأت أردشير، فعشقته، فنزلت، وأخذت نشابة، وكتبت عليها:

إن أنتَ شرطتَ أن تتزوجني دللتك على موضع تفتتح منه هذه المدينة بأيسر حيلة، وأخف مؤونة.

ثم رمت بالنشابة نحو أردشير، فكتب الجواب في نشّابة:

لك الوفاء بما سألت.

ثم ألقاها إليها؛ فكتبت إليه تدله على الموضع، فأرسل إليه أردشير، فافتتحه؛ ودخل هو وجنوده، وأهل المدينة غارّون، فقتلوا ملكها، وأكثر مقاتلتها، وتزوجها.

فبينما هي ذات ليلة على فراشه أنكرت مكانها، حتى سهرت لذلك عامة ليلتها؛ فنظروا في الفراش، فوجدوا تحت المحبس ورقة من ورق الآس قد أثرت

في جلدها، فسألها أردشير عند ذلك عما كان أبوها يغذوها به، فقالت:

كان أكثر غذائي الشهد والزبد والمخ.

فقال أردشير: ما أحد ببالغ لك في الحباء والإكرام مبلغ أبيك، ولئن كان جزاؤه عندك على جهد إحسانه، مع لطف قاربته، وعظم حقه، جهد إساءتك، ما أنا بآمن لمثله منك.

ثم أمر بأن تعقد قرونها بذنب فرس، شديد المراح، جموح، ثم يجري؛ ففعل ذلك حتى تساقطت عضواً عضواً». [1]

هذه زلة تفوق كثيراً من الزلات الكبرى؛ لأن صاحبتها جرت خلف شهوة، قضت بها على والدها، الذي صورته القصة رؤوفاً رحيماً بها؛ وكان مدللا لها، لا يسمح للريح أن تمسها، زيادة في الحنو والعطف؛ ومع هذا خانته، وأضاعت عليه ملكه، وأسلمته للقتل؛ ولكن الله لها بالمرصاد، فجازاها بعملها

(١) عيون الأخبار: ٤/١١٦.

الجزاء الأوفى، وقتلتها اليد التي قتلت أباها؛ هذا إن صح الخبر.

والقصة فيها كثير من الخيال، وليس من السهل عزل الصحيح من المتخيل فيها؛ ومن الثابت عندنا اليوم أن الشهد والزبد والمخ ليست غذاءًا كافياً، ولا توصل الجسم إلى النعومة التي وصفت بها هذه المرأة؛ بل إنه ليس الغذاء المفضل؛ وأن المداومة عليه مملة؛ فهذا الجانب رَبَع فيه الخيال ما شاء له أن يربع، وجمح فيه ما شاء له أن يجمح، وتبقى الفكرة العامة: الزلة في إطارها العام.

وقد تأتي الزلة صغيرة، ولكنها تحمرّ لها الأوداج، حياء، ويطغى العرق على صاحبها خجلاً؛ لأن المرء لا يحب أن يؤخذ عليه نقص التصرف، مما يدل على نقص العقل، وسوء التفكير، بل هو يحب أبداً أن يكون أقرب إلى الكمال منه إلى النقص؛ والإنسان رقيق الإحساس، يبقى فترة طويلة يحس بوقع الحادثة، ويجتر ألمها، حتى ينساها، والنسيان نعمة كبرى من

الله سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لتراكمت الهموم على الإنسان وقضت عليه، فالهم له سهام توجه نحو القلب، توهنه بوخزها، وتضعفه بتتاليها.

وقد لا تكون الزلة كبيرة فيمن اقترفت بحقه، ولكن مقترفها لا يدري عن هذا، بل إنه يتخيل خلاف ذلك، فهو يتخيل أكثر الصور حدة، ويطور الأمر في ذهنه، حتى يخرجه عن حد المعقول، وحيز المقبول، والقصة الآتية قد توضع في حدود هذا:

«دخل رجل على بعض العلماء، فأومأ إلى موضع يجلس فيه، فعدل عنه إلى جهة أخرى، وكانت العين تقع هناك على ما يجب ستره، فقال له:

اجلس حيث أجلستك، فإني أعلم بعوار منزلي». (1)

هذه قصة طريفة تخفي خلفها احتمالات عدة، وصور يمكن تخيلها لمثل هذه الحالة؛ فهذا العالم كما يبدو رقيق الحال، لأن العورة في بيته يمكن كشفها بسهولة، لقلة الأماكن وضيقها، فقد يكون طريق

---

(1) البصائر: ٣/ ١١٢.

زوجته من مكان إلى مكان قريب من مجلس الرجال؛ وقد لا تكون هناك إلا غرفة واحدة، من جلس في غير المكان الذي أرشد إليه صاحب البيت كشف داخل البيت.

هذا جانب، والجانب الآخر قد يكون الداخل عدل عن المكان الذي أرشد إلى الجلوس فيه تواضعاً، فجلس في مكان أقل فراشاً، وأقل راحة؛ أو احتراماً لصاحب البيت أحب أن يكون بعيداً عن مقعده.

على أي حال لابد أن الداخل خجل كثيراً عندما تبين له أن أختياره المكان لم يكن موفقاً، وأنه كان عليه أن يجلس حيث جُلِّس؛ ومعرفتنا بأن هذا مجلس علم، فمن فيه خَيْرُ من يعرف مرامي القول والفعل، والإحساس الرهيف الذي يكون عند هؤلاء الناس، وحرصهم على الدقة، وعدم جرح الشعور.

ونعود إلى الغضب، وما يسببه للإنسان من الخروج من الخلق الحسن إلى الصفة القبيحة، بالتلفظ بألفاظ غير لائقة، لا تتماشى مع الذوق، أو أنها تتنافى مع

الدين، أو تخالف الواجب، أو تتسبب بالإثم، وعقوق الوالدين؛ والشتائم، على رأس الرذائل التي قد ينحدر إليها الغضبان، فيشتم، أو يلعن، من لا يستحق ذلك، فيجني من ذلك الندم، إما بالتبصر بعد أن تبرد سورة الغضب، أو بالمفاجأة برد أشد وقعاً مما تلفظ به، ينبهه إلى ما كان غافلاً عنه، ويرده إلى الصواب رغماً عنه.

وهذا هو ما حدث في القصة الآتية:

«قال أعرابي لابنه: أسكت يا ابن الأَمَة.

فقال: والله إنها لأعذر منك، لأنها لم ترض إلا حُراً».(1)

الأب يعير ابنه أنه ابن أمة، وليس ابن عربية حرة، ونسي، في شدة الغضب، أنه هو الذي اختارها، فإن كان هناك عيب في هذا الاختيار فهو يقع عليه، فهو الذي في حمى الرغبة أغفل هذا الجانب الذي يبرزه لابنه على أنه عيب، يلحق النقص به، وكان

---

(1) البصائر: ٣/١١٦.

على الوالد، مادام يعرف أن الأمة أنقص من الحرة، ألا يتزوجها، أو أن لا يتسراها، وكيف يسخط آخراً على ما رضي به أولاً، وكيف يستنقص اليوم ما رآه كاملاً بالأمس.

ثم كيف يعيره بامرأة كاملة العقل، حسنة التصرف، طلبت الأفضل، ونالت الأعلى، فهي الأمة لم تختر من هو في درجتها، أو أقل منها منزلة، وإنما اختارت من هو أعلى منها، اختارت سيداً، سعياً وراء رفع مستوى نسلها؛ ولقد ذكّر الابن أباه بهذه الحقائق التي غابت عنه.

وهذه القصة تدخل في نطاق الشتيمة التي أطلقها القائد تحت إمرة أبي مسلم على أبي مسلم، ثم عاد يعتذر بعد أن تبين له الحق، وبعد أن هدأ جيشان غضبه، الذي تسبب فيه الجدل الذي ترك أبو مسلم العنان لقائده أن يلج فيه.

والقصة الآتية عن الخليفة معاوية بن أبي سفيان، وهي تماثل كثيراً من القصص التي تروى عن معاوية،

ودخوله في نقاش مع أحد مجالسيه، يبدؤه معاوية باستفزاز، وينتهي الأمر بانخذال معاوية، وغلبة من يجادله عليه، وهي صيغ أغرم بها بعض من يبدو أنه مناوئ لمعاوية، ومن يتلمس الأسباب لتشويه سمعته، والنيل منه، ويكاد يكون مجرى هذه القصص واحداً، ويتبع نموذجاً معيناً؛ وهذا يوحي بأن الخبر مكذوب على معاوية؛ يضاف إلى هذا النهج الذي يبرئ معاوية، مجرى الجدل، وأسلوبه، والمعاني التي تطرق لها، فهي كلها تعضد رفض هذا النص، إلا من جانب واحد، يخدم الغرض الذي من أجله أنشئت هذه المقالة، وهو الزلة التي يقع فيها الإنسان، فلو صح أن معاوية قال ما قال، فإنه يعتبر قد زل زلة كبرى، واستحق الرد الذي جاءه، وهو رد لا يليق أن يقال من رجل لخليفة المسلمين.

وفي الصورة التي نحلها هذا القاص يندم معاوية على ما بدر منه، ويقر بهذا، ويرشمه بخاتم حكمة مضيء:

«قال الأصمعي:

دخل مالك بن هبيرة السكوبي على معاوية، فأدناه وقربه؛ وكان شيخاً فانيا، حسن الجسم؛ فخدرت رجله، فبسطها.

فقال له معاوية: ليت لنا يا أبا سعيد جارية مثل ساقك.

فقال: يا أمير المؤمنين، والساق متصل بمثل عجيزتك.

فقال معاوية: البادي أظلم». [1]

«محارشة» كبار السن تأتي عادة بالرد الخشن القاسي، ومؤلف القصة يعرف هذا، ولهذا صاغ قصته هذه عن رجل كهل فانٍ؛ واستفاد أيضاً مما هو معروف عن عظم عجيزة معاوية، والحمد لله أنه لم يذهب في القول إلى عجيزة أمه، كما ذهب غيره، في لمز مشابه لهذا.

ومما يعضد الاعتقاد بأن القصة ملفقة أنها قُرِنت رواية بالأصمعي، والأصمعي مشجب قوي تُعلق عليه كثير من القصص الغريبة النادرة؛ لأنه عرف

---

(١) البصائر: ٣/١٤٨.

برواية القصص النادرة، خاصة عن الأعراب، لأنه عاش بينهم، يتسقط أخبارهم، وغريب لغتهم، ونادر شعرهم.

ومع هذا فالقصة لائقة أن يستشهد بها على أنها محتوية على زلة كبرى، يندم عليها قائلها، ويحاول، بعد أن يزول سببها، أن يصلح ما أفسده بسببها.

ولعل قسوة ردود فعل الكبار، عندما يحاول أحد أن يعبث معهم، أنهم يستجمعون تجربتهم الطويلة، فيمزجونها بحرصهم ألا يغلبوا في الأمر المطروق، فيأتون بأسلحتهم دفعة واحدة، فيفاجئون من أمامهم بما لم يتوقعه؛ ويكون هو قد اختار الزاوية التي انطلق منها، وهم اختاروا زاوية لم تخطر على باله، فجاءهم الخطر منها، لأنها أصبحت نقطة ضعف في دفاعهم، ألهاهم عنها هجومهم؛ وزيادة على هذا فكبار السن لا يتوقعون أن يأتي الاحترام منهم لغيرهم، وإنما من غيرهم لهم، بحكم السن التي أعطاهم العرف والعادة حقوقاً يبزون بها غيرهم،

ويتفوقون بها على من سواهم؛ ومعاوية، وإن كان خليفة، فلا يتوقع أن يجعلوا له الغلبة عليهم، وإلا داس غيره هيبتهم، واستسهل أن يقف منهم موقفاً يطلب فيه النصر عليهم، وهم في نظرهم أحق بالانتصار.

والتقدم في السن يزيد في جرأة المرء حتى أمام الغَشُوم، لأن ما بقي من العمر لا يستحق أن يبتلع المرء فيه كرامته، ويصبر فيه على الإهانة، وللكبير أمل أيضاً أن يشفع له سنه، فما من مخاطب إلا وله والد، في الغالب، يعزه ويقدره، فالمسن يؤمل أن يستحضر الحاكم والده عند ما لا يتحمل الرد القاسي، والقصة الآتية فيها شيء من هذا:

«شكا رجل إلى كسرى بعض عماله، وأنه غصبه ضيعة، فقال: قد أكلتها أربعين سنة، فما عليك أن تتركها على عاملي سنة؟

قال: أيها الملك، وما عليك أن تسلم ملكك إلى بهرام فيأكله سنة؟

فأمر أن يوجأ في عنقه.

فقال: أيها الملك، دخلت بمظلمة، وأخرج بمظلمتين!

فأمر برد ضيعته، وقضاء حوائجه». [1]

هنا لم يستذكر كسرى والده عندما غضب من جرأة الشيخ، ولكنه ارتعب من كلمة «الظلم»، وهو من اشتهر بالعدل، وقد نسي ذلك وهو غضبان، فلم يكن في ذهنه إلا تهجم الشيخ، وسماع الآخرين لذلك، من حاضري المجلس، مما خشي معه أن تسري عدواه إلى غيره، ممن سوف يسمع بالخبر؛ فأراد أن يواكب هذا، النكال الذي لقيه هذا المتجرئ عليه، مما اعتبره قلة أدب في المخاطبة، التي كان يؤمل أن يكون طلب الحق فيها رجاءاً لا تهجماً، ولكن كلمة «ظلم» ذكرته بأن انتشار دعوى الظلم أكثر أهمية من غيرها، فأخلف رأيه، وترك جانبه، وأخذ جانب المتظلم.

لقد زل كسرى عندما ظن أنه على حق، ولكنه سرعان ما عدل ما أماله، وأقام ما تسبب في اعوجاجه؛

---

(١) ربيع الأبرار ١/ ٦٩٠.

وقد تدارك الأمر في وقته، وقبل أن يقوم من مجلسه، فكأن الأمر لم يكن؛ ولكن مجرى الحوادث في الموقف، وطرافتها، جعلها تسجل في تاريخ الأدب، وتصل إلينا، لتكون شاهداً من شواهدنا في هذا الباب.

ويقال إن عمرو بن العاص زل زلة غير لائقة في موقف من المواقف، هذه صورته:

«حبس عمرو بن العاص عن جنده العطاء، فقام إليه رجل حميري، فقال:

أصلح الله الأمير، اتخذ جنداً من حجارة، لا يأكلون ولا يشربون.

قال: أسكت، يا كلب.

قال: إن كنت كذلك، فأنت أمير الكلاب.

فأطرق عمرو، وأخرج أرزاقهم». [1]

في هذه القصة جوانب عديدة، فعمرو في موقف حرج عند ما يخاطبه جندي بهذه اللهجة الخشنة، أمام جنده، لأن هذا قد يشجعهم على التمرد، والخروج عن

---

(١) ربيع الأبرار ١/ ٦٩٠.

طاعته؛ وهذا أمر خطير، لو حدث فإنه يضع عمراً في موقف ضعيف أمام عدوه الذي يرابط أمامه؛ لهذا حنق على الرجل، خاصة وأنه لم يسبق الأمر تمهيد؛ والحميري رفع اللهجة فجأة إلى آخر درجاتها، ووصل إلى النتيجة التي أرادها بأقصر طريق، فلا تمهيد، ولا إرهاص، لهذا جاء الرد سريعاً ـ إن صحت الرواية ـ وقاسياً، مختاراً فيه، دون تمعن، كلمة فيها شتم لا يرضاه أحد.

ولقد رد الجندي على هذه الشتيمة رداً منطقياً، متقناً، أخذ طينته من الأرض التي وقفت عليها شتيمة عمرو، وكال له بصاعه، وسقاه من نبعه؛ ولقد فاجأ الرد عمراً، فلم يجد رداً خيراً من أن يستجيب لداعي الأمر الأساس في هذا الشأن، وسهل ما كان صعباً، وأدرك ما لم يكن مدركاً، وقضي الأمر على خير وجه، ومحيت الزلة.

وتبرق طريفة من الطرائف بين ظلمات الزلات، يزل صاحبها زلة سرعان ما يتبخر أثرها، فتنسى

بجانب ذلك؛ والقصة بطلها الشعبي، وهو من هو في أجوبته الساخرة:

«سأل رجل الشعبي عن اللحية:

قال: خللها.

قال: أخاف ألا تبلها.

قال: إن خفت فانقعها من أول الليل».[1]

رد الشعبي هو الذي بين حدة الزلة، ولولا ذلك لامكن تأويل قول الرجل لصالحه، ولكن رد الشعبي أكد أن سؤال الرجل كان زلة، استحق عليها السخرية؛ لقد أفتى الرجل الشعبي أنه يكفى في غسل اللحية عند الوضوء أن يخللها ببل أصابع يديه، وإدخالها خلال اللحية، وهذا يجزيه؛ ولكن الرجل لم يجد راحة لذهنه في هذا، وأبدى شكه في أن هذا يؤدي الواجب الديني، وأمل بجواب يشفيه أكثر؛ ولكن طلب الاطمئنان حرك الشعبي، فأرسل صاروخاً من صواريخ سخريته، وأرشده إلى أن ينقع لحيته في

---

(١) ربيع الأبرار ١/ ٦٩١، أخبار الظراف والمتماجنين: ٧٩.

الماء طوال الليل؛ وقد رسم الشعبي بهذا صورة مزرية للرجل، فكانت عقاباً كفأً لهذه الزلة الطريفة.

ولنعرف أسلوب الشعبي في سخريته، ومنهجه في ذلك، نسوق النماذج لذلك؛ وهي من زاوية حديثنا هذا تأتي رداً على ما اعتبره الشعبي زلة.

«دخل رجل على الشعبي، ومعه في البيت امرأة، فقال:

أيكم الشعبي؟

قال الشعبي: هذه»[1].

والشعبي لا يتهم الرجل بالغباء قولاً، ولكنه يتهمه فعلاً، ولا يلام الشعبي على تصرفه هذا؛ وكأن الله هيأ له ما يتفق مع طبعه، إذ بعث له مثل هذا الرجل، أو الرجل الثاني صاحب القصة الآتية:

«سئل الشعبي عن لحم الشيطان؛ فقال:

نحن نرضى منه بالكفاف.

---

(١) أخبار الظراف والمتماجنين: ٧٩، عيون الأخبار: ١/ ٤٣٥.

قال: فما تقول في الذُّبَّان؟

قال: إن اشتهيته فكله». [1]

وجعلها الشعبي إجابات فقهية في صورتها الظاهرية، لتتناسب مع سؤال السائل الساذج أو المستفز، أياً كانت صفته.

والجهل زلة، والشعبي يجهل فوق جهل الجاهلين، وهذا جهله المغرق في علم اللغة!!

«قال الشعبي لرجل استجهله:

ما أحوجك إلى مُحَدْرَجٍ (السوط)، شديد الفتل، جيد الجلاز (جودة الفتل)، عظيم الثمرة (طرف السوط)، لدن المهزة، يأخذ منك فيما بين عجب (العصعص) الذنب، ومغرز العنق، فتكثر له رقصاتك من غير جذل.

فقال: وما هذا؟

فقال: بعض الأمر». [2]

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٤٣٥.

(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٤٥.

أخذ الشعبي صاحبه هذا إلى متاهة، لم يسعفه بالخروج منها عندما طلب منه ذلك، بل زاده حيرة وضياعاً!

«قال رجل للشعبي: إني أجد في قفاي حكة فترى لي أن احتجم؟

فقال الشعبي: الحمد لله الذي نقلنا من الفقه إلى الحجامة».[1]

الذي أعثر هذا الرجل أنه ظن أن هذا الفقيه في الدين يستطيع أن يفتيه في أمر الطب، جهلاً منه وغباءاً، واكتفى الشعبي تعجباً بحمد الله على هذا الانتقال غير المتوقع.

ويزل رجل زلة مقصودة، أو لعله خَرِف، يذهب فكره ويجيء، فيأخذ الشعبي حقه منه في ساعته، ويكيل له الصاع صاعين:

«قال الشعبي: مرضت، فلقيت ابن الحُرّ، فأمرني

(١) أخبار الظراف والمتماجنين: ٧٨، عيون الأخبار: ٢/ ٥٤.

أن أمشي، كل يوم، إلى الثويّه، فكنت أغدو، كل يوم إليها، فانصرفت ذات يوم، فلما كنت في جهينة الظاهرة، إذا شيخ منهم قاعد على طنفسة، متكىء على وسادة، فسلمت، ثم ألقيت نفسي على الرمل.

فقال: لقد جلست جلسة عاجز، أو ضعيف.

قلت: قد جمعتهما.

قال: أدام الله لك ذلك!

ثم قال: إن أهلي كانوا يتخوفون علي ثلاثاً: نقصان البصر، وترك النساء، والقطاف في المشي، فوالله إنهم ليرون الشخص واحداً، وأراه اثنين؛ ولقد تركت النساء، فما لي فيهن من حاجة؛ وإني لأمشي، فأهملج.

قلت: أدام الله لك ذلك؟». [1]

لقد زل الشيخ بدعائه على الشعبي دون داع، وتهجم عليه بذلك دون سبب؛ ولكن الفرصة سرعان ما أتاحت للشعبي رد الدعاء بمثله، وكال

---

(١) عيون الأخبار: ١/ ٧١.

له بالمكيال نفسه، الذي كال له به.

وقد يظن أن الشعبي هازل دائماً، أو أن الزلات ترتكب في حقه دائماً، ولنبعد هذا الظن نأتي بنموذج واحد يُري مدى قوة عقله، وصفاء تفكيره، ودقة رأيه إذا جد الجد:

«قال عطاء بن السائب:

قدمت من مكة، فلقيني الشعبي، فقال:

يا أبا زيد، أطرفنا مما سمعت.

قلت: سمعت عبدالرحمن بن عبدالله بن سابط يقول:

لا يسكن مكة سافك دم، ولا آكل ربا، ولا مشاء بنميم.

فعجبت منه حين عدل النميمة بسفك الدماء، وأكل الربا.

فقال الشعبي: وما يعجبك من هذا؟ وهل تسفك الدماء، وتركب العظائم إلا بالنميمة». [1]

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٢٥.

ونعود إلى الزلات، فنجد زلة عظمى لأعرابي، ارتكب إثماً بنية سيئة لعمل فاسد يعمله، فعاد الأمر وبالاً عليه، وأصابه السهم الذي أراده لغيره:

«ضجر أعرابي من كثرة العيال، وبلغه أن الوباء بخيبر شديد، فخرج إليها بعياله، يعرضهم للموت، وقال:

قُلْتُ لِحُمَّى خَيْبَرَ اسْتَعِدِّي
هَاكِ عِيَالِيْ فَاجْهَدِيْ وَجِدِّي
وَبَاكِرِيْ بِصَالِبٍ وَوِرْدِ
أَعَانَكِ اللهُ عَلَى ذَا الجُنْدِ

فأخذته الحمى، فمات، وبقي عياله!»[1].

هذا رجل لم يتجه عند الضائقة إلى الله، وانحرف في حل مشكلته عن الطريق المستقيم، واختار طريقاً أعوجَ، لم يحقق له مطلبه، وعاد عليه بالضرر العظيم الذي لم يحسب حسابه؛ فكان موعظة لمن هو في مثله

(١) البصائر: ٤/ ٢٠١.

من القنوط من رحمة الله، ومن الانقياد لصوت الشيطان، وداعي الضلال.

وزلت لسان رجل زلة كبدته ثمناً غالياً، فقد أطاحت برأسه؛ لعله أراد بقوله أن يتقرب من الحاكم، فلم يوفق في اختيار الموقف، ولا اصطفاء الكلمات؛ ولعله لم يسمع بما يقال من استقباح سؤال الملوك، حتى في المرض، يتجنب السؤال، ويلجأ إلى الدعاء، لأن سؤال الملوك أو السلاطين أو الحكام قد يحرجهم، فقد لا يكون الجواب حاضراً في ذهنهم، فيظهرون بمظهر الجاهل، والسؤال إذا أحوج الأمر يسأل عنه غيرهم ممن هو بحضرتهم؛ لهذا كان رد سؤال سائل النعمان قطع رأسه، والقصة كمايلي:

«نزل النعمان برابية، فقال له رجل:

أبيت اللعن! لو ذبح رجل، أي موضع كان يبلغ دمه من هذه الرابية؟

قال: المذبوح والله أنت؛ ولأنظرن إلى أين يبلغ دمك.

فقال رجل ممن حضر : رب كلمة تقول لقائلها : دعني» .[1]

ويروى أن عمر بن عبدالعزيز زل بكلمة قالها لأحد أبنائه، فأغضبت أحد أقارب الابن، مما دعاه إلى أن يسافر من جوار المدينة المنورة إلى الشام ليرد رداً مجزياً على هذه الكلمة الطائشة :

«كلم عمر بن عبدالعزيز أموياً أمه مرية، فقال :

قبح الله شبها غلب عليك من بني مرة .

فبلغ عقيل بن علفه المرّي، وهو بجنفاء (موضع قرب خيبر)، من المدينة على أميال؛ فقدم على عمر يريد سمعان (بنواحي دمشق)، فقال :

بلغني أنك غضبت على فتى من بني أبيك، فقلت :

قبح الله شبها غلب عليك من بني مرة، وأنا أقول :

قبح الله ألأم طرفيه .

فقال عمر : دع ذا، وهات حاجتك .

قال : لا، والله ما لي حاجة غيرها .

---

(١) البصـائر : ٤/ ٢٢ .

وولى راجعاً.

فقال عمر: سبحان الله! من رأى مثل هذا الشيخ؟!»[1].

لقد احتقن الغضب في صدر الشيخ المري، فأخرجه من بلاده إلى الشام، ليفرج الكرب الذي صهر مهجته؛ لقد كانت الكلمة قاسية في نظره، ولابد من ردها، فقطع هذه المسافة الطويلة، ليقول الكلمتين اللتين قالهما؛ لقد جاء وحمله ثقيل، تنوء به الجبال، وعاد ولا حمل على صدره، قد نفث ما فيه، وأفرغ في هاتين الكلمتين ما تجمع داخله، وأطفأ النار المستعرة؛ لقد أزال الصفة التي خشي أن تلصق بآل مُره من جراء نطق عمر بن عبدالعزيز بها، وسجل اعتراضه بمداد واضح، تسلسل حتى وصلنا!

والكلمات تلقى وقت الغضب تبدو صغيرة، ولكنها أحياناً تتقاذفها الأجواء، فيصبح لها صدى يصم الآذان، فتنبه الغافل، وتطعن الكريم، وتوجب

---

(١) ربيع الأبرار ١/ ٤٠٩.

الانتقام قولًا أو فعلًا، ويأتي منها الضرر الكبير، والفتن العمياء، التي تحرق نارها ما تمر به؛ لا يُعرف الحد الذي يمكن أن تقف عنده، ولا مقدار الضرر الذي قد ينجم عنها؛ وموقف المتكلم بالكلمة النابية، والجملة الجارحة، وقت الغضب، لا يعرف مدى ما تصل إليه إلا بعد أن تخمد جذوة الغضب، ويجلس العقل على كرسيه المريح، فيتبين له حينئذ ما غيبه دخان الغضب، وحجبتهِ سورة الانفعال، وكثيراً ما يندم مثل هذا، حين لا ينفع الندم؛ ويحاول الإصلاح ولكن الجهد قد لا ينجح، فالزجاج إذا انكسر يصعب جبره.

والقصة الآتية طريفة في بعض جوانبها، وتبين من بعض الجوانب كيف يفعل الغضب، وكيف يندم المرء بعد ذلك، ويود أن يمحو أثره، ولو كلفه ذلك الأموال الطائلة:

«قام رجل إلى سليمان بن عبدالملك، فقال:

إني مملك بابنة عمي على مئتي دينار، فإن رأى

أمير المؤمنين أن يسلفنيها.

فقال: يا ابن اللخناء، أَقِسْطارٌ (منقد الدنانير) أنا حتى أسلفك؟ بل اذهب لك مئتي دينار، ومئتي دينار؛ فلم يزل (يكررها)، حتى انقطع نفسه على ثلاثة آلاف دينار فقبضها.

فأتاه الناس يهنئونه، فقال:

أين قوله: يا ابن اللخناء؟

فبلغ ذلك سليمان، فقال:

صدق؛ وددت أني افتديتها بأضعافها، ولم أقلها». [1]

هذا رجل لم يتعود على عطاء الملوك، ولم يتعود على سؤالهم، وصح في ذهنه أن أفضل طريقة في سؤال الخليفة حاجته ألا يشق عليه، فرأى أن يجعل وجه سؤاله السلف؛ ولكن الخليفة نظر إلى الأمر من جانب أغضبه؛ ورأى أن صيغة الطلب تقلل من قيمته، لأنها تقلل من قدرته على العطاء؛ فثارت ثائرته،

---

(١) ربيع الأبرار ٢/ ١٦٦.

وغلى مرجله، وطاشت رغوته؛ وأتت الكلمات عنيفة تترى على لسانه، ولم يقطعها إلا انقطاع نفسه.

وقد زل سليمان وهو في جيشان الغضب، وقال كلمة جارحة، أخلت بدينه، وجرحت مروءته، ولم ير عند نطقها سواد صفحة أديمها، ولم يدرك عمق وقعها، إلا بعد أن هدأ، وسمع تعليق الرجل على هذه الكلمة، وأن هذه الأموال الطائلة لم تغسل درن وقع الكلمة؛ وبشاعتها في نظر الرجل أنها شتيمة في والدته، أطهر من في الوجود في نظره.

وقد وافق سليمان بن عبدالملك الرجل على قبح الكلمة، وتألم من نطقه بها، ومقدار ألمه يتبين من الثمن الذي قدره في عدم نطقه بها، ومن تمنيه الذي نطق به مؤكداً رغبته في محو هذه الكلمة من الوجود.

والحكام أشد الناس ندماً على الخطأ يبدر منهم في ساعة غضب، وذلك لأنهم، مع حكمهم الناس، قضاةٌ يصدرون أحكاماً مُنَفَّذَة بتصرفهم الساخط؛ وهذا عند برود جمرة الغضب يشعرهم بأنهم حكموا

الناس، ولم يحكموا أنفسهم، وحكم النفس أشد من حكم الناس، والفخر فيه، لا في غيره، وهذا يؤكد لهم جانب النقص فيهم؛ والناس أيضاً يرون ويسمعون ويروون، وهذا مقلق للحكام، وهم الذين يسعون جهدهم في أن يكون ما يقال عنهم جميلاً، لأنه يزرع محبتهم في النفوس، وهذا يؤدي إلى قوة الولاء، والولاء تأتي معه الطاعة، فإذا توفرت هذه توفرت الراحة والسعادة.

ولهذا يفرح الحكام بمن يساعدهم على عدم ارتكاب الخطأ وقت الغضب، ويختارون جلساءهم ممن يستطيع أن يقف وقت الغضب، فينُبه الحاكم، ويُساعده بالأقوال المنتقاة الهادئة، المقنعة، على تجنب ارتكاب فعل يندم عليه فيما بعد، والمواقف التي مثل هذه في الأدب العربي كثيرة، بعضها عن الحجاج، وبعضها عن المأمون، وبعضها عن غيرهم؛ ويأتي الجلساء بأفكار بديعة، فيها إقناعٌ مضمونُ النتيجة؛ وكثيراً ما يأتي هذا من العلماء، لأنه

بجانب العلم الذي هو خير ذخيرة في هذا المجال، هناك العقل الذي صقله العلم، والأناة التي أقامتها التجارب، والسياسة التي بلورتها الخبرة، ومعالجة أمور الحياة؛ والقضاة من خيرة العلماء في القيام بهذا الدور؛ وعليهم معول كبير من الحاكم، ومن المحكومين.

أما من لا يليق به مجالس الحاكم، فإن قوله وتصرفه يزيد الأمر سوءاً، وقد يزل بجهله أكثر مما يفيد؛ والأحمق في مجلس الحاكم أذى وزرية؛ أما المتحامق، فقد يأتي منه ما يفيد، لأنه في إضحاكه الخليفة، أو عامله، يصل إلى الغاية أسرع من غيره. ومن زلات الحمقى غير المتحامقين ما حدث للحجاج مع أحدهم في القصة الآتية:

«قال الحجاج لإسماعيل بن الأشعث، وكان يحمّق:

كيف ترى قصري؟

قال: أرى قصراً استعظم المؤونة على من أراد هدمه.

قال: قبحك الله! ويلك! ما خالف بك إلى ذكر

الهدم». [1]

إسماعيل بن الأشعث قال قولًا يشبه من يذكر بالموت وقت العرس، ويذكر بالحزن وقت الفرح، لم يوفقه الله أن يقول قولًا حسنا عندما سئل، فلم يدع دعاء مناسباً، أو يمدح سعة القصر، وحسن تشييده، ولم يبين فضل موقعه، أو لياقة حجمه بصاحبه؛ وذهب إلى زاوية بعيدة، يستجلب منها زلته؛ لم يكن همه إلا الرحمة بمن سيتحمل عبء هدمه عندما يراد هدمه.

صدق الحجاج في استغرابه من سقوط هذه الفكرة النائية على إسماعيل، وبروز هذه الظلمة أمام عينيه، واحتلال هذا الرأي لذهنه الكَلّ، غير الناضج؛ ولولا حمقه، ومعرفة الحجاج بسقطه وهفواته، لنال عقاباً مجزياً.

وتأتي زلة غير متعمدة، يحاول صاحبها بذكاء أن يغطيها بغطاء هو يعرف أن من أمامه يقبلونه؛ وقد

---

(١) البصائر: ٦/ ٧٢.

لا يؤمنون به، ولكن فيه من التهدئة والتحذير ما يتكفل بذلك والقصة كالآتي:

«مَرَّ سلمة بن عبدالملك بقبر الوليد بن عقبة بن أبي معيط بالرقة، فقال:

قبر من هذا؟

قيل قبر الوليد بن عقبة.

قال: رحم الله أبا وهب، وجعل يثني عليه، فقبر من هذا الآخر؟

قيل: أبي زيد الطائي الشاعر.

قال: وهذا فرحمه اا.

فقيل: إنه كان نصرانياً!

قال: إنه كان كريماً».[1]

لعل سلمة غاب عنه أن أبا زيد ليس بمسلم، ولما نُبه أراد أن يرفأ الفتق الذي أحدثه، فأظهر أن ترحمه كان بسبب كرمه، والكرم فضيلة تُخَدِّر الناس، وصاحبها تغفر زلاته عند كثيرين؛ فإن كان قد

---

(١) الإشـــراف: ٢١٦.

عرف أنه غير مسلم عندما ترحم عليه، فهذا رأي ارتآه يخضع قبوله أو رفضه لتعاليم الدين؛ أما إذا كان لم يعرف، ولكنه لم يرد أن يظهر جهله أمام رفقته، فقد أحسن المخرج، إذ جاءهم بما يؤمل أنهم يقبلونه.

ويستملح بعض الناس الهزء بالدين، ويرون في ذلك طرفة وظرفاً، يأتون بذلك ليضحكوا الناس، ويكونوا هم بؤرة الالتفات، ومحط النظر، فيزلون بذلك زلة كبرى، قد تأتيهم بعقاب في الدنيا قبل الآخرة، وقد يكون العقاب متصلاً بالأمر الذي كانوا يسخرون منه، مثل القصة الآتية:

«ركب يزيد بن نهشل النهشلي بعيراً، وقال:
اللهم إنك قلت: ﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾.[1]
وإني لبعيري هذا المقرن.

فنفر به فطرحه، وبقيت رجله في الغرز، فجعل يضرب برأسه كل حجر ومدر حتى مات».[2]

---

(١) سورة الزخرف، الآية: ١٣.
(٢) عيون الأخبار: ٢/ ٧١.

هذا رجل خدش جانباً من جوانب الدين، بأداة قلة أدب، ما كان أغناه عن مثل هذا؛ لقد أبعد في طريق الخطأ، لأنه عارض قولاً في كتاب الله؛ وظن أنه يسير في طريق غير الطريق الذي هدى الله الناس إليه؛ فأسرع الله بجزائه، ليكون عبرة لمن يعتبر، وعجل عقابه، وجعله متصلاً باعتراضه، فقد جاءه حتفه من حيث ظن أنه آمن.

وكثير من الناس يستسهل مثل هذا الأمر في بعض المجتمعات؛ ويغريه بالاستمرار، واستمراء هذا الإثم، ما يجده من استحسان من هم على شاكلته، فيتمادى في هزئه بالقرآن، أو السنة، أو بعض أحكام الدين، وكأنه لم يبق لهم من الأمور التي يمكن أن يهزؤا منها، دون عتب، إلا الدين ومجاله؛ وهؤلاء إن تأخر عقابهم اليوم فسيأتي غداً من حيث لم يحتسبوا.

والجهل مطية الزلات، والعنجهية والعصبية تعمي عن الحق، وتقود إلى الزلل؛ وكثير من الناس من الجاهلين يمشون إلى الزلة مختارين بأقدامهم،

ويظنون أن ما هم عليه هو الحق، وأن ما عليه غيرهم هو الباطل، ويصرون على هذا؛ ويقاومون جهد من يحاول ردهم عن غيهم، ويتهمونه هو بالزلل، والخروج عن جادة الصواب، والقصة الآتية تُري اللجج الذي قام بين أعرابي متعصب، وقاض يريد أن يهديه إلى طريق الرشد دون فائدة، فقد ركب الأعرابي رأسه، وأصر على زلته وخطئه:

«تقدم رجل من بني العنبر إلى سوار، فقال:

إن أبي مات، وتركني وأخالي؛ (وخط خطين ناحية، ثم قال: وهجينا لنا؛ (ثم خط خطاً آخر ناحية) ثم قال:

كيف ينقسم المال بيننا؟

فقال: المال بينكم أثلاثاً، إن لم يكن وارث غيركم.

فقال له: لا أحسبك فهمت، إنه تركني وأخي وهجينا لنا.

فقال سوار: المال بينكم سواء.

فقال الأعرابي: أيأخذ الهجين كما آخذ ويأخذ

أخي؟

فقال: أجل.

فغضب الأعرابي وقال:

تعلم والله أنك قليل الخالات بالدهناء.

فقال سوار: إذا لا يضرني (ذلك) عند الله شيئاً». [1]

هذا أعرابي متعصب لصفاء دمه، لم يستطع أن يقبل أنه وأخاه يتساويان في الميراث مع ابن الأمة التي ليست عربية؛ ويعتقد أن الهجنة تحرم صاحبها من إرث والده؛ ولم ينفع معه قول سوار القاضي، ولا أقنعه رأيه، وطعن في معرفته بعادات العرب ضمناً عندما أشار إلى أنه ليس له خالات في الدهناء.

وإذا كان الأعرابي في هذه القصة قد زل مع القاضي، فهناك قصة زل فيها القاضي مع أعرابي؛ وقد ظن القاضي ظناً لم يتبين، فيما بعد عند الاختبار، أنه حق، وكان النصر في جانب الأعرابي في مرحلتين من مراحل المقابلة بينهما، والقصة كالتالي:

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٧٢.

«قال بعض العمال لأعرابي: ما أحسبك تدري كم تصلي في كل يوم وليلة؟!

فقال: أرأيت إن أنبأتك بذلك تجعل لي عليك مسألة؟

فقال: نعم.

قال: الأعرابي:

إِنَّ الصَّلاَةَ أَرْبَعٌ وَأَرْبَعُ ثُمَّ ثَلاَثٌ بَعْدَهُنَّ أَرْبَعُ
ثُمَّ صَلاَةُ الفَجْرِ لا تُضَيِّعُ

قال: صدقت، فسل.

قال: كم فقار ظهرك؟

قال: لا أدري.

قال: أفتحكم بين الناس وأنت تجهل هذا من نفسك!» .(1)

عمال الخلفاء في المراحل الأولى من الإسلام يجمعون بين الأمارة والقضاء، ويبدو أن هذا العامل منهم؛ وقد زل مع هذا الأعرابي، ولعله قاس جهل

(1) عيون الأخبار: ٢/ ٧٣.

بعض الأعراب بالدين على هذا الأعرابي الباقعة، فوقع منه على داهية، ضربه بسهم حجة ذي شقين، الأول إبطال حجته، التي ساء ظنه فيها بالأعرابي، والثاني رده الضربة بأقوى منها؛ وكان الرد الأول قوياً إذ جاء شعراً، وشعراً متقناً، والثاني مثله في القوة أو أشد، إذ كان عن نفس العامل، وجسمه يعيش معه، وأولى به أن يعرف جغرافية ما هو أقرب شيء إليه. وليس أصعب على العامل أو القاضي من أن يرد عليه في مجلس الأمارة، أو مجلس الحكم، أمام الناس، بحجة دامغة، تبين جهله أو حمقه بزلله.

والزلة قد تكون خرقاً لا يمكن رقعه، وعثرة لالعاً لها، تفضح صاحبها عن شيء خفي، لا ينتظر منه أن يسر بمعرفة الناس له، ويكون الأمر عظيماً عندما يكون فيه إخلال بالدين، وأكبر إذا كان تهاوناً بفرض من الفروض، مما قد يؤدي بالمرء إلى الكفر؛ ورغم ما في القصة الآتية من طرافة دعت الأديب إلى اختيارها، إلا أنها في الحقيقة ظلمة داكنة:

«دخل قوم منزل الرستمي لأمر وقع، فحضر وقت صلاة الظهر، فقالوا:

كيف القبلة في دارك هذه؟

فقال: إنما نزلناها منذ شهر». [1]

قلة فهمه للدين، لأنه لا صلة له به، أوقعته في الخطأ، وفضحت أمره، ولو كان من المحافظين على الصلاة، فقد يسكن بيتاً، ويبقى أياماً لم يصل فيه فرضاً، لمحافظته على صلاة الجماعة في المسجد، ولكانوا قبلوا منه ذلك، حتى لو بقي شك في نفوسهم من هذا؛ والشك يأتي من أن المسلم لابد أن يصلي الوتر في بيته، وبعض السنن؛ لأن هذا قد حث عليه الدين، والحديث يقول لا تجعلوا بيوتكم مقابر، أو ما هو بهذا المعنى؛ أي صلوا فيها بعض السنن، بل إن المتفقهين في الدين يحرصون، إذا كانت بيوتهم قريبة من الجامع، أن يصلوا السنة بعد صلاة الجمعة في البيت، وقد رأيتهم في صغري يحرصون على هذا،

---

(١) عيون الأخبار: ٢/ ٧٠.

ويواظبون عليه؛ وكان آباؤنا ـ رحمهم الله ـ يجتهدون في تطبيق تعاليم الشرع بدقة متناهية، ولا يجتهدون حيال ما بت الدين فيه، وجعل الأمر فيه واضحاً، فهم مثلاً لا يكثرون من السنن، في بعض الأحيان، على حساب وقت التسبيح والتهليل، بعد أن يكونوا أدوا المسنون من السنن، خلافاً لما يرى من بعض الوافدين، الذين بمجرد أن يسلم الإمام ينهضون فوراً، ويصلون صلاة السنة، ولا يلتفتون للتسبيح أو التهليل، على ما فيهما من فضل، وعلى ما جاء عنهما من حث.

والهفوة تأتي فيراها امرؤ هفوة، ويرى آخر أنها ليست هفوة؛ والتفسير هو الذي يزيل اللبس في مثل هذا النوع من الزلات؛ لأن كل واحد ينظر إليها من زاوية، وقد لا تكون هذه الزاوية هي خير موضع يكشف جوانب الأمر الخفي، وهذا يتمثل في القصة الآتية:

«دخل شريك الحارثي على معاوية، فقال له معاوية:

من أنت؟

فقال له: يا أمير المؤمنين، ما رأيت لك هفوة قبل هذه؛ مثلك ينكر مثلي من رعيته!

فقال له معاوية: إن معرفتك متفرقة، أعرف وجهك إذا حَضَرْتَ في الوجوه، وأعرف اسمك في الأسماء إذا ذكرت؛ ولا أعرف أن ذلك الاسم هو هذا الوجه، فاذكر لي اسمك تجتمع معرفتك».

صدق معاوية؛ فمعاوية خليفة المسلمين، يدخل عليه أناس كثيرون، ويظن أحدهم أن رؤية معاوية له مرة أو مرتين تكفي لأن يثبت اسمه على وجهه؛ ولعل هذا يأتي من تقدير بعض الناس نفسه أكثر من قدرها؛ أو لأنه يقيس الناس بنفسه في معرفة من يتصل بهم، وقد يكون من يتصل بهم قليلين.

ومعاوية شرح، شرحاً موفقاً، السبب الذي جعله لا يعرف اسم شريك، وإن كان لا ينكر وجهه، ولكن تراكب الاسم مع الوجه كان ينقص معاوية، وأراد أن يكمل هذا النقص بسؤال صاحب الوجه؛

وهذا ما أثار استغراب شريك، زلة منه؛ لأنه لم ير ما رآه معاوية.

وكثيرون في زمننا هذا يقعون في مواقف مثل موقف معاوية مع شريك، يرون الرجل، ومن كلامه يدركون أنه يحس بدالة عليهم، ولكن تخونهم ذاكرتهم عندما يحاولون تذكر اسمه، أو أين رأوه، ويبذلون جهدهم في الوصول إلى اسمه عن طريق التذكر؛ فإذا عجزوا أوقفوا محاولة التذكر، اعتماداً على أن نسيانهم اسمه دليل على أن الأمر لا يحتاج إلى الجهد لمعرفته؛ وأحياناً يحاولون بعد أن يتركهم سؤال أحد من الحاضرين عنه، وفي بعض الأحيان يحتالون أثناء الحديث، فيعرفون عن طريق غير مباشر من هو، كأن يدوروا حول عمله، أو موقع بيته، أو أي شيء يمكن أن ينطلقوا منه إلى ما يوصلهم إلى الحقيقة؛ وتتنوع الجهود، وتتفنن الطرق في هذا المجال، وتكون متعة للمراقب الذي يعرف الحال.

وكثير من الناس في هذا الزمن لا يستنكفون من

سؤال الشخص عن اسمه، دون حرج، وهم على استعداد أن يقروا بالحقيقة أنهم لم يعرفوه، مثلما قال معاوية، وقد يخجل بعضهم عندما يكتشف أنه كان يجب عليه الا ينسى هذا الشخص لسبب من الأسباب، فيعتذر بالذاكرة وضعفها، والسن وحكمه.

وقد نتج عن الاعتراف بهذا النقص عند الناس أن الشخص إذا لم يكن قريباً من الآخر في النسب، أو في الصلة، أو يقابله لأول مرة، أن يقدم نفسه، وإذا أراد الآخر أن يكون رد التحية دافئاً، قال: «لا يحتاج الأمر إلى ذكر اسمك، كيف أنساك!»، وهو في الحقيقة قد نسيه، وقد يكون المسلِّمُ متأكداً أنه نسيه، وأن ما قاله هو رقة منه، وتعطفاً!

وتحدث زلة، فتمر مر الكرام، رغم اعتبارها فادحة عند بعض الناس، ولكن بعض الناس يصب على متأجج نارها دلواً من الماء، فيطفئ لهبها، ويقضي على ما استعر منها، ويحظى بالطائلة من الخُلُق، وحسن التصرف؛ ولا يستطيع هذا إلا من كان من

ذوي العزم، ومن أعطاهم الله المقدرة على خزم حصان أنفسهم الجامحة، وعقل هيجان فحل تصرفهم، الذي يقود إليه عادة ردة الفعل، التي كثيراً ما تعمي وتصم، ولا ترى إلا إنزال العقاب، أو أخذ الحق وافياً، حتى لو اشتعلت الفتنة، وقامت قيامة الطرفين؛ ونار الفتنة قد تبدأ شرارة صغيرة، فلا تلبث أن تكبر، حتى تعسر على الإخماد، ويستحيل إطفاؤها؛ فتأتي على الرطب واليابس؛ ولا يدرك من كانوا وقودها مدى الضرر حتى يروا الحصيلة المحزنة.

والشعبي سبق أن رأينا شيئاً من طرائفه، وتصرفه المليح مع بعض من زل زلات خَدْشها على الجلد، ولا يصل إلى اللحم، أو العظم؛ وهنا قصة تختلف بعض الشيء، لأن وراء الزلة نية سيئة مبيتة، وصاحبها لم يقع في فعله، أو قوله، خطأ لم يُرِدْه، وإنما سعى إليه بقدميه، فما هو موقف الشعبي من هذا:

«شتم رجل الشعبي، فقال:

إن كنت كاذباً فغفر الله لك، وإن كنت صادقاً

فغفر الله لي». [1]

لقد نظر الشعبي إلى الشتيمة نظرة فقيه، وحكم حكم قاض عادل؛ ورغم أنه يعرف نفسه، ويعرف إن كان ما قيل فيه من شتيمة صدق أو كذب، إلا إنه لم يرد أن يوقف نفسه موقع المدافع، وموقف القاضي، في وقت واحد، فترك الأمر لمن بيده الأمر ـ سبحانه ـ ولجأ إلى الدعاء، وغلبه خوفه من الله، ورجاء رحمته، وثوابه، فدعا للرجل إن كان على خطأ، ودعا لنفسه إن كان هو على خطأ؛ وهذا نتاج الأنفس الخيرة، التي تحسب حساب الآخرة، والحق الذي لهم فيها، وما يرجونه من ربهم، وينسون الدنيا، والانتصار لأنفسهم فيها، انتصاراً، قد يشفي الغليل، وقد يشعل النار؛ فالشعبي باختياره طريق الخير ضمن النتيجة في الدنيا، هدوءاً وراحة، وأمّل فيما عند الله في الآخرة، أجراً وثواباً.

وفي موقف آخر للشعبي، سار فيه على نهج مماثل،

---

(١) ربيع الأبرار ٢/ ٢٣، عيون الأخبار: ٢/ ٣٩٧.

إلا أنه، في هذه المرة، اختار موقف أخوة ومحبة، جعله جسراً بينه وبين من كانوا ينهشون لحمه، وكان خطؤهم مضاعف النسج، فهو فوق أنه غيبة وشتيمة، حدث في المسجد، بيت العبادة:

«انتهى الشعبي إلى قوم في المسجد يذكرونه، فأخذ بعضادتي الباب، وأنشد:

هَنِيْئاً مَرِيئاً غَيْرَ دَاءٍ مُخَامِرٍ
لِعَزَّةَ مِنْ أَعْرَاضِنَا مَا اسْتَحَلَّتِ»(١)

لعل الشعبي فاجأهم عندما أطل عليهم، وقطع حبل حديثهم، الذي كانوا يشرحون فيه لحمه، فأخجلهم؛ وزاد على هذا أن أخبرهم، بإنشاده بيت الشعر، أنه على علم بما كانوا يفعلون؛ وهكذا قابل الشعبي هذه الزلة، وبهذه الروح عالج السقطة.

وليس كل العلماء في التسامح مثل الشعبي، ففقه العلماء تجاه هذا الأمر قد يختلف، فإذا كان

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٢٢.

الشعبي رأى الخير في التسامح، وأمل الأجر في التغاضي، فغيره لم يتسامح، ولم يغفر، لأنه رأى في ذلك إثماً، ومخالفة لشرع الله ـ عز وجل ـ ورأى أن لا يتنازل عن حقه، طاعة لله، واستجابة لأمره، والقصة هكذا:

«قال رجل لابن سيرين:

إني شتمتك، فاجعلني في حل.

قال: ما كنت لأحل لك ما حرم الله عليك»[١].

إن ابن سيرين لم يكن راضياً عن فعل الرجل، فلم يرد أن يسلك الطريق الذي سلكه الشعبي؛ واختار طريقاً آخر، وجد أن الدين يعضده؛ وأن فيه ردعاً لأولئك الذين يستسهلون القدح في الناس، اعتماداً على أنهم سوف يستقيمون فيما بعد؛ وأراد أن يجعل الأمر على الشاتم شديداً، حتى يهمه الأمر ويقلقه، فيقلع عن فعله هذا. وكلٌّ إن شاء الله إلى أجر: الشعبي وابن سيرين؛ لأن كليهما انطلق من

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٦.

نية حسنة، بناها على جانب من جوانب الدين ارتآه.

ويضيء في هذا الجانب نور وهاج، يسر العين، ويثلج الصدر، جاء من رجل هو أهل للخير، ومصدر للفضيلة، ولا يستغرب منه التصرف المبدع الحسن، وسلوك الطريق السوي، لإصلاح اعوجاج الناس، ومساعدتهم على أنفسهم، بما يبتدعه من طرق موصله، ووعظ محكم؛ يحدوه إلى هذا رجاء لما عند الله، وأمل في قبول عمله وجهده، وحب لصالح الناس، وسعياً لانقاذهم من وساوس الشيطان.

هذا هو الحسن البصري، وفيمايلي شيء من تصرفه الحسن، مع من هو في حاجة إلى علاج مرضه، وإشارة إلى الطريق الحسن، بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا ما فعله:

«بلغ الحسن البصري أن فلاناً قد اغتابه، فأهدى إليه طبقاً من رطب؛ فأتاه الرجل، وقال:

اغتبتك، فأهديت إلي!

فقال الحسن: قد أهديت إلي حسناتك، فأردت

أن أكافئك». [1]

هذا تصرف بديع، اخترعه الحسن من وحي الحادثة، فجاء به في صفة وعظ عملي، فيه تخجيل، وفيه موعظة، وفيه تحذير من انتقال حسنات من كفة إلى كفة، وسيئات من كفة إلى كفة، والكاسب هو من اغتيب، والخاسر من اغتاب.

ومن المواعظ المبتدعة، والتي جاءت عن طريق تصرف عملي، القصة الآتية:

«كان بعض الصلحاء في كمه الفانيذ (حلواء فارسية)، فإذا رأى أحداً يغتاب، يذكر أحداً بسوء، لقمه الفانيذ، وقال:

هذا أحلى مما تكلمت به، فاتركه». [2]

هذا رجل يبحث عن الأجر، ويتعب من أجله، وينفق في سبيله، ويتعرض للجهد المضني في هذا؛ فهو لم يأنف من شتم أحد له، ولكن غيرته على

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٧.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/ ١٨٧.

غيره، على الشاتم والمشتوم، ويريد النفع للإثنين، هذا بكف الأذى عنه، وهذا بوضع حاجز بينه وبين نار جهنم، التي يقوده إليها لسانه.

على مثل هذا الرجل الطيب تقوم المجتمعات، ويقوى بنيانها، وتشتد أعمدتها، وتسمق صروحها؛ فمثله يعدل كفة ميزان المجتمع، فلا تختل بكثرة الشريرين، والذين يبثون الظلمات في رياض المجتمع المضيئة؛ مخزون الخير في نفس هذا الرجل وأمثاله يَزن كثيراً بين الناس؛ ويُعرف قدرهم عند الحاجة إليهم؛ هم يُفتقدون بسهولة، لأن ذهابهم من أي مجتمع يلحظ، لأن التوازن يختل، وتتلاشى السعادة، ويحل الشقاء؛ وإذا وجدوا عالجوا ظواهر الخطأ عند بدئها، وأراحوا السلطة من جهد تبذله فيما لو استشرى الشر، وطغت الفتنة؛ فلهم فضل ـ بعد الله ـ على كل أحد، لأنهم أهل رسالة، وأهل منهج رافق، في أدائها، تهمهم النتيجة، ولا يعوقهم التعب والجهد.

والزلة قد يخطط لها، فيوقع فيها الشخص، وهو

غافل عنها، وتؤدي الهدف منها، وتوصل إلى المقصود، وهذه إحدى الحالات التي حدث فيها مثل هذا العمل الطريف:

«مر رجل أشمط بامرأة كاملة فقال:

إن كان لك زوج فبارك الله لك فيه، وإلا فاعلمينا.

فقالت: كأنك تخطبني!

ثم قالت: إن في شيئاً.

قال: وما هو؟

قالت: شيب في رأسي.

فثنى عنان دابته؛ فقالت:

على رسلك! لا والله ما بلغت عشرين سنة، ولا رأيت في رأسي شعرة بيضاء، ولكن أحببت أن أعلمك أني أكره منك مثل ما تكره مني». [1]

هذه فتاة كاملة الأوصاف، عمرها لامس العشرين، أعجبت رجلاً وخطه الشيب، يكبرها كثيراً، وقد رأت أن في هذا تجن عليها، وغمطاً لحقها؛ وأن هذا

---

(١) ربيع الأبرار: ٢/ ٤٤٥.

الرجل بسنه، مقارنا بسنها، لم يكن من اللائق به أن يتقدم لخطبتها، لفارق السن، وقد يكون أيضاً لصورته؛ ورأت أنه فكر في نفسه، وأحب لها الخير، دون أن يفكر في الفتاة؛ فرأت أن تنصب له فخاً، لتزل قدمه فيه، ويصحو من نومه، وليتنبه لما غفل عنه، فأوهمته أن ما رآه من الحسن خلفه شيء من القبح، يماثل ما فيه.

وقع الرجل في المصيدة، وكره منها ما يتصف به هو، ولما أراد الانسحاب هروباً من الحقيقة التي أوهم بها، أرادت أن تكمل له الدرس، ولتؤسفه على تصرفه، فأخبرته أنها ضحكت منه، وأنه ليس في شعرها شعرة واحدة بيضاء، وإنما أرادت أن تبصره بواقعه؛ وقد نجحت في خطتها، وزل صاحبنا زلة كبرى، وعثر فلا «لعاً للعاثر»، والإنسان عندما يفكر في نفسه، وينسى الآخرين، وما لهم من حق، يقع في الخطأ؛ ويزيد هذا الخطأ، وتكبر الزلة، وتشتد الهفوة، كلما تمادى الشخص في حب نفسه، ونسيان

الآخرين؛ والحكمة الشعبية تقول: حب للناس ما تحب لنفسك؛ وبهذا تستعبد القلوب، وتملك الأنفس، وبه يتسابق الناس إلى الخير.

والشعبي عملاق، امتلأت صفحات كتب الأدب من أخباره، الديني منها، والدنيوي الطريف؛ وهي لا تخلو من فائدة، لما يتمتع به الرجل من علم وعقل؛ وقد زل زلة في حكمه في إحدى القضايا، فنُبِّه إليها، فأصلح الخطأ فيها، فيرجى له الأجر، والقصة رواها صاحب الإشراف هكذا:

«قال ابن شبرمة: كنت عند الشعبي، فقضى بين اثنين، فَبَصَّرْتُهُ بَعدُ، فرجع إلى قولي». [1]

وابن شبرمة فقيه قاض، لقوله وزن، ولحكمه قيمة، فلم يجد الشعبي غضاضة في أن ينقض ما أبرم؛ لأن الحكمة ضالة المؤمن، وهي في القضاء ألزم، لأن في الأحكام ذمة يجب أن تحمى، وبقدر ما في القضاة من ثقة، عليهم من التحرز أشده؛ لأن في أيديهم

---

(١) الإشـــراف: ١٤٧.

إقرار حقوق، ونفي حقوق؛ وفي يدهم تقرير أعراض، وتقرير أموال؛ لهذا كان القضاة في أول الزمان لا يستغنون عن أن يجلس عندهم علماء، يبدون لهم الملاحظات، إذا رأوا زلة؛ ويقول صاحب الإشراف في هذا:

«قال سفيان: كانت القضاة لا تستغني أن يجلس إليهم بعض العلماء، يقومهم إذا أخطئوا» .[1]

لأن الأمر بالنسبة لهم أمر عدل، يرجون من ورائه ثواباً من الله، وإذا أخذوا على القضاء أجراً، فإنما هو لكفاف رزقهم، لا زيادة على هذا.

وقصة نوح بن دراج متواترة في الكتب، وهي قصة تُري مدى حرص القضاة على صفاء أحكامهم، ولا يترددون في قبول ما ينصحهم به العلماء، ويحمدون لصاحب الملاحظة ملاحظته، لأنهم يعلمون أن العلم مشاع، وما لم يكن عندهم قد يكون عند غيرهم؛ وقد يتبين لغيرهم ما لم يتبين لهم، لأنهم لم يوفقوا إلى

---

(١) الإشراف: ١٤٧.

استحضار النص، أو تذكر الدليل، وعمي عليهم طريق الصواب لسببٍ ما؛ والدال على الخير في الأحكام كمن يتدارك رجلاً يسير إلى حفرة عميقة، لا يدري عنها، ودَرَى عنها الآخرون، وقصة ابن شبرمة مع ابن دراج هكذا:

«قال سفيان سئل ابن شبرمة عن مسألة، فأفتى فيها، فلم يصب، فقال له نوح بن دراج:

انظر فيها، تثبت يا ابن شبرمة.
فعرف أنه لم يصب، فقال:
ردوا علي الرجل، ثم أنشأ يقول:

كَادَتْ تَزِلُّ بِنَا مِنْ حَالِقٍ قَدَمُ
لوْلاَ تَدَارَكَهَا نُوْحُ بنُ دَرَّاجِ»[1]

والقضاة في تلك الأزمان يدافعون عرض القضاء عليهم، ما أمكنهم ذلك، لأن الحديث الذي مدلوله: «قاض في الجنة وقاضيان في النار» يخايلهم، فالقاضي

---

(1) الإشـــراف: ١٤٨.

الذي في النار دائماً أمام أعينهم؛ وقد عانى بعضهم في مقاومته تولي القضاء عنتاً وشدة، وتعرض بعضهم للحبس والإيذاء؛ وكان أحدهم، من التقوى، بحيث يفرح بالحجة تعفيه من منصبه، ويسعد بالفرصة ينتهزها، ويتمسك بها في ترك القضاء، وفي القضية الآتية صورة لذلك:

«قال معاوية بن قرة: إن رجلاً قال لعمران بن حصين:

والله لقد قضيت عليّ بغير الحق!

قال: الله!

قال: الله.

فأتى ابن زياد: فاستعفاه». [1]

أخذ ابن قرة يمين الرجل حجة قوية على نفسه، ووجدها سلماً قوياً شامخاً يصعد عليه إلى موافقة ابن زياد في إعفائه من القضاء، ولو لم يكن حريصاً على الانفكاك من رباط القضاء، لوجد حجة على هذا

(١) الإشـــراف: ١٧٣.

الرجل؛ ولكنه رحب بهذا النقد، لأنه يتماشى مع رغبته، ويسير على نهج فكره، وتخطيطه.

وكم كلمة قالت لصاحبها: دعني، فما إن تلفظ بها، وغالباً ما يكون ذلك في ساعة غضب، أو ساعة تعالٍ وتكبر، أو مفاخرة ومناجزة، حتى وقع في أسرها، ودخل باحة عناء، وسرحة جهد؛ وأدرك مقدار خطئه، وما ينتظره مقابل هذه الزلة، التي كان في غنى عنها، ويمثل أحد هذه المواقف القصة الآتية:

«روي عن إسماعيل بن أمية: أن رجلين من بني جعفر، اسم أحدهما: جعفر بن عقاب، والآخر جعفر بن نسر، استبّا.

فقال ابن نسر: أتذكر إذ ضربتك حتى سلحت؟
فاشهد عليه ابن عقاب بقوله ذلك.

ثم جاء عُمَرَ بن عبدالعزيز، وهو أمير على المدينة، فسأله أن يأخذ له بحقه منه، فلم يجد عند عمر في ذلك شيئاً يأخذه به له، فأرسل رسولاً إلى سعيد بن المسيب، يسأله ما عنده في ذلك من علم.

فقال سعيد: نعم، قد قضى عثمان بن عفان في ذلك بين رجلين، أصاب ذلك أحدهما من صاحبه، فسأله الذي أصيب أن يَقِيْدَه منه، فأبى عثمان، وقال: لا هي أكثر من ذلك، يريد مقعد الرجل، ولكنا سنعقل لك منه أربعين بعيراً، أو ثلاثاً وثلاثين، ثلث الدية.

فقضى عمر بن عبدالعزيز لجعفر بن عقاب على صاحبه بمثل الذي قضي به عثمان». [1]

وهذه زلة من جعفر بن نسر، كلفته كثيراً، ولو علم بما كان سيؤول إليه الأمر، لما تلفظ بما تلفظ به، وكان غريمه ذكياً، انتهز الفرصة، وتمسك بها، ولم يضعها، وضرب رأس المسمار حتى غاص في الخشبة، فجاء له ذلك بخير عميم.

والأمور التي تستوجب الحدود كلها تنطوي على زلات، وتعتبر من أعظم الزلات، ونأخذ مثلاً واحداً على السرقة، وهي زلة، يقدم عليها السارق،

---

(١) الإشـــراف: ١٩٠.

وفي ذهنه أنه سوف يربح ربحاً كاملاً، ويعميه هذا الطمع عن أن يرى الجوانب الأخرى، وهي إخفاقه في بلوغ الأرب، والعقاب الذي سوف يناله إذا وقع في يد من لا يرحمه؛ ولا يكون في ذهنه شاغل إلا التدبير والتخطيط لعمله المتدني؛ يأخذ حيز فكره كله، ويستولي على لبه، ولا يرتاح إلا بعد أن يفعل فعلته، ويرتكب جريمته؛ وقد تطبق عليه المصيدة من حيث لا يعلم، ويقع في شباك شارك هو في نصبه دون أن يدري، وهذا مثل لذلك:

«جاء رجل إلى سليمان النبي ﷺ وقال:

يا نبي الله، إن لي جيراناً يسرقون أوزي.

فنادى (سليمان): الصلاة جامعة.

ثم خطبهم، فقال في خطبته:

واحدكم يسرق أوزة جاره، ثم يدخل المسجد والريش على رأسه. فمسح رجل برأسه.

فقال سليمان: خذوه، فإنه صاحبكم». [1]

(١) الأذكياء: ١٧.

وزلات الإجرام متنوعة ومتعددة، وكلها منطلقها شرير، يعود إلى الطمع، أو نزعة الإجرام البحتة، وكلما تمكنت زلة الإجرام قرب القضاء عليها، وكلما زادت حدتها لطف الله بخلقه في كشفها، والتخلص من شرها؛ وهذه قصة عجيبة غريبة، تري تغلغل الشر، نتيجة الحقد، وإضمار الضغينة، وكيف أن الله ردّ كيد المؤذي في نحره، وأراه قدرته ـ سبحانه ـ على حماية الحق، وإزهاق الروح التي حرم الله قتلها إلا بالحق، والراهب استفاد من احترام الناس له لتظاهره من التقرب إلى الله عن طريق دينه، ولكنه خان دينه، فوكله الله إلى نفسه، وحصد بيمينه ما بذره، ونال جزاءه من حيث لم يحتسب:

«حدثنا رجل من الجند، قال:

خرجت من بعض بلدان الشام أريد قرية من قراها، فلما صرت في الطريق، وقد سرت عدة فراسخ تعبت، وكنت على دابة، وعليها خرجي ورحلي، وقد قرب المساء؛ فإذا بحصن عظيم، وفيه راهب في

صومعة، فنزل إلي، واستقبلني، وسألني المبيت عنده، وأن يضيفني، ففعلت.

فلما دخلت الدير لم أجد فيه غيري، فأخذ بدابتي، وجعل رحلي في بيت، وطرح للدابة الشعير، وجاءني بماء حار، وكان الزمان شديد البرد، والثلج يسقط؛ وأوقد بين يدي ناراً عظيمة، وجاء بطعام طيب، فأكلت؛ ومضت قطعة من الليل، فأردت النوم، فسألته عن طريق النوم، ثم سألته عن طريق المستراح، فدلني على طريقه، وكان في غرفة، فمشيت، فلما صرت على باب المستراح إذا بارية[1] عظيمة، فلما صارت رجلاي عليها نزلت، فإذا أنا في الصحراء، وإذا البارية كانت مطروحة على غير سقف.

وكان الثلج، تلك الليلة، يسقط سقوطاً عظيماً، فصحت فما كلمني، فقمت، وقد تجرح بدني، إلا أني سالم، فجئت، فاستظللت بطاق عند باب الحصن من الثلج، فإذا حجارة، لو جاءتني، وتمكنت من

---

(١) البارية: هي الخُصّاف أو الخصفة، تعمل من ورق عسبان النخل.

دماغي، طحنته، فخرجت أعدو، وأصيح، فشتمني، فعلمت أن ذلك من جانبه؛ وطمع في رحلي.

فلما خرجت وقع الثلج علي، وبل ثيابي، ونظرت، فإذا أنا تالف بالبرد والثلج، فولد لي الفكر أن طلبت حجراً فيه نحو ثلاثين رطلاً، فوضعته على عاتقي، وأقبلت أعدو في الصحراء شوطاً طويلاً حتى أتعب، فإذا تعبت وحميت وعرقت طرحت الحجر، وجلست استريح، فإذا سكنت، وأخذني البرد تناولت الحجر وسعيت كذلك إلى الغداة؛ فلما كان قبل طلوع الشمس، وأنا خلف الحصن إذ سمعت صوت باب الدير قد فتح؛ وإذا أنا بالراهب قد خرج، وجاء إلى الموضع الذي قد سقطت منه، فلم لم يرني قال:

يا قوم، ما فعل؟ وأظن المشؤوم قد رأى بقربه قرية، فقام يمشي إليها، كيف أعمل؟

قال: وأقبل يمشي، فخالفته أنا إلى الباب، ودخلت الحصن، وقد مشى هو من ذاك المكان يطلبني حوالي الحصن، فحصلت أنا خلف باب الحصن؛ وقد كان

في وسطي سكين، لم يعلم بها الراهب؛ فوقفت خلف الباب، فطاف الراهب، فلما لم يقف لي على أثر عاد، ودخل، وأغلق الباب؛ فحين خفت أن يراني ثرت إليه، ووجأته بالسكين، فصرعته، وذبحته؛ وأغلقت باب الحصن، وصعدت إلى الغرفة، واصطليت بنار كانت موقودة هناك، وطرحت علي من تلك الثياب، وفتحت خرجي، ولبست منه ثياباً، وأخذت كساء الراهب، فنمت فيه، فما أفقت إلا قريب العصر؛ ثم انتبهت، فطفت الحصن حتى وقعت على طعام، فأكلت، وسكنت نفسي، ووقعت بمفاتيح بيوت الحصن، وأقبلت أفتح بيتاً بيتاً، وإذا بأموال عظيمة، من عين وورق وأمتعة وثياب وآلات، ورحال قوم، وأخراجهم، وحمولاتهم؛ وإذا الراهب من عادته تلك الحال مع كل من يجتازه وحيداً، ويتمكن منه، فلم أدر كيف أعمل في نقل المال، فلبست من ثياب الراهب شيئاً، ووقفت في صومعته أياماً، أتراءى لمن يجتاز بي في الموضع من بعيد، لئلا يشكوا في أني أنا

هو، فإذا قربوا لم أبرز لهم وجهي، إلى أن خفي خبري.

ثم نزعت تلك الثياب، وأخذت جولقين مما كان في الدير من تلك الأمتعة، وملأتهما مالاً، وجعلتهما على الدابة، وسقتها إلى أقرب قرية كانت، واكتريت فيها منزلاً، ولم أزل أنقل منه الصامت حتى حملته كله؛ ثم ماخفّ، وكثرت قيمته، حتى لم أدع إلا الأمتعة الثقيلة؛ واكتريت عدة أحمال، وحمير، ورجالة، وجئت بهم دفعة واحدة، وحملت كل ما قدرت عليه، وسرت في قافلة عظيمة لنفسي بغنيمة هائلة، حتى قدمت بلدي، وقد حصل لي عشرة آلاف درهم، ودنانير كثيرة، مع قيمة الأمتعة، وغصت في الأرض فما عرف خبري». [1]

إذا صحت هذه الرواية فهي عجيبة، وهي توضح أن بعض الزلات قاتلة، وتري كيف أن الإنسان يستمرئ الزلة، ويكررها، فيسكره النجاح الذي يأتيه في أول الأمر، ثم يبدأ يستهين ببعض الخطوات

---

(١) الأذكياء: ١٠٨.

الحذرة، التي كان يحرص عليها في أول الأمر، فيفتح بذلك ثغرات ضعف في خطته، ويهدم فجوات في سور حيطته وحذره، فيفاجأ بخطته تخونه، وسهمه يعود عليه، كما حدث في هذه القصة.

والإنسان معرض للزلات، خاصة الصغيرة منها، والتي قد تمر عليه في يوم واحد عدة مرات، تبعاً لصفاته وعاداته، وما جبل عليه، والتربية التي تلقاها؛ وقد تكثر زلات ناقص التفكير، والصغير، وحاد الطبع، ومن يتعرض لضغوط الناس، ويكون في فم المدفع معهم.

لو حاول أحدنا أن يحصي على نفسه عدد الزلات التي يرتكبها، ويقر هو بارتكابها، لوجد أن حصيلته من ذلك عظيمة؛ ولو فعل الإنسان ذلك فقد يفيده هذا في تجنب مواقع الزلل، لأن الإحصاء سوف يرعبه، والإحصاء لسان فصيح، مادته الأرقام، وصورته الجداول، المسهلة لبسط الصورة، المهيأة للاقتناع.

ولولا أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد أنعم على الإنسان بالنسيان، لكان لتراكم هم الزلات، أثر عليه، قد تجعل حياته شقية، ولكن الله ـ سبحانه ـ حكيم عليم بما عليه خلقه، فتداركهم بهذه الرحمة، رحمة النسيان.

أذكر من بين المواقف التي مرت بي، وأنا طالب في البعثة في مصر، ونحن ندرس في الجامعة، بعض مواقف الزلات الطريفة المؤلمة، والتي أصبحت اليوم ذكريات، بقي منها الجانب المضحك، واختفى، مع مرور الزمن، المؤلم.

كان طلاب البعثة في السنوات السبع الأولى تقريباً يسكنون في بيت واحد، يستأجر لهم، يشتركون في غرفه، وتشرف عليهم إدارة خصصت لذلك؛ في هذا البيت يسكنون ويأكلون ويشربون؛ ومنه ينطلقون إلى جامعاتهم، ومنها يعودون إليه؛ وكانت حياتهم بهجة، لأن كل شيء مهيأ لهم، وكان المرح يغلب عليهم، وقد اشتهر بعضهم بحب المزاح، وإيقاع الآخرين في مواقف حرجة، تصبح حديث طلاب

البعثة أياماً وأياماً، حتى يستجد ما يمحو الحديث عن القديم.

وكان من بين أمور الضبط والتنظيم أن لا يتأخر الطالب خارج بيت البعثة بعد السابعة مساءً؛ وصادف في تلك الأيام أن صلاة المغرب تحل بعد ذلك بنصف ساعة، وتأخر أحد الطلاب، وعندما وصل إلى الشقة التي يسكنها كان الطلاب قد دخلوا في صلاة المغرب، فلاحظ أن أحدهم كان لابساً ملابسه كاملة، بما في ذلك الطربوش، وكان هناك جدل في أمر الصلاة والرأس مكشوفة، حتى أن بعض الناس عندما تقام الصلاة يخرج منديلاً يضعه على رأسه.

رأى هذا الطالب الذي جاء متأخراً لابس البدلة والطربوش، فوقف في فتحة الباب، وقال:

«ما شاء الله، تبارك الله، من هذا المتنطع الذي لم يرض أن يصلي إلا «صنجه طق» (وهذا تعبير عسكري يعني أن الشخص بكامل ملبسه ومستعد بسلاحه)، والطلاب الذين يسمعونه كادوا ينفجرون ضاحكين،

لأن هذا اللابس هو مدير البعثة، جاء يفتش عن المتأخرين أمثال هذا الطالب صاحب الملاحظة؛ فلما تبين للطالب الأمر جفل راجعاً، ولاذ بالفرار ولم يرده إلا سطح البعثة، أختبأ هناك في مكان لعله كان في يوم من الأيام عشة دجاج؛ وقد سلم من العقاب، لأنه لا أحد من الطلاب أقر بأنه يعرفه عندما سئلوا عن ذلك، وأُلِحَّ عليهم بالسؤال؛ وصارت هذه الحادثة طرفة يتحدث بها؛ ولا أشك أن المدير ـ رحمه الله ـ قد عرف بعد يوم أو يومين اسم الطالب، لأن لا سر في البعثة يخفى، خاصة مثل هذا، وما فيه من زلة مضحكة.

وفي الزلات طرائف، حتى إذا كان يدخل فيها حد من الحدود، لأن بعض مرتكبي الزلات يكون ظريفاً وذكياً، فيخرج من الهفوة بطريقة معجبة، وهذا مثل على ذلك:

«قال الأعمش: دخل رجل داراً، فسرق طستا، فلما خرج رأى على باب الدار نفراً، فالتفت إلى

الدار، فقال:

إن لم يشتر بسبعة أبيعه بستة؟

يوهم أنه دفع إليه ليبيعه». [1]

وسنكتفي بهذا، لأن هذا الباب واسع، ولا يحصر الأمثلة فيه حد؛ لتشعب الأمر فيه؛ ودخول الزلات في كثير من الأمور، لأن طبيعة بعض الناس تهيء لهم الزلات.

***

(١) البصائر: ٤/١٤٨.

الفهـارس

(١) فهرس المواضيع حسب ورودها ٣٩٧

(٢) فهرس المواضيع حسب حروف الهجاء ٣٩٨

(٣) فهرس الأسماء ٣٩٩

(٤) فهرس الأماكن ٤٠٥

(٥) فهرس المراجع والمصادر ٤٠٦

(٦) فهرس الأبيات الشعرية ٤١٠

***

(١)

فهرس المواضيع
حسب ورودها

* المقـــدمـة ٥

* في اللغـة العـربيـة ٢٤

* الحكمة عصارة الرأي ٧٨

* المعمـرون والحــكام ١٣١

* المشـيب وصــوره ١٧٨

* القــــبيلة ٢٥١

* ظلمـــة الـزلــة ٣١٧

***

(٢)

فهرس المواضيع
حسب حروف الهجاء

* المقـــدمـة ٥

* الحكمـة عصارة الرأي ٧٨

* ظلمـــة الـزلـــة ٣١٧

* في اللغـــة العــربيـة ٢٤

* القـــبيلة ٢٥١

* المشـــيب وصـــوره ١٧٨

* المعـــمرون والحـــكام ١٣١

***

(٣) فهرس الأسماء

(أ)

إبان بن تغلب: ٣٠٥

أبـــد: ١٤٥، ١٤٨

إبراهيم بن خلف الوهبي: ٢٧١، ٢٧٢

أحمد بن فارس بن زكريا: ٢٨هـ، ٣٠، ٦٤، ٧٧

الأحمر: ٥١

الأحنف بن قيس: ٢٦٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣١٤

أردشــير: ٣٢٨، ٣٢٩

الأزد: ١٥٥

أسامة بن منقذ: ٢٤٣، ٢٤٧

أبو إسحاق الزيادي: ٢٨٢

الأسحم بن الحارث: ٢١٦

أسد: ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٨

إسماعيل بن الأشعث: ٣٥٦، ٣٥٧

إسماعيل بن أمية: ٣٨٣

الأصمعي: ٣١، ٢٧٥، ٣٣٥، ٣٣٦

ابن الأعرابي: ٦٩

الأعمش: ٣٩٤

أكثم بن صيفي: ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١٢١، ١٢٢، ٢٠٧

أمـــد: ١٤٤، ١٤٨

أمرؤ القيس بن حمام: ١٩٤

أمية: ١٤١، ١٤٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٩، ١٧٠

الأمويون: ١٥٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٠

أمية بن عبد شمس: ١٧١

أنس بن مدرك الخثعمي: ١٩١، ٢١٤

الأنصار: ٢٧٢، ٢٧٣

أوس بن حارثة: ٢١٦

أوس بن ربيعة بن كعب: ١٩٧

(ب)

بجيلة: ٢٧٨

بحر بن الحارث بن أمرئ القيس: ١٩٣

بسطام بن قيس: ٢٧٤

بكر بن وائل: ٣١٤

البكري: ٧٧

بهرام:: ٣٣٨

بيان بيأن: ٣١٢

(ت)

تبع: ١٩١

تميم: ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٩، ٣٠٣

التميمي: ٢٤٣

(ث)

الثعالبي: ٧٧

ثعلب: ٧٧

ثعلبة بن كعب بن زيد: ٢٠٥

ثوب بن تلدة الأسدي: ١٦٨، ٣٢٩

(ج)

الجرنفش بن عبده الطائي: ٢٠١
جساس: ٩٥
بنو جعفر: ٣٨٣
جعفر بن عقاب: ٣٨٣، ٣٨٤
جعفر بن قرط الباهلي: ٢٠٥
جعفر بن نسر: ٣٨٣
جهينة: ٣٤٦
الجنيد: ١٤٤

(ح)

حاتم: ٢٨٠
أبو حاتم: ١٤٤، ١٧٠
الحارث بن التوءم اليشكري: ٢١١
الحارث بن حبيب الباهلي: ٣٣١
حارثة بن عبيد الكلبي: ١٨٧
الحبشة: ٢٨٨، ٢٩٠
الحجاج بن أرطاة: ٣١١، ٣١٣
الحجاج بن يوسف: ١٥٥، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٥٧
حرب البسوس: ٩٥
حريث بن جبلة: ١٦٣
الحسن البصري: ٣٧٤
أبو الحسن: ٣٢٥
الحسن بن زياد: ٣١١، ٣١٢
الحسن بن سهل: ٣٠٨
الحسن بن علي: ٢٨٤، ٢٨٦
الحسن بن يزيد: ٢٨٩
الحسين بن علي: ٢٨٤، ٢٨٦
الحكم بن عوانه: ٢٦٥
الحكم بن المنذر بن الجارود: ٣١٥
ابن حممه الدوسي: ١٨٦، ٢١٣
حميد بن هلال: ٢٨٣
حمير: ٢٨٧
بنو حنيفة: ٢٧١

(خ)

خالد بن صفوان: ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٠٩، ٢٩١
خالد بن الوليد: ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦
خنابه بن كعب العبشمي: ١٧٦، ٢١١

(د)

داوود بن جهوه: ٢٤٠
دريد بن الصمة: ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١٢٢، ١١٨
ابن دريد: ٧٧
دغفل: ١٧١
أبو دلف: ٢٤١

(ذ)

ذو القرنين: ١٩١
ذو الأصبع العدواني: ٢١٢
ذبيان: ٢٧٧
ذكوان: ١٤١، ١٥٠، ١٦٩

(ر)

بنو الرباب: ٣١٣
ربيع بن عبداك البجلي: ١٨٣
ربيع بن ضبيع: ١٨١، ١٨٥
ربيعة: ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٧٩، ٣١٣

الرستمي: ٣٦٥
الرسول ﷺ: ١٢٢، ١٤٦، ١٥٠، ١٥١، ٢٤٥، ٢٧٢، ٢٨٨، ٢٨٩، ٣١٢، ٣٣٦

(ز)

الزبير: ١٥١، ١٥٢
زهير: ٢٢٩
زهير بن خَبَاب: ٨٤، ٢٠٢، ٢٠٧
زهير بن مرخة: ١٩٦
ابن زياد: ٣٨٢
أبو زيد الطائي: ٣٥٨

(س)

السجستاني: ١٤٤
بنو سعد: ٢٧٧، ٣١٣
سعيد بن المسيب: ٢٨٣، ٣٨٤
السفاح: ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩١
سفيان: ٣٨٠، ٣٨١
مسلمة بن عبدالملك: ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٨
سليط: ٢٧٥
سليمان ـ عليه السلام ـ ٣٨٥
سليمان بن قيس الغساني: ٢٩٨
سمعان بن هبيرة: ١٨٦، ١٩٢
سوار: ٣٦١، ٣٦٢
ابن سيده: ٤١، ٧٧
ابن سيرين: ٣٧٣
سيف بن وهب: ١٨١
السيوطي: ٧٦

(ش)

ابن شبرمة: ٣٧٩، ٣٨١
شريك الحارثي: ٣٦٦، ٣٦٧
شريه بن عبدالجعفي: ١٥٩
الشعبي: ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٩
شيبان: ٢٧٩، ٢٩٣

(ص)

صعصعة: ٢٧٠

(ط)

أبو الطحان القيني حنظلة: ٢٢٤
طي: ٢٨٠

(ع)

عاصم بن قيس: ٣٠٣، ٣١٣
أبو عامر: ١٤٤
عامر بن جوين: ١٩٢
عامر بن الظرب العدواني: ١١٧، ٢٢١
عباد بن سعيد بن أحمد بن ثور: ١٨٣
عباد بن شداد اليربوعي: ١٩٥
العباسيون: ١٥٠، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠
أبو العباس السفاح: ٣١١، ٣١٢، ٣١٦
عبدالرحمن بن عبدالله بن سابط: ٣٤٧
عبد قيس: ٣١٥
عبدالله بن سبيع الحميري: ٢١٥
أبو بكر عبدالله بن سلمي الهذلي: ٣١١
عبدالله بن عوف القاري: ٢٦٦
عبدالمسيح بن عمرو بن قيس بن ثعلبة الغساني: ١٣٥، ١٥٧

عبدالملك بن مروان: ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠٠
عبد يغوث بن كعب: ١٨٣
عبس: ٢٧٦، ٢٧٧
عبيد بن الأبرص الأسدي: ٢٢٤
عبيد بن شريه الجرهمي: ١٣٩، ١٦٠، ١٦١، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧
عبدالله بن عباس: ٢٨٤، ٢٨٥
أبو عبيدة: ٤٣، ٥١، ٢٧٩
العتبي: ١٧٠
عتيبة بن الحارث: ٢٧٥
عثمان بن عفان: ٣٨٤
عثمان اليقطري: ٢٦٩
بنو عجل: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣
عدنان: ١٥، ٢٨٨
عدي بن حاتم: ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٠
عـذرة: ١٦٣
عرابة الأوسي: ٢٩٥
أبو العريان الهيثم بن الأسود النخعي: ١٩٩
عطاء بن السائب: ٣٤٧
عقيل بن علقة المري: ٣٥٠
عــلي: ٣١٢
عمران بن حصين: ٣٨٢
عمر بن الخطاب: ١٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧
عمر بن عبدالعزيز: ٣٥٠، ٣٥١، ٣٨٣، ٣٨٤
أبو عمرو: ٦٨
عمرو بن ثعلبة: ٢١٣
عمرو بن سعيد بن العاص (عمرو الأشدق): ١٧٠
عمرو بن العاص: ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٤٠، ٣٤١
عمرو بن قمئة: ٢١٠
بنو العنبر: ٣٦١
عنــترة: ٢٧٧
عـوانـة: ٢٧٩
عوف بن الأدرم بن غالب: ١٨٤
عوف بن سبيع بن عميرة: ١٨٦، ٢٠٩، ٢٢٣
عوف بن ملحم الخزاعي (أبو المجد): ٢٣٥هـ
ابن عياش: ٢٧٨

(غ)

غسان: ٢٩٨
الغساسنة: ١١٣

(ف)

الفــراء: ٥٠
الفرزدق: ٢٧٠
الفرس: ٢٨٨
فضالة بن زيد العدواني: ١٧١، ١٧٤، ١٧٥
ابن فضلان: ٨٠

(ق)

القالي: ٧٧
ابن قتيبة: ٧٧
قتيبة بن مسلم: ٣١٤
قحطان: ١٥، ٢٧٩، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩١
قريش: ٢٦٥، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٨٣

قضاعة: ١٦٣، ٢٧٩
قطري بن الفجاءة: ١٩٣
القلمس بن أمية بن عوف: ١٢٣
قيس بن عاصم: ٢٦٨، ٢٩٧
قيس عيلان: ٣١٤

(ك)

الكسائي: ٦٢
كسرى: ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٤٠
كعب بن رداة النخعي: ١٩٧، ٢٠٦
كلب: ٩٥، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧٩
الكلبي: ١٦٨
ابن الكلبي: ٢٨٠
كنانة: ٢٦٦، ٢٧٩
كندة: ٢٩٨
كهمس بن شعيب الدوسي: ٢٣٢

(ل)

لبيد بن ربيعة بن مالك: ٢٠٩، ٢٢٥، ٢٣٠، ٢٣٩
اللحياني: ٣٥، ٤١

(م)

مالك بن مسمع: ٣١٤
مالك بن هبيرة: ٣٣٦
المأمون: ٣٥٥
المبرد: ١٣٧، ٢٣٥
مجنون ليلى: ٢٥٧
محمد أديب عبدالواحد جمران: ٧٧
القاضي محمد بن سماعه: ٣٠٨
محمد بن عبدالرحمن بن أبي ليلى: ٣١١، ٣١٢، ٣١٤
محمد بن عبدالله بن طاهر: ٢٣٥، ٢٣٦
محمود الوراق: ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٤٣
مدحج: ٢٦٩
مرداس بن صبيح: ٢٠٨
بنو مرة: ٣٥٠
مسافع بن عبدالعزى: ١٨٧، ٢٠٢، ٢١٣
المساور بن هند بن زهير: ٢٣٧
المستوغر بن كعب: ٢٠٦
المسجاح بن خالد بن الحارث: ٢٣٠
مسعود بن مصاد بن حصن الكلبي: ٢٢١
أبو مسلم: ٣٢٢، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٤
مسلم بن محارب: ٢٦٩
مصاد بن جناب: ١٨٩
مضـــر: ٢٧٩
معاوية: ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٦، ١٥٨، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٦٩، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٦، ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٥، ٢٩٥، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٦٦، ٣٦٧
معاوية بن قرة: ٣٨٢
معـــد: ١٥٨
المغـيرة: ٢٧٠، ٣١٢
مضـر: ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠
المهلب بن أبي صفرة: ٣١٥
المنـذر: ١٥٧
المنذر بن حرملة: ٢٠٦
موسى ـ عليه السلام ـ: ٢٨٥

(ن)

النابغة: ١٨٢

نـــزار: ٢٨٧
النعمان بن بلي: ٢٣٤
النعمان: ١٥٧، ٣٤٩
النمر بن تولب بن أقيش: ٢٢٧
بنو نهد: ٢٧٨
نوح بن دراج: ٣٨٠، ٣٨١

(هـ)

هاجر بن عبدالعزى الخزاعي: ١٨٢، ١٨٧
هاشم: ١٤٦، ١٤٩
الهاشميون: ١٥٠، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٦
هامان: ١٨٥
هبل بن عبدالله الكلبي: ٨٤، ١٩٠، ٢٠٤
ابن هبيرة الكندي: ٢٩٨
الهدهد (هدهد سليمان): ٢٨٨
هشام بن عمر الغوطي: ١٣٧، ١٦٦
الهيثم: ٢٧٨

(و)

بنـو والبـة: ١٦٩
وسنان بن وهب بن تيم: ٢٠٢
الوليد بن عقبة: ٣٥٨

(ي)

يحيى بن أبي كثير: ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣
يحيى بن الحكم الغزال: ٢٠٠
بنو يربوع بن حنظلة: ٢٦٩، ٢٧٤، ٢٧٥
يزيد بن سيدان: ٢٧٢، ٢٧٣
يزيد بن نهشل النهشلي: ٣٥٩
يعقـــوب: ٦٨
يوم ذي قار: ٢٧٢
يوم الفروق: ٢٧٧
يوم الهباءة: ٢٧٦
اليمـــن: ٢٦٥

❊ ❊ ❊

(٤) فهرس الأماكن

الأهواز: ٣١٢

البصرة: ١٤٤، ٣١١، ٣١٣

بيت المقدس: ٢٩٨

جنفاء: ٣٥٠

حضرموت: ١٤٤

الحيرة: ١٥٥

الخورنق: ١٥٧

خيبر: ٣٤٨، ٣٥٠

دمشق: ٣٥٠

السدير: ١٥٧

سمعان: ٣٥٠

السند: ٣١٢

السواد: ٣٢٨

الشام: ١٤٠، ٣٥٠، ٣٧٣، ٣٨٦

عمان: ١٥٥

فارس: ٣١٢

القَرْص: ٣١٢

القُرْص: ٣١٢

القاوسان: ١٥٥

كرمان: ٣١٢

الكوفة: ٣١١، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٥

المدينة المنورة: ١٤٤، ١٥٩، ٢٨٩، ٢٨٣

مصر: ٣٩٢

مكران: ٣١٢

مكة: ١٤٠، ٣٢٥

الهند: ٣١٢، ٣٢٦

اليمن: ٢٦٥

❊ ❊ ❊

(٥) فهرس المراجع والمصادر

١ - الإتباع والمزاوجة

لأحمد بن فارس بن زكريا

تحقيق: محمد أديب عبدالواحد حمزة

من منشورات وزارة الثقافة السورية ـ ١٩٩٥؛

٢ - أحسن ما سمعت

لأبي منصور عبدالملك الثعالبي

تحقيق: أحمد عبدالفتاح تمام وسيد عاصم

مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٣٠٩هـ/١٩٨٩م

٣ - أخبار الظراف والمتماجنين

أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي

تحقيق: عبدالأمير مهنا

دار الفكر اللبناني ـ بيروت ـ الطبعة الأولى: ١٩٩٠م

٤ - كتاب الاختيارين

صنعة: الأخفش الأصغر

تحقيق: الدكتور فخر الدين قباوة

مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثانية: ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م

٥ - أدب الكاتب

لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة

تحقيق: محمد الدالي

مؤسسة الرسالة ـ ١٩٨١م

٦ - الإشراف

لأبي بكر عبدالله بن محمد بن أبي الدنيا

تحقيق: الدكتور نجم عبدالرحمن خلف

مكتب الرشد ـ الرياض ـ الطبعة الأولى: ١٤١١هـ/١٩٩٠م

٧ - الأذكيـــــــاء

لأبي الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي
تحقيق: لجنة إحياء التراث في دار الآفاق الجديدة ـ بيروت
الطبعة الرابعة: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

٨ - الاعتبـــــار

لسلمة بن مرشد بن علي بن منقذ
تحقيق: الدكتور قاسم السامرائي
دار الأصالة للثقافة والنشر والأعلام ـ الرياض
الطبعة الأولى: ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م

٩ - كتاب الأمالي

لأبي علي إسماعيل بن القاسم القالي
منشورات دار الآفاق الجديدة ـ بيروت: ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م

١٠- البصائر والذخائر

لأبي حيان التوحيدي
تحقيق: الدكتورة وداد القاضي
دار صادر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى

١١- بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذهن والهاجس

لأبي عمر يوسف بن عبدالله بن عبدالبر النمري
تحقيق: محمد مرسي الخولي
دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ الطبعة الثانية: ١٩٨١م

١٢- البيـــــان والتبيين

لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ الطبعة الأولى

١٣- كتاب تسهيل النظر وتعجل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك
لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي
تحقيق: محيي هلال السرحان والدكتور حسن الساعاتي
دار النهضة العربية ـ بيروت: ١٩٨١م

١٤- الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي
لأبي الفرج المعافى بن زكريا النهرواني الجريري
تحقيق: إحسان عباس
عالم الكتب ـ الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

١٥- كتاب الحيوان
لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
تحقيق: عبدالسلام هارون
دار إحياء التراث العربي

١٦- ديوان لبيد (شرح)
بشرح الطوسي
تحقيق: د. إحسان عباس
التراث العربي ـ الكويت ١٩٦٢م

١٧- ديوان المعاني
لأبي هلال العسكري
عالم الكتب

١٨- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار
لمحمود بن عمر الزمخشري
تحقيق: الدكتور سليم النعمي

١٩- شرح الحماسة
لأبي زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي
تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد
مطبعة حجازي بالقاهرة ـ ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م

٢٠- **طرائف وملح**

لموسى الأحمد نويرات

دار العلم للملايين - الطبعة الأولى: ١٩٩٢م

٢١- **كتاب العقد الفريد**

لأبي عمر بن محمد بن عبدربه

تحقيق: أحمد أمين ، أحمد الزين ، إبراهيم الابياري

مطبعة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الثانية: ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م

٢٢- **عيون الأخبار**

لأبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري

تحقيق: الدكتور يوسف علي طويل

دار الكتب العلمية - بيروت - ١٩٨٥م

٢٣- **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**

للراغب الأصفهاني

اختصار: إبراهيم زيدان - دار الآثار - بيروت

٢٤- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**

لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي

تحقيق: محيى الدين عبدالحميد

دار المعرفة - بيروت: ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م

٢٥- **المعمرون والوصايا**

لأبي حاتم السجستاني

تحقيق: عبدالمنعم عامر

دار إحياء الكتب العربية - عيسى البابي الحلبي وشركاه

٢٦- **كتاب المعمرين من العرب**

لأبي حاتم السجستاني

تحقيق: محمد إبراهيم سليم

دار الطلائع: ١٤١٣هـ/١٩٩٣م

٢٧- مغامرات سفير عربي

لأحمد بن فضلان

تحقيق: أحمد عبدالسلام البقالي

مطبوعات تهامة - جدة - الطبعة الأولى: ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م

* * *

(٦) فهرس أبيات الشعر

(أ)

وصار كفرخ النسر يهتز جيده	يرى دون شخص المرء شخصا إذا رأى	١٨٦
تهزأت عرسي واستنكرت	مشيبي ففيها جنف وازدراء	٢١٤
إذا جاء الشتاء فادفئوني	فإن الشيخ يهدمه الشتاء	٢١٢
فأصبحت الغداة رهين بيتي	وأخلفني من الموت الرجاء	٢٠٦
لقد عمرت حتى ما أبالي	أحتفي في صباحي أو مسائي	٢٠٧
أجيبوا يابني ثعل بن عمرو	ولا تكموا الجواب من الحياء	٢١٧

(ب)

وإن امرءاً قد عاش عشرين حجة	إلى مئتين كلها هو دائب	٢٢٩
تهدلت العينان بعد طلاوة	وبعد رضى فاحسب الشخص راكبا	٢٣٤
لبست شبابي فأفنيته	وأدركني القدر الغالب	١٨٢
أميم أميم قد أودى شبابي	وأخلفني البطالة والتصابي	١٨٤
أودى الشباب وحب الطلة الخبلة	وقد برئت في الصدر من قبله	١٨٤
وأصبحت في قوم كأن لست منهم	وبانت لهم لداتي منهم وضروبي	٢٤٣
ألا هل شباب يشترى برغيب	يدل عليه الحارث بن حبيب	٢٣١
إذا ما مضى القرن الذي كنت فيهمو	وخلفت في قرن فانت غريب	٢٤٢
ألا يا اسم أعياني الركوب	وأعيتني المكاسب والذهوب	٢١٢
ما رغبتي في آخر العيش بعدما	أكون رقيب البيت لا أتغيب	١٩٠

(ت)

لم يبق يا خذلة من لداتي	أبو بنين ولا بنات	٢٠٥
أدب على العصا لم يبق إلا	لسان صارم عضب حتات	٢٠٨
وأبوك لم يك عارفاً	ما فرق بين قطاته ولطاته	٧٤
كم من أسير تائه	ومن كمي معلم	٢٣١

وعــائــب عــابنــي بشيــب	لم يعـــد لمـــا ألم وقتـــه	٢٣٦
هنيئــاً مــريئــاً غير داء مخــامــر	لعزة من أعراضنا ما استحلت	٣٧٢
ألا ليتنـــي أنضيـــت عمــري	وهــل يجــدي علي اليــوم لبتــي	١٩٨

(ح)

يـرانــا أهــلنا لا نحـن مرضى	فنكــوى أو نلــدّ ولا صحــاح	٢١٣
جلســت عــذبــة وأبــو عقيــل	وعــروة ذو النــدى وأبــو ريــاح	١٨٧

(د)

إذا كــان المهلــب مــن ورائــي	هــدا ليلي وقــر لــه فــؤادي	٣١٥
لا يصلح القوم فوضى لا سراة لهم	ولا سراة إذا جهــالهــم ســادوا	١١٧
منــا الــذي منــع الــوئيــدات	فــأحيــا الــوئيــد فلــم تــوأد	٣٧٠
إذا مر نعش قيل نعش مسافع	ألا لا بــودي لــو بنــى لي لاحــد	٢٠٣
واستحصد القوم الذي أنا منهم	وكفــى بــذاك عــلامــة لحصــادي	٢٤٣
كبرت وأمســت عظــامــي رمــادا	ومــا تــأمــل العين إلا رقــادا	١٩٧
وتهزأ العرس مني إن رأت جسدي	أحــدب لم تبــق منــه غير أجــلاد	١٩٦
وأنت لقًى في البيت كالرأل مدنف	وقد كنت سباقاً إلى غاية المجد	١٩٠
قلـــت لحمـــى خيبر استعـــدي	هــاك عيــالي فــاجهــدي وجــدي	٣٤٨
وللموت خير لا مرئً من حياته	يــدب دبيبــاً في المحلــة كــالقــرد	٢٠٤
ضعفت قواي وخانني الثقتان	بصري وسمعي حين شارفت المدى	٢٤٤
ألا هل لمن أجرى ثمانين حجة	إلى مئــة عيــش وقــد بلــغ المــدى	٢٢٣
فنيت وأفنان الزمان وأصبحت	لداتي بنو نعش وزهر الفراقد	٢٢٥
رهينــة قعــر البيــت كـل عشيــة	كــأني أرقــى أو أصــوب في المهــد	١٨٨
لقــد طــوفــت في الآفــاق حتــى	بليــت وقــد أنَــى لي لــو أبيــد	٢٣٠
ولقد سئمت من الحياة وطولها	وسؤال هذا الناس: كيف لبيد	٢٢٧
كــل يــوم يحــوي قتيبــة نهبــا	ويــزيــد الأمــوال مــا لا جــديــداً	٣١٤
أراني كلمــا هـــرمــت يــومــاً	أتــى مــن بعــده يــوم جــديــد	٢١٥
بليــت وقــد كنــت دهــراً جــديــداً	وقــد عشــت دهــراً أبيــا جليــدا	١٨٣

يـا حكـم بـن المنـذر الجـارود	أنت الجواد بن الجواد المحمود	٣١٥
مع الثمانين عاث الدهر في جلدي	وساءني ضعف رجلي واضطراب يدي	٢٤٥
حنتنـي حـانيـات الـدهـر حتـى	كـأني خـاتـل يـدنـو لصيـد	٢٢٤

(ر)

إن الكبير إذا طـالـت زمـانتـه	فـإنمـا حملـهُ جنـازة عـار	١٩٤
أصبحت يا أم بكر قد تخوّنني	ريب الزمان وقد أزري بي الكبر	٢٢٢
أودى الشبـاب فمـا لـه متقفـر	وفقـدت أتـرابي فـأيـن المخبر	٢٣٧
بليت وافنتني السنون وأصبحت	لداتي نجوم الليل والقمر البدر	١٨٣
فـان أمـت فـالمـوت خير لي	مـن قبـل أن أهـذي ولا أدري	٢٠٥
وعاد كفرخ النسر أعمى عن التي	يريد طوال الدهر يهذي ويهذر	١٨٦
وصار في البيت مثل الحلس مطرحا	لا يستشـار ولا يعطـي ولا يـذر	١٩٣
وجعلـت إذا مـا قمـت يـوجعنـي	ظهري فقمت قيام الشارب السكر	٢٤٨
إذا مـا خشينـا مـن أمير ظـلامـه	دعونا أبا الأيتام يومًا فعسكرا	٣١٥
بليت وأفناني الزمان وأصبحت	هنيدة قد أنضيت من بعدها عشرا	١٨٣
وإذا تراءى القوم شخصا خاله	شخصين ثمت لم يكن هو أبصرا	٢١١
فـاسمـع أنبيـك بـأيـات الكبر	تقارب الخطو وضعف بالبصر	١٩٩
أرى الشخص كالشخصين والشيخ مولع	بقـول: أرى والله مـا ليـس يبصر	٢١٢
أصبـح منـي الشبـاب قـد حسرا	إن ينـأ عنـي فقـد ثـوى عصرا	١٨١
المـرء يـأمـل أن يعيـ	ـش وطـول عيـش قـد يضره	٢٣٩
تلعـب الأيـام بي فتركتنـي	أجب السنام حائرًا حين أنظر	٢١١
علي لسـان صـارم إن هـززتـه	وركني ضعيف والفؤاد موفر	١٧٦
أصبحـت لا أحمـل السـلاح ولا	أملـك رأس البعير إن نَفـرا	١٨٥
يـا قلـب إنـك في اسمـاء مغـرور	أذكر وهل ينفعك اليوم تذكير	١٦٣
وأصبحت مثل الفرخ لا أنا ميت	فـاسلى ولا حـي فـاصدر لي أمـرا	١٨٧
تناستني الآجال حتى كأنني	رذيـة سفـر بـالفـلاة حسير	٢٤٦
أبعـد المنـذريـن أرى سـوامـا	تـروّح بـالخـورنـق والسـديـر	١٥٧
فكنـت كـالنسر على الجـذيـرة	بـراضـة مـن عمـر يسيره	١٨٨

لقــد عمــرت حتــى صرت كــلا	مقيمـــــا لا أحـــــل ولا أسير	٢٠٢
فكم من صحيح عاش دهراً بنعمة	فحــل بــه يــوم أغــر مشهــر	١٩٣
فاجاك من وقد الشباب نذير	والــدهــر مــن أخــلاقــه التغيير	٢٤٠
تســألنــي عــن حــالي أم عمــر	وهي ترى ما حل بي من الغير	٢٠٠
سليــخ مليــخ كلحــم الحــوا	ر فــلا أنــت حلــو ولا أنــت مــرّ	٤٠
لقــد عمــرت حتــى مــل أهلي	ثوائي عندهم وسئمت عمري	١٩٨

(س)

اصبحــت لا أنفــع الصــديـق ولا	أملــك ضراً للشـــانـــئ الشرس	٢٢٠
وأنكرت شمس الشيب في ليل لمتي	لعمري لليلي كان أحسن من شمسي	٢٤١

(ص)

وبـدل مـن طـرف جـواء حشيـة	ومن قوسه والرمح والصارم العصا	٢٠٩

(ع)

ومــن لا يعتبــط يســأم ويهــرم	وتسلمـــه المنـــون إلى انقطـــاع	١٩٤
أليس ورائي أن تراخت منيتي	لزوم العصا تحنى عليها الأصابع	٢١٠
إذا المــرء عــاش الهنيــدة ســالمــاً	وخمسين عاماً بعد ذاك وأربعا	٢١٤
ويأذى به الأدنى ويرضى به العدا	إذا صار مثل الرأل أحدب أخضعا	١٩١
كبرت وطال العمر حتى كأنني	سليــم أفــاع ليلــه غير مــودع	٢١٣
وأصبحت مثل النسر طار فراخه	إذا رام تطيــاراً يقلــن لــه: قــع	١٨٦
ألا رب ذي أمــــــل كــــــاذب	بعيــد الــرجــاء قــوي الطمــع	٢٣٨
إذا الأبصــار أبصرت ابــن قيــس	ظللــن مهــابــة منــه خشــوعــاً	٣١٤

(ك)

مـــن شـــاب مـــات حيـــا	يمشي على الأرض مشي هـــالـــك	١٩٤

(ل)

أتـــاني بـــالمحلـــة أن أوســـا	على شظفــان مــات مــن الهــزال	٢١٦

نظـرت إلي بعين مـن لا يعـدل	لما تمكن طرفها من مقتلي	٢٤١
ألا رب نهب يخطر الموت دونه	حويت وقرن قد تركت مجدلا	٢٣٣
لعمري لقد أنكرت نفسي ورابني	مع الشيب أبدالي الذي أتبدل	٢٢٧
إما تريني لا أعين على الندى	ولا أنصر المولى كما كنت أفعل	٢٠١
كناطح صخرة يوماً ليوهنها	ولم يضرها وأوهى قرنه الوعل	١١٢
بني أم ذي المال الكثير يرونه	وإن كان عبدًا سيد ألأمر جحفلا	١٧٥
إذا جعل المرء الذي كان حازما	يُحل من حلّ الحوار ويحمل	٢٠٦
كفى حزنا أني أدب على العصا	فيأمن أعدائي ويبغضني أهلي	٢٤٨
وإن امرءاً قد عاش تسعين حجة	إلى مئة لم يسأم العيش جاهل	٢٠٧
أليس ورائي أن أدب على العصا	فيأمن أعدائي ويسأمني أهلي	١٨٩
ماذا أرجي من الفلاح إذا	قنعت وسط الضغائن الأول	١٩٢
أذل الحياة وذل الممات	وكلا أراه طعاماً دبيلا	٣٨٢

(م)

أرى شعرات على حاجـ	ـبي بيضا نبتن جميعاً تؤاما	٢٢٠
كأني وقد جاوزت تسعين حجة	خلعت بها عني عذار لجامي	٢٢٦
ابن عشر من السنين غلام	همه اللعب مولع بالحمام	٢٤٩
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش	ثمانين حولا لا أبالك يسأم	٢٢٩
فيا ليتني قد سخت في الأرض قامة	وليت طعامي كان فيه حمامي	٢٠٦
جاءت لتصرعني فقلت لها: ارفقي	وعلى الرفيق من الرفيق ذمام	٢٩٩
لقد ملني الأدنى وأبغض رؤيتي	وأنبأني الا يحل كلامي	٢٩٧
على الراحتين مرة وعلى العصا	أنوء ثلاثاً بعدهن قيامي	٢١٠
لا باه لي إلا المنى وأخو المنى	جدير بأن يلحى ابن حرب ويشتما	٢٧١
وما العيش إلا المال فاحفظ فضوله	ولا تهلكنه في الضلال فتندم	١٧٤
رمتني صروف الدهر حتى تركنني	أجب السنام بعدما كنت أبهما	٢١١

(ن)

يا ابن الذي دان له المشرقا	ن من بعد أن دان له المغربان	٢٣٥

ليت شعري والدهر ذو حدثان	أي حيـــن منيتـــي تلقـــانـــي	٢٠٨
لقـــد بنيـــت للحـــدثـــان بيتـــا	لـــو أن المـــرء تنفعـــه الحصـــون	١٥٧
ولقد سئمت من الحياة وطولها	وعمـرت مـن عـدد السنين مئينـا	٢٠٧
وللمـــوت خير حـــداج مـــوطـــإ	مع الضعن لا ياتي المحل لحين	٢٠٤

(هـ)

فـــالمـــوت خـــيـــر للفـــتـــى	فليهلكهـــــن وبـــــه بقيـــــة	٢٠٤

* * *

نبذة عن المؤلف :

- ولـد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة بالقصيم بالمملكة العربية السعودية.
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة.
- حصل على الليسانس من دار العلوم بجامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ.
- حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ.
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود.
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ.
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب.
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة لمدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف.
- عين في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء.

كتب صدرت للمؤلف :

- نشر عام ١٣٩٠هـ كتاب الشيخ أحمد المنقور في التاريخ.
- ألَّف عام ١٣٩٠هـ كتاب «عثمان بن بشر».
- ألَّف عام ١٣٩٥هـ كتيب «في طرق البحث».
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة العربية.
- طبع في عام ١٣٩٦هـ كتابه عن الملك « الظاهر بيبرس » باللغة الانجليزية.
- حقق عام ١٣٩٦هـ كتاب « الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر » ونشره.
- حقق كتاب: «حسن المناقب السريّة المنتزعة من السيرة الظاهرية» لشافع ابن علي، ونشره عام ١٣٩٦هـ.
- من حطب الليل، نشر في عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.
- ألَّف عام ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م كتاب: «قراءة في ديوان محمد بن عبدالله بن عثيمين».
- ألَّف بين عامي ١٤٠٩ و ١٤١٤هـ كتاب « أي بني » في خمسة أجزاء.
- ألَّف منذ عام ١٤١٤هـ كتاب «إطلالة على التراث» الأجزاء الأربعة عشر وبين يديك الجزء الخامس عشر.
- ألَّف عام ١٤١٨هـ كتاب «يوم وملك».

التوزيع

تطلب الأجزاء الخمسة عشر من كتاب «إطلالة على التراث» والأجزاء الخمسة من كتاب «أي بني»
من مؤسسة الجريسي للتوزيع

الرياض ١١٤٣١ ص. ب ١٤٠٥ - ت : ٤٠٢٢٥٦٤
جدة ت : ٦٨٢٦١٠٥ - الدمام ت : ٨٢٧١٨١١
القصيم ت : ٣٦٤٤٣٦٦ - خميس مشيط ت : ٢٢٢٠٧٥٨

مطبعة سفير تلفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ * الرياض

ردمك : ٨ - ١١٨ - ٢٧ - ٩٩٦٠ (مج ١٥)